" صورة المرأة في شعر البلاط البويهـــــي "

اعتدال خليل علي أبو درويـــــش

١٩٨٨

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

جامعة اليرمـــــــــــــــــــــوك
كلية الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية
قسم اللغة العربيـــــــــــــــــــــة

صورة المرأة في شعر البلاط البويهـــي

أعدتهـــــا

اعتدال خليل علي أبو درويـــــــش
بكالوريوس لغة عربية وآدابهـــــا
من الجامعة الاردنيـــــــــة

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
فـــي جامعة اليرمـــوك / اللغة العربية تخصص أدب ونقـــــد

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لجنة المناقشـــــة :

الدكتور عبدالقادر الرباعي (المشرف) ..... (رئيسا)
الدكتور قاسم المومنـــــي ..... (عضوا)
الدكتور عبدالفتاح نافـــع ..... (عضوا)

كانون الثاني ١٩٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الاهـــــــداء

==========

الى والدتي ووالدي وأخي فرحـان :

وددتُ كم وددتُ أن تشهدوا هذا الجهد ، أما وقد لبيتم جميعا نداء ربكـــــم ، فإلى أرواحكم الطاهرة في مرقدكم عند بارئكم أهدي لكم هذا الجهـــــــد المتواضع ، بعض من الوفاء لكثيرٍ كثيرٍ من العطاء .

اعتـــــدال

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بسم الله الرحمن الرحيم

"مقدمـــــــــــــة "

ما تزال المرأة رنة الفرح الجميل وإيقاع المرح العذب والجهة التي يتجّه الشاعر اليها كلّما تكاثف حزنه وادلهّم كربه واشتدت ظلمة زمانه .

وكانت المرأة كذلك - وفي أزمنة كثيرة - ممراً يلجه شعراؤنا اذا ما أرادوا الحديث في أي موضوع من المواضيع .

وما زال ذكرها والحديث عنها يستخدمان رمزاً يتخذه الشعراء للتعبير عن حاجات كثيرة ونوازع داخلية عديدة في أنفسهم . فكان مجالاً واسعاً ينداح عن كثير من القضايا والأمور ومحوراً تدور في مجاله أغراض رئيسة كثيرة يريد الشاعر قول الشعر فيها .

ولعلّ هذا يرجع الى أسباب منها الثقافية أو الاجتماعية أو النفسية التي تتماوج وتعتمل في نفوس الشعراء من العصر الجاهلي الى أيامنا هذه.

وقد اخترتُ بلاد العراق وفارس لأقف على صورة المرأة عند شعراء البلاط فيها أيام حكم البويهيين لها .

ودفعني الى هذا الاختيار جملة أسباب يقف على رأسها انني قد رأيت الغموض يشوب ذكر هذا العصر عند كثيرٍ من الناس ، فكيف بظاهرة جزئية من ظواهره الأدبية ؟ .

ويرجع الأمر بي إلى سنواتٍ عديدة خالية إذ عرض لي ذكر البويهيين وأنا في سياق قراءتي عن واحد من كتّاب هذا العصر وهو أبو حيان التوحيدي فلفت نظري أن الحديث عن العصر البويهي لم يحظَ بالاهتمامات الواسعة لدى الدراسات التي تعرض لطلاب العلم عبر مراحل دراستهم المختلفة .

كما أن الحديث عن هذا العصر عند من عرض لذكره من الدارسين لم يكن لذكر العصر خاصة وإنما جاء حديثهم عنه خلال دراستهم لأحوال العصور

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

التي سبقته أو تلته ولأحوال الأمصار الاسلامية التي حكمتها دول مختلفة إثر انقضاء الحكم العباسي سواء أكانت الدراسات أدبية أو تاريخية أو سياسية أو غيرها ... لذا فإنه لم يحظ بالدراسة الواسعة المفصّلة المتخصصة .

فقد عرض له الدكتور شوقي ضيف خلال حديثه عن مجموعة الدول والامارات التي حكمت العالم الاسلامي في أخريات العصر العباسي وما تلاه في كتابه " عصر الدول والامارات " كما عرض لدراسة جوانب من أدب العصر وشعره خلال كتابه هذا وكتابه الآخر " الفن ومذاهبه في الشعر العربي " . ومن يقرأ في هذين الكتابين يحس بأنّ كثيراً من القضايا الشعرية والأدبية في هذا العصر ما زال يكتنفها الغموض ولعل ذلك يرجع الى أن الدكتور شوقي ضيف لم يكن همه حصر دراسته في بيئة واحدة من بيئات الأدب في تلك الفترة أعني فترة حكم البويهيين العراق وفارس ، أو جعلها تتناول ظواهر أدبية بعينها وانما كانت دراسته عامة شاملة للعصر وأحواله المختلفة .

كما وجدت محمود غناوي الزهيري قد أعدّ دراسةً عن " الأدب في ظل بني بويه " لكنها أيضا كانت دراسة عامة عرضت للبويهيين في أحوال حياتهم المختلفة تاريخية وسياسية واجتماعية واقتصادية وأدبية كما أنه كان في كتابه مهاجما للبويهيين وأدبهم .

وفي هذه الدراسات الثلاث لم أجد أبداً من الباحثيْن قد عرض للمرأة في أوضاعها وأحوالها المختلفة بشكل متقصٍّ سواء على الصعيد الاجتماعي أو عند شعراء هذا العصر جميعا أو من يمثلهم .

ووجدت أبا حيان التوحيدي في كتابه " الإمتاع والمؤانسة " يعرض لذكر المرأة لكنه يوجه اهتمامه للمرأة الجارية أو القيْنة أو المغنية كما أن ذكره لها جاء وهو في معرض حديثه عن جواري بغداد ومغنياتها وغلمانها في ذلك العصر .

وفي كل من هذه الكتب لم أعثر على كلام يستقصي أحوال المرأة الحرة ويصورها عند شعراء البلاط البويهي ، كما أنّ الزهيري قد ألغى وجودها تماما حين ذكر في كتابه السابق أن شعراء هذا العصر قد توجّهوا جميعا نحو الغلمان والجواري وأعرضوا عن ذكر النساء الحرائر في شعرهم إعراضا تاما .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فكانت هذه الامور عقبة أعطتني دفعاً وحاولت جهدي تذليلها باستنطاق النصوص الشعرية وجعلها دليل اثبات أو نفي لما أريد قوله .

وكان همي جلاء صورة المرأة التي اعتورها الغموض واكتنفها الاهمال عند من تناولوا شعر هذا العصر بالدراسة .

وقد اخترت البلاط البويهي لأدرس صورة المرأة عند شعرائه لأني رأيت ذكر المرأة عند الشعراء الذين تناولت شعرهم يأخذ لونا خاصا متميزا في دلالته وما يهدف اليه وان كان ظاهره وشكله يدلان على أنه تقليدي متبّع دون أن ألجأ في ذلك الى الإلتواء بالنصوص وإخراجها عن أبعادها الحقيقية وقد رأيت أن أدرس صورة المرأة عند مجموعة محددة من الشعراء في بيئة ومكان محدودين لأن ذلك يعطي الدارس فرصة للوقوف على أبعاد كثيرة شاملة متسعة .

وقد كانت أولى خطواتي دراسة العصر دراسة كاملة بأوضاعه وأحواله مع توجيه عنايتي الخاصة الى أحوال البلاط البويهي كافة ، ثم تعرّفت الى أحوال كثير من شعرائه عامة وشعراء البلاط البويهي خاصة ، وقد دفعتني معرفتي بأحوال الشعراء وأوضاعهم من خلال نصوصهم الشعرية الى توزيعهم في فئتين : الأولى وهي التي شملتها هذه الدراسة والثانية وهي التي اضطرني شعرها الى اخراجها من اطار الدراسة وان عرضتُ لها سريعا في بعض فصول هذه الدراسة فلأنّ مجريات البحث اقتضت ذلك ، وهذا يعود الى أن لغة شعر هذه الفئة قد أخرجتها عن حدود الخلق القويم والذوق الانساني الرفيع اذ كانت العورات بأسمائها الصريحة تذكر فيها ولا تعفّ عن السلوك الموغل في الفحش فتفصّل الكلام عنه تفصيلا مقذعا مملوا بالتهتك والفساد ، وفي كتاب " يتيمة الدهر " للثعالبي أمثلة كثيرة لهذا الشعر .

ثم أخذت في الكشف عن صورة المرأة عند مجموعة شعراء الدراسة كما رسموها خلال هذا الشعر دون أن يكون للدراسات السابقة التي أشرت اليها أي تأثير في هذا سيما وأن ذكرها المرأة خلال تناولها شعر ذلك العصر لم يكن وافياً تاماً .

وأودُّ الإشارة الى كتابين علميين ضخمين اعتبرهما ديوانيّ هذا العصر كانا هما الهاديين لي - عدا دواوين الشعراء - في تلمّس

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الأبيات التي تناولت المرأة في العصر البويهي ، وهما " يتيمة الدهر" لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبيّ النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩ هـ وذيل " اليتيمة " وهو " دمية القصر " لعليّ بن الحسن الباخرزي المقتول سنة ٤٦٧هـ اذ لولا هذا المعلمان لبقي ذلك التراث الضخم من الشعر غير محصور بكتاب يضم نشره وينظم شذره ولا مجموع في مصنّف يقيد شوارده ويخلّد أوابده في الوقت الذي لم يجمع شعر كثير من شعرائه في دواوين مستقلة كما هو الحال بالنسبة لبقية الشعراء في كافة العصور .

ومن باب ردّ الفضل الى أهله لا يسعني الاّ أن أتقدم بشكري الوافر للدكتور عبدالقادر الرّباعي الذي أشرف على هذه الرسالة وأعطاها من علمه وأدبه وجهده ووقته ما جعلها تخرج على هذه الصورة . ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر للدكتور قاسم المومني الذي وافق على مناقشة هذه الرسالة فأعطاها جهدا يستحق الشكر ، وكذلك الدكتور عبدالفتاح نافع فقد كان له الجهد الطيب والدور الذي يستحق التقدير ، ولهؤلاء جميعا كل شكري وتقديري .

وكل ما أرجوه أن أكون قد وفيت الموضوع بعضاً من حقه وقمت بشيء من الواجب تجاه شعرنا العربيّ في البلاط البويهي خاصة وتجاه أدبنا العربي عامة ، وما الكمال الاّ لله وحده وبه نستعين أولا وآخرا .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الاول :ـ

العصر البويهي أحواله واوضاع المرأة فيه

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

العصر البويهي ، أحواله

لما كان الأدب ابن بيئته والأدباء أبناء بيئاتهم ومجتمعاتهم ، كان لزاماً علينا - قبل الشروع بدراسة ظواهر الأدب المختلفة في أي بيئة - أن نتناول بالبحث ذلك العصر الذي أنبت هذا الأدب وأخرجه وأن نعنى ببحث الأجواء السياسية التي أحاطت به والحياة الاجتماعية التي نشأ في كنفها والحالة العقلية والفكرية التي تغذّى بثمارها والأجواء الأدبية التي كانت متنفساً له لما لكل ذلك من أثر كبير في خلق الأدب وظواهره والأدباء وميولهم .

ولما كان موضوع هذه الدراسة وهو " صورة المرأة في شعر البلاط البويهي " يحتل مكاناً واسعاً من أدب القرنين الرابع والخامس . ولما كان الغموض يكتنف الحديث عن البويهيين وعصرهم عند كثير من الناس ، فقد رأيت قبل البدء بدراسة الموضوع وبحثه أن أتناول بيئة هذا الأدب بألوانها السياسية والاجتماعية والفكرية والعقلية حيث سيكون لها أثر كبير في توجيه هذه الصورة وجهتها التي وجدتها عليها .

وأريد الاشارة مرة أخرى الى أنّ هذا العصر لم يحظَ بالدراسات الواسعة المستقلة ، وانما جاءت دراسته عند أدباء كثيرين مع دراستهم لغيره من العصور أو الدول السابقة واللاحقة له والتي تلت العصر العباسيّ ، كما أن بحوثهم هذه سلطت الضوء على الجوانب السياسية والاجتماعية وأجملت الحديث عن الشعر والأدب ، ولقد افتقدتُ بحثا يدرس ظاهرة أدبية بعينها من ظواهر هذا العصر الأدبية .

وتتابع هذا الأمر على نسق واحد الى الآن مما يدل على اعتماد هذه المصادر بعضها على بعض[1] ، ولعل في ذلك دافعا لكثير من الدارسين كي

(١) أنظر في تجارب الأمم لمسكويه ، وفيات الأعيان لابن خلّكان ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز دائرة المعارف الاسلامية " مادة بويه " ،يتيمة الدهر للثعالبي ،دمية القصر للباخرزيّ، الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ، ظهر الاسلام لأحمد أمين ، النثر الفني في القرن الرابع لزكي مبارك ، تاريخ الشعوب الاسلامية لكارل بروكلمان ، وكتب شوقي ضيف الثلاثة : العصر العباسي الثاني والفن ومذاهبه في الشعر العربي وعصر الدول والامارات ، أدباء العرب في الأعصر العباسية لبطرس البستاني ،دراسة تحليلية لشعر مهيار الديلمي لعلي الدلّال ، الشريف الرضيّ لمحمد عبد الغني حسن ، الأدب في ظل بني بُويه لمحمود غناوي الزهيري ،دواوين الشعر في هذا العصر .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يتابعوا دراسة كثير من الظواهر الأدبية الجديرة بالدراسة والتي لم توفّ حقها من البحث ، ففي هذا العمل فتح لمزيد من أبواب الدرس والمتابعة وسدّ لثغرة ما زال يعاني منها الأدب في ذلك العصر .

الحالة السياسية :

نعلم أنّ الدولة الاسلامية قد بسطت سلطانها على أرجاء مترامية وامتد نفوذها الى أقطار متباعدة مختلفة ديناً ولغةً وعاداتٍ وتاريخاً وثقافة ، وأن عوامل الاختلاف هذه قد تداخلت عندما وحّد الاسلام ما بين شعوبها فأصبحت واحدةً بنعمة الله وقوة الخلافة الاسلامية . ونعلم كذلك أنّ الاعاجم قد ساعدوا على قيام الدولة العباسية وأن هؤلاء الأعاجم كانوا من تلك الشعوب التي خضعت للدولة الاسلامية وأنهم تحينوا الفرص لمنازعة العباسيين سلطانهم وملكهم وعاشوا يرجون الاطاحة بهم وإذلالهم وكسر شوكتهم ، كيف لا ؟ والعباسيون امتداد للقوة والسلطان الذي أذال من دولة الفرس وأنهى قوتها وجبروتها ، فحاولوا اثارة الفتن الداخلية وساعدوا على ضرب الأحزاب المختلفة بعضها ببعض من جهة ومن جهة أخرى حاولوا التقرب من أولي الأمر فتشبعوا بالثقافة الاسلامية وآدابها وأوجدوا ثقافة ظهرت فيها الروح الفارسية واضحة .

وقد هرمت الدولة العباسية مبكرة ، فما أن انتهى القرن الثالث الهجري حتى أخذت عوامل الضعف والفساد والانقسام تدبّ في أنحائها المتباعدة لأسباب عديدة أرجعها المؤرخون الى ضعف الخلفاء وسوء تدبيرهم وفسادهم وتسلط القادة الطامعين عليهم اذ أتيح للعنصر التركي من النفوذ والغلبة ما مكّنه من التدخل في شؤون الخلافة واختيار الخليفة وتوليته وخلعه وتعذيبه وقتله ،وقد أطلق على هذه الفترة اسم العصر التركي (٢٣٢ - ٣٣٤) ، تولى الخلافة فيه اثنا عشر خليفةً عباسيا قُتل منهم اثنان وخُلع خمسة وتُوفي الباقون .(١)

ومن هذه الأسباب أيضا أن الروح القومية للأُمم المختلفة بقيت حيةً كامنةً في نفوسها ولم تمت بمجرد خضوعها للمسلمين ودخولها في الاسلام لذلك بقيت تقتنص الفرص لاحياء كيانها السياسي والاستقلال بدولها وبكل عناصر قومياتها من جديد ، فحانت الفرصة بضعف الخليفة في بغداد مما مكّن هذه الأمم من الانفصال والاستقلال بدويلات قوية مزدهرة نشطة نشاط أي دولة ناشئة تنافس كل منها الأخرى في شتى جوانب الحياة فاستقل القرامطة بالبحرين واليمامة ، والحمدانيون بالموصل وحلب والجزيرة العراقية ، والاخشيديون

(١) شوقي ضيف . العصر العباسي الثاني .ط ٢،دار المعارف ،مصر ،١٩٧٥،ص ١٢ - ١٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بمصر والشام ، والفاطميون بالمغرب وافريقيا ، والسامانيون بخراسان وتركستان، والزياريون بجرجان ، والديالمة بالعراق وفارس .

ويجب أن أشير الى أن المسلمين افراداً لم ينفصلوا ولم تمنعهم حركات الاستقلال هذه من الارتحال والتنقل بين اقطار العالم الاسلامي المختلفة وبين هذه الدويلات الصغيرة الناشئة .

ولعلي لا آتي بجديد إذا قلت أن هذا التنافس الشديد الذي أشرت اليه بين هذه الامارات الجديدة ومحاولة كل من حكام هذه الدويلات اجتذاب كبار العلماء والأدباء ارتفاعا بامارته عن غيرها هو الذي أدى الى نشاط الحركتين الأدبية والعلمية نشاطا لم تشهده العصور الاسلامية قبلا ، على الرغم من التفكك السياسي والتأخر الاقتصادي والاجتماعي في الخلافة عامة حيث سادتها الفوضى وعمّتها الفتن وكثر فيها الفساد وتقلص ظل الخليفة وتناقص سلطانه حتى اقتصر على بغداد وما حولها.

وقد شهدت هاتان الحركتان نشاطاً ملحوظاً متميزاً جعل بعضهم يطلق على هذا العصر " عصر النهضة في الاسلام حيث توطدت أُسباب الحضارة وتجلت مظاهر رقي المسلمين وبلغت فيه علومهم وفنونهم ذروتها ".(١)

البويهيون : في ظل الفوضى السياسية والاضطرابات والفتن خرج زعماء الديلم منتهزين فرصة ضعف السلطة المركزية في بغداد للانقضاض على المناطق القريبة منهم وانضم الى كل زعيم جماعة ناصروه وعاونوه من أجل الاستيلاء على هذه المناطق ، ومن بينهم خرج " أسفار بن شيرويه " الديلمي نكاية في "ماكان بن كالي " القائد الذي كان قد طرد " أسفار " من جيشه . فاستولى أسفار على طبرستان وعاونه هناك قائد يدعى " مرداويخ بن زيار " ثم أرسل أسفار مرداويخ لمقاتلة " سلاّر " صاحب شميران لكنه اتفق مع سلار ضد قائده أسفار وساعدهما " ماكان بن علي " فقتل أسفار . وهنا توسع نفوذ مرداويخ الذي ضم اليه همذان وكنكور والدينور ويزدجرد وقاشان واصبهان . ثم ما لبث أن خضع لطبيعة الغدر بالقادة والأعوان وهي التي عرفوا بها فغدر بابن كالي واستولى على ما كانَ بيده من طبرستان وجرجان وأصبحت بلاد الجبل كلها في حوزته فوصلت جيوشه حدود العراق وأقرّه الخليفة العباسي " المقتدر " على ما كان بيده .

---

(١) آدم متز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري . نقله الى العربية محمد عبدالهادي ابو ريده بيروت (دار الكتاب العربي، المجلد الأول ، ط ٤) ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م . ص ٥٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن بين جنود " ماكان بن كالي " اخوة ثلاثة هم علي وحسن وأحمد، ويذكر الثعالبي في يتيمة الدهر أنهم من اولاد أبي شجاع فنا خسرو[١] أو أبي شجاع بويه ومن هنا سموا به وانتسبوا اليه كما يذكر مسكويه .[٢]

وينقل أنيس المقدسي عن ابن العبريّ أن فناخسرو هذا من ولد يزدجرد آخر ملوك الفرس [٣] بينما يرى غيره من المؤرخين ان نسبهم يتصل بالملك الساماني بهرام كور .

ويرى شوقي ضيف أن كل هذا النسب عبارة عن ملق من المؤرخين لأولاد بويه حينما صار اليهم الملك .[٤]

ويجمع كثيرون على أن بويه هذا كان صيادا على بحر قزوين وهو فارسي من الديلم ، وكان ابناؤه علي والحسن وأحمد يحتطبون حوله وقد ساعدهم الحظ بدخولهم في خدمة " ماكان بن كالي " وانصرافهم عنه الى مرداويخ الذي غدر " بابن كالي " حينما رأوا أن أمره قد ضعف فولى مرداويخ عليا منطقة الكرج وما لبث علي أن فتح اصفهان ثم فارس كلها فأقطع أخاه الحسن أصفهان وأخاه أحمد كرمان حيث ما لبث أن ولي العراق ودخل بغداد حين كانت المجاعة تهددها وأزال سلطة الأتراك عنها وكان ذلك عام ٣٣٤هـ في عهد الخليفة المستكفي بالله الذي أقره بالحكم ومنح أولاد بويه الألقاب - على عادة ذلك العصر - فلقب أحمد معزّ الدولة وعلياً عماد الدولة وحسناً ركن الدولة . وبذلك تقلص ظل الخلافة العباسية التي لم يبق لها سوى بغداد .

وعند هذا الحدث ينتهي العصر العباسي الأدبي ويدخل الأدب العربي بعد ذلك عصر الدول والامارات .[٥]

وقد أطلق على فترة حكم هؤلاء الديالمة عصر بني بويه الذي استمر اكثر من قرن تمكنوا خلاله من القضاء على نفوذ الاتراك وانتزعوا جزءا من امارة

---

(١) الثعالبي يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ط٢، ١٩٧٣ جـ٢ ،ص ٢١٦.

(٢) مسكويه ، تجارب الامم (مطبعة شركة التمدن الصناعية) مصر ، ١٣٣٢ هـ/ ١٩١٤م ، ص ١٧٦ .

(٣) أنيس المقدسي . أمراء الشعر العربي في العصر العباسي ، دار العلم للملايين بيروت ط ٨ ، ١٩٦٩ ، ص ١٥.

(٤) شوقي ضيف . عصر الدولة والامارات . دار المعارف . القاهرة . ص ٢٣٣.

(٥) المصدر السابق ، ص ٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الحمدانيين وحكموا بذلك بلاد الجزيرة والعراق وغربيّ ايران وساسوا الرعية أحسن سياسة كما يقول ابن خلّكان .(١) ويشهد لهم مسكويه بأنهم كانوا يحسنون معاملة الأسرى ويعفون عنهم ويؤمنونهم من جميع ما يكرهون حتى يطمئنوا اليهم، ولعل هذا جعل الناس يميلون اليهم وسهّل عليهم الانتصار على الجيوش ، وكذلك فقد عُرفوا بالتضافر الوثيق والطاعة التامة في أجيالهم الأولى على الأقل حيث بلغ البيت البويهي قوة وعظمة يشهد لهما في عهد عماد الدولة خاصة كما يقول متز نقلا عن مسكويه .(٢)

أمّا ركن الدولة فيصفه متز صفات تتناقض بعضها بعضا ففي حين يصفه بالحلم وسعة الكرم وحسن السياسة لرعاياه وجنده ، وبالرأفة وبعد الهمة والتحرّج من الظلم فانه بالمقابل " ينعم بما يتعجل له ولا يرى النظر في عواقب أمره وعواقب أمور رعيته ولقد قاسى الوزير ابن العميد كثيرا في خدمته وذلك من فساد أحوال حكومته وعدم استماعه لآراء وزيره مع جودتها .

وأما معزّ الدولة أمير العراق فقد عرف بالحدّة وسرعة الغضب وبذاءة اللسان ولقد ألحق بوزيره المهلبيّ من الفحش والشتم والضرب ما لا صبر لأحد عليه وصادر أمواله بعد وفاته وبعد أن وزر له ثلاث عشرة سنة ، ولم يعرف لخليفة بغداد قدراً ولا لرعيته اعتباراً فخبط الناس واستخرج الاموال من غير وجوهها وسامح الوزراء المقطعين وقبل الرشوة .(٣)

واشتهر من امراء البويهيين كثيرون وصفتهم كتب التاريخ بشيء من التفصيل فمنهم عزالدولة بختيار بن معز الدولة الذي ساءت الأحوال في عهده لانصرافه عن تدبير شؤون البلاد الى اللهو والملذات مع أنه كما يقول المؤرخون كان قوياً شجاعاً ومنهم عضد الدولة بن ركن الدولة الذي تولّى ملك أبيه وعمه عماد الدولة الذي توفي غير معقّب ولداً . كذلك فقد انتزع الموصل من الحمدانيين وجرجان من قابوس بن وشمكير ، وتمثّل مدة حكمه عهد الرخاء والازدهار العمراني والأدبي ، فقد وصفه ابن الأثير بأنه كان " فاضلا حسن السياسة كثير الإصابة شديد الهيبة مُعظّما للعلوم وأهلها.(٤)

لكنه وكما يقال كان كثير الغضّ من أهل بغداد لا يجد لاحد منهم فضلا

---

(١) ابن خلكان ،وفيات الأعيان ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ،بيروت، جـ ٣ ص ٣٣٩.

(٢) آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري . المجلد الاول ص ٥٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٧ ، ٥٩ .

(٤) ابن الأثير . الكامل في التاريخ ، بيروت (دار صادر)١٩٦٦م ،جـ ٢، ص ١١٢، ١١٣ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

ولم يكن يشعرهم بقربه منهم ، وكانت فيه قسوة شديدة ومما يصور ذلك رميه بابن بقيّة الوزير تحت أرجل الفيلة حين سلّمه إليه بختيار لأمور ساءته فقتلته بأرجلها شر قتلة . وهو أول من لقب بشاهنشاه (ملك الملوك) في الاسلام واصبح البويهيون بعده يلقبون بهذا اللقب .(١)

وقد تفرغ للأدب ووُجد له في تذكرة : اذا فرغنا من حل إقليدس كله تصدقت بعشرين ألف درهم ، واذا فرغنا من كتب ابي عليّ النحوي تصدقت بخمسين ألف درهم وكان يحب الشعر ويعطي الشعراء ويحكم على معانيه بعد التقدير له (٢) . وقد قصده فحول الشعراء في عصره ومدحوه بأحسن المدائح ومنهم المتنبي .(٣)

وبعد عضد الدولة تولى جيل من أمراء بني بويه غير أنهم - وكما تروي كتب التاريخ - لم يكونوا صالحين للحكم ، فقد اضمحلّت مواردهم المالية واختلت ممالكهم فمنهم فخر الدولة أخو عضد الدولة الذي استوزر الصاحب بن عباد ، لكن حدثت بينه وبين عضد الدولة جفوة أدت الى طرده وتولية أخيه مؤيد الدولة .

ومنهم مجد الدولة بن فخر الدولة وتاج الدولة بن عضد الدولة الذي كان خيالياً واسع الآمال منصرفاً الى الشعر وقد أثنى عليه صاحب " يتيمة الدهر " واعتبره آدب آل بويه وأشعرهم وأكرمهم (٤) . وقد تولى الحكم من أبناء عضد الدولة بعد تاج الدولة شرف الدولة وصمصام الدولة وبهاء الدولة الذي عمّت عهده الفتن بين السنّة والشيعة وقد كان له النصيب الأكبر من مدائح الشريف الرضيّ .

ومن أبنائه الذين حكموا العراق سلطان الدولة ومشرّف الدولة وجلال الدولة الذي وصف عهده بالفتن والاضطراب والفوضى وسيطر فيه الاتراك وقووي نفوذهم على الديالمة حتى ان المادة قطعت عنه فاضطر الى اخراج ثيابه وآلاته وبيعها في الأسواق وخلت داره من حاجب وفرّاش وبوّاب ، وفي عهده زال سلطان البويهيين واستسلمت الدولة لنفوذ جديد هو نفوذ السلاجقة عام ٤٤٧هـ .

---

(١) شوقي ضيف . عصر الدول والامارات ، ص ٢٣٤ .

(٢) آدم متز . الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري . المجلد الاول ص ٦٥.

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٣ ، ص ٣٣٩ .

(٤) الثعالبي . يتيمة الدهر ، ج ٢ ، ص ٢١٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويمكننا القول بشكل عام ان العصر السياسي للبويهيين قد شهد من النكبات والدسائس والغدر والتنكيل بالخلفاء العباسيين امتدت من خلافة المستكفي الى القائم مرورا بالمطيع والطائع والقادر ، وخلّف ذلك أهوالا ومصائب تقشعرّ لها الأبدان ، وينفر القارئ من تصو ر مشاهد المجاعات وخلع الخلفاء وسمل أعينهم الى صراعات كثيرة بين العصبيات خلّفت ويلات وحروبا لم تعد على الناس الا بالضرّ.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الحالة الاجتماعيـــــة :

قلت سابقا أن الدولة الاسلامية الواسعة الأرجاء قد بسطت نفوذها علـــى ملل مختلفة وانضوى تحت لوائها أمم كثيرة متباينة في أعرافها وتقاليدهـــا وعاداتها التي ضعف أثرها في نفوس اصحابها حين كان للعرب المسلمين عـــز ومجد ودين قويّ تعمّ تعاليمه هذه الأمم .

ولكن ما أن ضعفت الخلافة العباسية وزال مجد العرب أو كاد وآلـــت السلطة الى العناصر التركية والفارسية وغيرها حتى وجدت تلكم الأعـــراف والتقاليد والعادات والأنظمة مجالا تحيا فيه وتتنفس ، فتململت الأمة الفارسية وبرزت مظاهر حياتها الاجتماعية من جديد في المجتمع العربي الفارسي الاسلامي وبرز هذا المجتمع مقسما الى طبقات متباينة تحدد طبيعة كل منها سمـــات اقتصادية واجتماعية وأدبية وخلقية مميزة وعادت الى هذا المجتمع مظاهـــر وسلبيات خلقية واجتماعية - كان الدين الحنيف والسلطان العربي قد قضيـــا عليها بعد أن أحكما قبضتهما على المجتمع - منها المجون والغناء وشرب الخمر وهي التي ألفها المجتمع البويهي بفعل انكباب الناس عليها وأولهم أولو الأمـــر الذين أقبلوا على مجالس الشراب والأنس والطرب والخمر يغرقون أنفسهم فيهـــا ويعبّون منها ما وجدوا الى ذلك سبيلا ، وهذا ما شجع العامة على قبول هـــذه الأمور والنظر اليها بعين الرضى ذلك أن السلطان لم يكن يعاقب عليها فلـــم يعد الناس يخشون الانكباب عليها والاغراق فيها .

ولقد تكوّن المجتمع البويهي من طبقات ثلاث ، طبقة الارستقراطيين وهي الطبقة المترفة المكونة من الخليفة والأمراء والوزراء والولاة وكبـــار الموظفين والاقطاعيين ، وقد عاشت هذه الطبقة حياة متنعمة جرّاء الأمـــوال الكثيرة التي كانت تنعم بها والتي تجمعت لديها عن طريق الضرائب الكثيـــرة المحصّلة من الشعب ، كما تنفست هذه الطبقة حياة مترفة غرقت في النعيم بفعـــل الأموال الكثيرة التي صُبت في خزائنها والتي عُدت بالملايين - كما تروي كتـــب التاريخ - وقد كان ينفق جزء من هذه الأموال على الجند وحاجات البلاد ومـــا يتبقى يصبح مُلكاً للحاكم ينفقه في ترفه ونعيمه ، ولا بد أن أذكر هنـــا كثرة الحروب في العصر البويهي واكتساح امارات متعددة من قبل البويهيين تدخل في سلطانهم فتكتظ خزائنهم بأموال هذه الامارات ، وكان لامارات البويهيين المتعددة ضياع كثيرة تعود جميع ثمارها للأمير وهي التي كانت تمتلىء بهـــا موائده .

وأذكر أيضا ما جرى عليه أمراء البويهيين من عزل وزرائهم ومصـــادرة أموالهم وقتلهم ، ولقد كثر عزل الوزراء كثرةً جعلتهم يغتنمون فرصة وزارتهـــم اغتناماً ويختلسونها من الزمن اختلاساً ، يحاولون خلالها العبّ من كؤوس الحيـــاة

© Arabic Digital Library Yarmouk University

المترفة المنعمة ويغرقون انفسهم في ملذات الدنيا ما وجدوا الى ذلك سبيلا لأنهم موقنون من النهاية الحتمية العاجلة او الآجلة . فتؤول اموالهم وقطاعاتهم وضياعهم الى الامير البويهي وهذا ما يزيد الاموال في خزائنهم وحسبنا أن نذكر نهاية الوزير المهلبيّ والوزير ابن بقية .

ويقف المهلبي وزير معز الدولة ممثلا لحياة هؤلاء الوزراء اذ اشتهر بمآدبه وبكثرة ما كان يقدّم فيها من أصناف الطعام والحلوى حيث كان يأكل كل لقمة بملعقة لئلا يعيد الملعقة الى فيه بينما كان يقف الى جانبيه غلامان يحمل الاول الملاعق المستعملة والثاني غيرها ، فاللون الواحد من الطعام لا يؤكل بملعقة واحدة ويروى كذلك أنه اشترى في ثلاثة أيام بألف دينار وردا فُرشت به مجالسه وطُرحت كمية منه في بركة داره تنفضه بواسطة فوارات عجيبة هذا عدا السجاد والطنافس والبسط والوسائد والديباج والتحف التي ملىء بها قصره .

وقد انسحبت هذه الظاهرة المسرفة في تأنقها وترفها وزخرفتها على حياة الخلفاء وكبار القواد ورؤساء الدواوين والاقطاعيين وكبار التجار والموظفين فملابسهم كانت في غاية الأناقة مجلوبة من جميع البلدان العربية موشاة بديباج الذهب المنسوج على شكل أزهار الربيع يفوح منها العنبر والطيب .

وأما بيوتهم فقد غشيت سقوفها بالساج وزينت تعاريجها بالأبنوس والعاج مع أروقة وأبهاء وأواوين مفروشة طنافس وأبسطة ومقاعد ومخادّ مموهة بالذهب ومطارح محشوة بريش العصافير الهندية تفوح هذه البيوت عطرا ومسكا وعنبرا وعودا مطيبا مملوة بأدوات الزينة .

وأما أكلهم فلهم فيه مراسم تدل مع سابقتها على مدى تعقد وسائل الحياة فطعامهم مضاف اليه انواع الطيب وماء الورد والتفاح وحب الرمان والزعفران ، وحين يرفع يأتي فرّاش متهلل الوجه نظيف الثياب خفيف الروح بيده خلال سلطاني مطيَّب فيغسل الضيوف أيديهم ويناولهم الفراش مناديل ألين من القز وأنعم من الخز ثم تزين المائدة بالجوز واللوز المقشورين وأنواع الحلوى المعطرة وأنواع الفواكه والأزهار والأنوار .(١)

وقد اشتهرت هذه الطبقة بمجالس الانس والشراب التي كانت تعقدها فمنها مجلس عز الدولة والوزير المهلبيّ وعضد الدولة وكثير من الوزراء والسلاطين والأمراء ويحدثنا ابو حيان التوحيدي في " الإمتاع والمؤانسة " والثعالبيّ في " يتيمة الدهر " وابن خلّكان في " وفيات الاعيان " وغيرهم عن هذه

---

(١) شوقي ضيف ، عصر الدول والامارات ، ص ٢٥١ - ٢٥٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المجالس وما كان يجري فيها فالندماء كانوا من الفقهاء والقضاة الذين يطّرحون الحشمة ويتبسطون في القصف والخلاعة وهم كبار السنّ لكنهم لا يتحرجون من الغناء والطرب وخلع أثواب الوقار والتقلّب في اعطاف النعيم بين الخفة والطيش وشرب الخمر بكؤوس من الذهب بل وينفعون لحاهم في هذه الكؤوس المملوءة خمراً حتى تتشرب اكثره ويرش بعضهم بعضا وكان الرقص يأخذ منهم كل مأخذ الى الصباح ، عندها فقط يعودون لعاداتهم في التوقر والتحفظ بأبهة القضاء وحشمة المشايخ الكبراء.(١)

وكانت هذه المجالس تعوم بالسماع وغناء الجواري والمغنين وألوان الفاكهة والرياحين وأقداح الشراب حيث أن الشرب معتاد فيها ، وقد ساعد على بقاء هذه المجالس حية مستمرة مشاركة خلفاء بغداد فيها حيث كانوا هم وأبناؤهم يضعون الألحان لبعض الأغاني (٢) فكان المغنون والمغنيات يأخذون بمجامع قلوبهم اذ يقدحونها نوراً ويملأون آذانهم سرورا . ويحكى عن كثير منهم مثل عز الدولة بختيار ابن معز الدولة أنّه كان يجب أن يقضي اوقاته في الصيد والأكل والشرب والسماع واللهو واللعب بالنّرد.(٣)

وقد أدّى ذلك الى تفشّي المجون وشيوعه حتى أصبح أمراً مألوفا لا تأباه أذواقهم ولا تعافه طباعهم ولا تنفر منه أخلاقهم .

وأما طبقة العامة فإنّ نصيبها من الترف والنعيم كان قليلا اذ كانت تنعم بشيء منه في بعض طعامها وزينتها في الأعياد والمواسم ، لكنها في غالبيتها عانت من الضنك لكثرة الضرائب التي كانت تُجبى منها ولقلة ما يعود عليها من الكسب ولقد صارت هذه الطبقة أحيانا الى البؤس بسبب قلة مواردها ، ولهذا كثر منها العيارون والشطّار وهم الذين أحسوا الفارق الكبير بين حياتهم وحياة الطبقة العليا التي يرونها تتمرغ في أعطاف النعيم والترف والبذخ فدفعهم هذا الى ارتكاب جرائم ببغداد مثل الحريق العظيم الذي أشعلوه فيها عام ٣٦٤هـ . وقد استفحل امرهم حتى خافهم الجند وكبرت حركتهم وقويت الى أن أصبح منهم الملقبون بالقواد الذين سيطروا على بغداد وأخذوا الضرائب من أسواقها ونهبوها وعينوا مسؤولين عنهم في كل محلة منها ، ولقد انضم لهم كثيرون من الذين احسوا الظلم والقهر وفقدان العدالة .

ولقد أدت هذه الحياة ببعضهم الى الاقبال على المجون فانغمسوا فيه مشاركين الطبقة العليا مع فارق الأسباب والدوافع .

---

(١) ابن خلّكان ، وفيات الأعيان . ج ٣ ، ص ٣٦٦ .
(٢) شوقي ضيف ، عصر الدول والامارات ، ص ٢٥٥ .
(٣) مسكويه . تجارب الأمم . ج ٦ ، ص ٣٨٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وعاشت هذه الطبقة حياتها تفكر بالوسيلة التي تمكّنها من الحصول على المادة فسلكت ضمن ما سلكت طرقا وعرة تبعد بالخلق الكريم عن جادة الطريق لتدفع عن نفسها غائلة الجوع ، ومن هنا تفرقت نظراتهم الى الحياة المادية فاستجازوا بيع العرض وإراقة ماء الوجه والسطو وقطع الطرق واللصوصية .

ومنهم من ترك هذه الحياة كلها وانصرف عن الدنيا وما فيها وزهد بها متوجها الى الله ناظراً للحياة نظرةً حزينة يائسة من إمكانية تغييرها.(١)

ولقد كانت مظاهر حياة هاتين الطبقتين عاملا رئيسا في انتشار المجون وشيوعه فيهما ، وقد ازداد بتشجيع السلطان له حين لم يعد يرى في ممارسته ما يوجب حدا او عقابا بل نظر اليه احيانا على أنه من وسائل الكسب المشروعة حين فرض على ممارسيه ضريبة وحين ضمّنه في فارس يقول متز " لقد أهمل عضد الدولة الشريعة حتى بلغ من اهماله لها أنه فرض على الراقصات بفارس ضريبة وكان يضمّن هذه الضريبة "(٢).

اذن لقد كان السبيل ممهداً لانتشار اللهو والعبث والخلاعة والاستخفاف واذا ما اضفنا الى هذا ضعف الوازع الديني في النفوس والاستهتار بالأخلاق والتقاليد الاجتماعية الاسلامية فلا عجب لدينا من شيوع المجون ومن كثرة الحديث عن هذه الحياة وألوانها المتعددة على ألسنة شعراء كثيرين امتلأ بهم هذا العصر يقف السّلامي وابن حجاج وابن سكرة وابن لنكك والخالع وابن جلبات على رأسهم .

وأما الطبقة الثالثة فهي الوسطى التي نعمت بالغناء بعض الشيء وبالقدر الذي يجعل حياتها تسير هادئة دون اضطراب وهذا هو شأن هذه الطبقة في كل مجتمع وكل عصر .

وقد تمتع أهل الذمّة بتسامح واسع نظير ما كانوا يدفعونه من جزية وهي التي لم تكن تتجاوز ثلاثة دنانير لأصحاب الثراء .

أما الأعياد فقد كان المجتمع كله على اختلاف أديانه يشارك فيها فيحتفل بأعياد المسلمين والفرس والنصارى على حد سواء ، لكن المظاهر في أعياد الفرس كانت مميزة حيث تزين بغداد كلها بالألوان الزاهية وتشعل النار في السفن والزوارق بدجلة وتخرج العامة للفرجة عليها وبأيديهم الشموع .

---

(١) محمود غناوي الزهيري، الأدب في ظل بني بويه ، مطبعة الأمانة ، مصر ط ١ ، ١٩٤٩ ص ٣٦ - ٤٥ .

(٢) آدم متز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ج ٢ ، ص ١٤١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويجب ألا ننسى أن بيئات كثيرة في العراق وفارس بقيت تحافظ على طابعها العربي الاسلامي وظلت الروح والثقافة والتقاليد والاعراف الاسلامية الحقة حيةً في نفوس أصحابها ، ولم تعدم هذه البيئات بذورا مشرقة أثمرت العلوم والآداب وزادت من نشاطها وأنشأت مظاهر مدينة رائعة بين أفرادها ، وقد كثر فضلاؤها كثرةً جعلت كثيرا من المؤلفين يعنون بوضع كتب تحوي أسماءهم وتتحدث عن أدبهم وفضلهم وعلمهم مثل السبكيّ الذي وضع كتابه المشهور، طبقات الشافعية الكبرى " وابن خلّكان الذي صنّف " وفيات الأعيان " وسيطول بي الحديث لو تكلمت عن كل ما كتب عن اهل المعضل في ذلك العصر .

فلا عجب أن تُخرج هذه البيئات شعراء فضلاء أبناء لزمانهم مثل الشريف الرضيّ ومهيار الديلمي وابن نباتة السعدي والسريّ الرفّاء والاصفهانيّ وغيرهم كثيرون أذكر منهم الوزير المهلبي والمفجع البصري وأبا سعيد الرستمي وتاج الدولة بن عضد الدولة وأبا الفرج الببغاء وأبا الحسين الغويري وابن لنكك وابن العلّاف واحمد بن المغلّس وابن سكرة والخالع وأبا اسحق الصابيّ وابن العميد ومحمد بن أحمد الحمدوني وأبا القاسم القاشاني والمحسن بن القاضي التنوخي وعلي بن جلبات والشريف المرتضي ... .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

الحالة العقلية والأدبيـــــة

قلت سابقا انه على الرغم من زوال سلطان العباسيين السياسي واضطراب الأرجاء الواسعة للمملكة وتحولها الى ممالك ودويلات جديدة ، فان الحالـــة العقلية والأدبية بقيت حية حافلة تموج بالعلم والأدب في شتى نواحي المعرفـــة واستمرت العلوم والفنون والآداب تؤتي ثمارها التي بذرت بذورها في العصـــور السابقة ، وما هذا العصر الا دور هضم لهذه العلوم والفنون لتبدو آثارهـــا كاملة تامة .

وقد يدهش الانسان ويتوقف به التفكير عندما يسمع عن الامبراطوريـــة الاسلامية الممتدة التي سادها الانقسام والتفكك السياسي والاضطراب والفوضـــى وشغب الجند والتي عمّتها الفتن المذهبية والطائفية وهدّ بنيانها توالـــي الحروب والفتن التي عظمت بين الاتراك والديلم ، واحتدام النزاع بين السنّـــة والشيعة على حين كان السلطان نفسه يعزز هذه الخلافات دعماً لمذهبه الشيعـــي " وكذلك فقد بقيت هذه الممالك مهددة على الدوام من الأمم الأخرى فكثيـــرا ما غزي المسلمون في عقر دارهم في النواحي المتاخمة لحدود الروم مثـــلا وما أعقب ذلك من قتل الرجال والشيوخ والاطفال وسبي النساء المسلمات وتشـــرد الناجين في وطنهم لم يكن الخليفة العباسي يملك ان يتدخل في ذلك ، وقـــد يدهش الانسان عندما يرى نشاط الأدب وازدهار الفنون ورقي العلوم والفكـــر العربي والاسلامي في هذا العصر خاصة - عصر البويهيين - حيث امتازت الحيـــاة الثقافية باحتشاد طائفة من العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء واللغويين والنحاة قلّ أن يجتمعوا في عصر واحد .

ولعل ملامح هذه الدهشة تزول اذا ما عرفنا ان هذه الدويلات الجديـــدة الناشئة قد اخذت تتسابق في استقطاب هؤلاء العلماء والأدباء وتجميل موطنهـــا بهم اما تكبراً وعظمةً من الحاكم ورغبةً منه في إحاطة نفسه بهذه المظاهـــر الأدبية أو ظهوراً على منافسيه من الحكام الآخرين اذ لم تعد المنافسة مقتصرة على التنابذ الحربي والسياسي بل تعدته الى العلوم والفنون والآداب التـــي حسن حظها وسعد جدها بتقريب العلماء والأدباء من الملوك والسلاطين والوزراء .

وأضيف الى ذلك ما علمنا من استقلال هذه الامارات باموالها وذلـــك بأن هيأت لها الظروف حرية التصرف بهذه الأموال ، فلم تعد ملزمة بارسالهـــا الى بغداد التي كانت مركز الحكم وعاصمة الدولة الوحيدة ، فقد تعددت العواصم بتعدد الامارات واستقل كل أمير بولايته وشؤون حكمه وعوائد امواله . واذا ما تذكرنا ان هذه الأموال اخذت تكال كيلا وتُغدق بوفرة على هذه الامارات . لاسباب أشرت اليها سابقا - فاننا لا نستغرب أن يكون نصيب العلماء والأدباء كبيـــرا

© Arabic Digital Library Yarmouk University

من هذه الأموال تشجيعا لهم على اعطاء المزيد في كل علم وفن ولون فنعم هؤلاء في ظل المال الوفير ونعمت الامارات بانتاجهم وابداعهم في المجالات المختلفة .

وكذلك فقد أصبحت كلّ من عواصم الامارات مركزاً علمياً ينافس بغداد عاصمة الخلافة باستقطاب الأفذاذ في العلوم والفنون والآداب فتعددت العواصم والمراكز العلمية وكثرت فيها مجالس الحكام والوزراء التي كانوا يعقدونها لاستقبال هؤلاء الأفذاذ فكان هذا تشجيعا لهم على الإقبال عليها والإرتحال اليها من كل حدب وصوب اذ ما زالت ديار الاسلام مفتوحة لكل طارق فيجد فيها من التجلّة والاحترام والتشجيع ما يدفعه الى كثير من العطاء والانتاج والابداع .

كما أن اولئك الحكام والأمراء والوزراء لم يكتفوا باستقطاب اهل العلم والأدب واحتضانهم ورعايتهم بل ان أكثرهم - خاصة امراء البويهيين - كانوا كذلك أدباء او شعراء يتذوقون الشعر ويقرضونه ويعقدون المجالس والحضرات الكبيرة لنقده والحكم عليه واجزال العطايا لأهله ، فعضد الدولة بن بويه كانت له مشاركة في علوم وآداب وفنون كثيرة وقد قال عنه الثعالبي في اليتيمة " كان على ما مُكّن له في الأرض وجُعل اليه من أزمّة البسط والقبض وخُصّ به من رفعة الشأن وأُوتي من سعة السلطان يتفرغ للأدب ويتشاغل بالكتب ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء ويقول شعرا كثيرا .(١) ولهذا قرب اليه الأدباء والشعراء مثل المتنبي وابي اسحق الصابي وابي علي الفارسي والسّلاميّ ، وكان عز الدولة وتاج الدولة شاعرين يُشهد لهما .وكذلك كان حال بقية الحكام في غير امارة البويهيين .

ومن جهة أخرى نجد هؤلاء الحكام والأمراء لا يقلدون المناصب الا لمن كان الأدب أداةً طيّعة في يده والفصاحة والبيان عنوان لسانه وحاله، فكأن الأدب بذلك أصبح أداةً للكسب وسلعةً رائجة يتداولها الناس عامة ، فأقبلوا عليه منهم من عمّه الفقر في ذلك العهد فأراد ان يفتح لنفسه ابواب الرزق ومنهم من تطلع للمنصب العالي فكان الأدب سلّمه للارتقاء الى هذا المنصب فاتسع بذلك نطاق الأدب وعم طبقات المجتمع .

ولا يغيب عن بالنا ان العرب المسلمين في المشرق قد تمكنوا - الى القرن الرابع الهجري - من الاطلاع على علوم وفنون الأمم المختلفة بفعل الاختلاط والتمازج فهضموها حيث خالطت ثقافتهم الاسلامية فاتسعت مداركهم وتمكنت ملكاتهم من الدرس والشرح والمقارنة والتحليل والبحث الدقيق ومن ثم التأليف الذي اتسع نطاقه ورقيت بحوثه فزوّد الأدب بمعين ثرّ فيّاض ظهرت آثاره واضحةً في أدب ذلك القرن والقرون التي تلته .

---

(١) الثعالبي ، يتيمة الدهر . ج ٢ ، ص ١٩٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد أغنت النزاعات والخلافات الدينية والمذهبية والحزبية الأدب والشعر وفتحت للأدباء والشعراء أبوابا يكتبون فيها ويختصمون ويتناظرون باحتجاج مرتّب وعفة في اللفظ مع جد وحربة ووضوح في التعبير ، وقد كان من أشهر هؤلاء الشعراء الشريف الرضي ومهيار الديلمي من الشيعة وعلي بن عيسى السكريّ من السُنّة .

وكان للشعوبية التي ظهرت في هذا القرن وفي بلاط البويهيين خاصة أثر قوي في الأدب والشعر حيث أحدثت في الأدب ثورة قوية في ظل الحكومات القائمة في ذلك العصر على حين لم تكن الخلافة العباسية تقوى على رفع صوتها لتدافع عن حق العرب (١).

ويجب ألا ننسى عاملا آخر وسّع من حركة التأليف وزاد من نشاطها وشجع على البحث والدراسة ذلك هو عامل المكتبات ودور العلم التي كانت الطابع المميز لهذا العصر ، والتي تنافسَ أمراء وحكام الدويلات المختلفة على انشائها مثلما تنافسوا في احتضان اهل العلم والأدب ، وقد امتازت هذه المكتبات او دور العلم باحتواء أمهات ونفائس الكتب في كافة العلوم والفنون والآداب والتي اجتهد أصحاب هذه الدور في توفيرها لطلاب العلم مثلما اجتهدوا في توفير المناخ المناسب وسبل الراحة للطلاب ، فخزائن الكتب عديدة ومفاتيحها بعدد الطلبة وفي بعضها كان يقدّم للطلبة وجبات الطعام كي لا ينقطعوا عن الدراسة وتخصص لهم مبالغ شهرية تجرى عليهم كي يتفرغوا للبحث والدراسة ، والأساتذة متوفرون يُملون على الطلبة ولهم معيدون يساعدونهم ، ولقد عملت المكتبات ودور العلم هذه جنباً الى جنب مع حلقات الدرس في المساجد الجامعة على تنشيط العلم والأدب ورفع شأنهما.

ومن الجدير بالذكر الاشارة الى مكتبة سابور بن أردشير وزير بني بويه والتي أسسها عام ٣٨٣هـ بالكرخ غربي بغداد ووقفها على العلماء واشترى لها كتباً كثيرة بلغت عشرة آلاف واربعمائة مجلد كان معظمها بخط اصحابها أو من الكتب الموثقة التي كان يملكها علماء ثقات مشهورون ، وكان بها مائة مصحف نفيس . (٢)

---

(١) علي الفلال ، دراسة تحليلية لشعر مهيار الديلمي . ط ٢ . دار الفكر العربي مصر ، ص ٢٢ .

(٢) السبكي . طبقات الشافعية الكبرى . ط ٢ ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ج ٤ ، ص ٣٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

واشتهر كذلك من دور العلم دار أسسها الشريف الرضي وفتحها لجميع الطلاب ورصد لهم جميع ما يحتاجون حتى مفاتيح الخزائن كانت بيد جميع الطلبة .

وكان لمكتبة الوزير ابن العميد بالرّي فضل كبير على العلم والأدب وعين قيّما عليها أحد فحول الأدب في عصره وهو مسكويه .

وكان للوراقة والنسخ دور كبير في تنشيط العلم والأدب في هذا العصر الذي اكتظ بالعلوم والفنون من كل لون وصنف وكانت الاموال الكثيرة تدّر على الوراقين ولهم في بغداد سوق معروفة تباع فيها هذه الكتب . وكانوا يقومون بكل ما تقوم به المطابع ودور النشر في أيامنا هذه من نسخ الكتب وتجليدها ، وكانت من الكثرة بحيث يصعب احصاؤها .

وقد كان لابن النديم ت ٣٨٥هـ شرف السبق وفضل القيام بعمل جليل جمع فيه هذه الكتب ورتّبها حسب نوعها مترجما لأصحابها من عرب وفرس وهنود ويونان في عصره .

وأشير اخيرا الى تعدد مراكز الثقافة وانتشارها وذيوعها بين الناس بحيث نجد نيسابور في الامارة السامانية تخرج لنا الثعالبي صاحب " اليتيمة " كما نجد بخارى مجمع أعظم أبناء ذلك العصر وقد وصفها الثعالبي في " اليتيمة " بقوله " كانت بخارى من الدولة السامانية مشابة المجد وكعبة الملك ومجمع افراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء الدهر" .(١)

كذلك نجد همذان عند البويهيين وهي التي اخرجت بديع الزمان واصبهان التي اخرجت الصاحب بن عباد والرّي مستقر ابن العميد .

كما بقيت بغداد الى جانب هذه العواصم تحتفظ بدورها السابق في ميدان الثقافة ، وقد قصدها طلاب العلم ولعبت جوامعها كذلك ادوارا هامة في المحاضرات والمناظرات واشتهر من علمائها كثيرون في مجالات البحث والنظر .

---

(١) احمد امين : ظهر الاسلام . المجلد الأول ، دار الكتاب العربي ،بيروت ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩م . ط ٥ ، ج ٢ ، ص ٢١٦ - ٢٥٨ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المرأة في المجتمع البويهي : فئاتها وأدوارها

لقد شغلت المرأة في المجتمعات العربية والاسلامية المتلاحقة مساحة واسعة وحيزا بارزا اخذت فيها قسطا كبيرا من التقدير والاحترام والحب فكان لها دور بارز عظيم في حياة الرجل والمجتمع ، كما عانت فيهما احيانا من ظروف صعبة قاست فيها صنوفا من الألم والممارسة الخاطئة .

ولقد كبر دورها واتسع في المجتمع العباسي بتوسع الحياة وتنوعها وتعدد أشكالها وألوانها ، ومع اتساع الثقافة وازدهارها ونشاطها نشطت المرأة وتمتعت بقسط وافر من الحرية جعلها تشارك الرجل ألوان نشاطه وأعماله ووظائفه بحيث لم يفصلها عنه الا ما تستدعيه العادات والاعراف والأوضاع الدينية والاجتماعية .

بين الحرائر والجواري :

وأما في العهد الثاني للمجتمع العباسي فاننا نرى الامور تتغير والموازين تنقلب لغير صالح المرأة العربية الحرة وذلك حين كثرت الجواري والإماء كثرةً بيّنة ونلنّ من الحرية قدرا كبيرا فتمتّعن بنفوذ واسع أدى الى تدخلهن في شؤون الحكم وأمور الدولة وبرز هذا واضحا في الوقت الذي ضعف فيه الخليفة العباسي وأصبح الحكم ألعوبة بأيدي نساء القصر وإماءه اضافة لسيطرة قادة الاتراك والديلم عليه فلقد كثر اتخاذ هؤلاء الخلفاء نساء غير مباليين بأصولهن ، وكان معظمهن من جواري الترك والروم والفرس مما أوجد كثيرا من الاضطراب في البلاط وفي المناصب الادارية العليا . فكانت كل منهن تحابي من يتصل بها من الأقارب والأولياء وترفعهم ما استطاعت .(١)

بل ان سيطرة الجواري والاماء وامتداد نفوذهن قد توسعا كثيرا اذ أصبحت شؤون الحكم تدار بواسطة النساء زوجات الخلفاء وأمهاتهم .

أما المرأة العربية الحرة فان دورها في هذا الوقت لم يمتد ليبرز واضحا في حياة القصور وفي المناخ السياسي العام - كما كان للجواري والاماء - بل ان مشاركتها في الحياة الثقافية أيضا لم تكن بالقدر الذي يجب أن يكون ، ولعل هذا ما يفسر سكوت كثير من المصادر عن توضيح دورها وفاعليتها في الحياة عامة ،على أن غيابها لم يكن مطلقا عاماً في جميع البيئات اذ أننا نلمح لها مشاركة في الحياة السياسية والثقافية في البيئات العربية الخالصة في تلك الفترة مثل بيئة الحمدانيين حيث بقي لها دور بارز فاعل . أما فيما

---

(١) آدم متز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ص ٢٧٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

نأي من الأمصار التي تعج بالأجناس المختلفة فقد طغت الجواري والاماء فتقلّص الدور الفاعل للمرأة العربية مع غياب الدور العربي الفاعل جميعه .

قلت ان ظل المرأة العربية قد انحسر أمام مدّ الجواري والاماء اللواتي امتلأ بهن المجتمع بفعل تشجيع الخلفاء والأمراء والوزراء لاتخاذهنّ أدوات ووسائل في الحياة السياسية والاجتماعية ومن ثم امتد ظلهن ليطغى على الحياة في جميع جوانبها .

انحسر ظل المرأة العربية لأسباب لعلها تكون مع غيرها الدافع لغياب دورها عن الخوض في معترك الحياة بكل جوانبها على تعددها وتنوعها وتشكّلها بتعدد الأحداث وتنوعها :

فلقد تقلّص ظل المرأة العربية وغابت عن معترك الحياة السياسية كما تقلّص ظل الخلافة العربية وانحسر حيث أن من تولوا السلطة في تلك الحقبة من الزمن لم يكونوا عربا لذا فقد غاب الظهير المساند المشجّع كي تظهر المرأة وتبرز في هذا المجال ، ومن لها بخليفة أو أمير أو وزير او والٍ عربي تكون هي أمه وزوجته وأخته تعقد بحمايته المجالس وترتاد الندوات وتديرها وتشارك في الأحداث كلما لاحت الفرصة ، ولعل انصراف الاماء لهذا الأمر قد عمل على ابتعاد النساء الحرائر حيث لم يستطعن هنّ القيام به في ظل الحكم التركي أو الفارسي .

ولا بد من الالتفات الى القلق والاضطراب الذي عاشته الأمّة نتيجة السياسة الجائرة المجحفة بحق العرب والتي اختطها البويهيون لأنفسهم فانبثّ الخوف في النفوس وعمّ الهلع والرعب قلوب الحكام والوزراء فكيف بقلوب النساء؟ فآثرت المرأة العربية الابتعاد وقد آثر لها الرجل ذلك حفظا لها وصونا من أن تمس بأذى او تصاب بسوء سيما وأن محظيّ اليوم عند الحاكم البويهي معتقل الغد او مرميّا تحت أرجل الفيلة دون مراعاة إلّ ولا ذمة ولا برّ .

ولقد تقلص ظل المرأة العربية وانحسر في المجال الاجتماعي حين رأت الاماء والجواري يندفعن الى معترك الحياة بكل ما أوتين من سلاح، اندفعن اليه بفعل اكثار الحكام العباسيين في العهد الثاني منهن ،زوجات ومساعدات في القصر حتى آل الأمر الى عدم وجود فير الاماء أمهات وزوجات ومدبّرات لشؤون الحكم والقصر عدا شيوعهن بالمئات في بيوت الأمراء وقصور الحكام وعلية القوم .

وفي معترك الحياة العامة كثرت مجالس اللهو والأنس والطرب والمجون فاندفعت اليها الجواري وشاركت فيها بما لديها من طاقات ، ساقيات ومغنيات وراقصات وضاربات على الآلات المختلفة ، ولم تكن المرأة العربية ترضى

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لنفسها مثل هذه الحياة فانسحبت ووقفت بعيدة تحفظ كرامتها وتصون عفتها من أن تُمس او تُخدش ، واذا ما قلنا أن الرجل الذي اندفع الى هذه المجالس على اختلاف عرقه ومنصبه ومنزلته الاجتماعية قد عرفها وخبرها فان ذلك قد دفعه الى ابعاد من تخصه من النساء عن الانغماس في كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية التي شاعت فيها أمور لم يكن ليرضاها للمرأة العربية المسلمة .

ويجب ألا ننسى بعد هذه البيئات في أطراف العراق وفارس والري واصفهان وجرجان وطبرستان عن البيئات العربية الخالصة كبيئة الحجاز حيث كان ميدان السبق مفتوحا للمرأة العربية المسلمة في غير مجال كالسياسة والدين والأدب .

أما وأن الكثرة الغالبة على هذا المجتمع هي من الفرس الذين وجدوا متنفساً لهم في أفول نجم الخلافة العربية فان نساءهم قد غلبت حين غلبت كثرتهم وفازوا بالحكم وفاقت اماؤهم وجواريهم النساء العربيات فكانت طبقتهن هي الفاعلة الظاهرة في مجتمع الامارات حيث اختنقت المرأة العربية في زحمة حياتها التي كانت تعج بالفارسيات والتركيات والهنديات والروميات وغيرهن ، ولم يظهر من النساء العربيات من كان لها أثر ملموس في الحياة السياسية أو في ترقية المجتمع ، بل اقتصر النشاط في هذه النواحي على نساء الخلفاء والأمراء وغيرهن من نساء الطبقة الحاكمة وهنّ اماء قد لعبن في تاريخ الدولة العباسية أدواراً ذات أثر في هذا العصر .

الجواري والثقافة :

وقد أحسنت الجواري الثقافة على تنوعها وتعددها في هذا العصر،ولعل قصة الجارية " تودّد " في ألف ليلة وليلة خير ما يصور ذلك حيث نراها تناظر جلّة العلماء في مختلف العلوم والفنون وتظهر براعة فائقة في ليال كثيرة ، ما تزال فيها تحاور محاورات علمية بديعة .(١)

وشاركت الاماء كذلك في العلوم الدينية فاننا نرى الحافظة المحدّثة " ستيتة " أمة الواحد المتوفاة سنة ٣٧٧هـ من أحفظ الناس للفقه الشافعيّ، والحافظة أمة السلام المتوفاة سنة ٣٩١ هـ . والواعظة ميمونة بنت ساقولة المتوفاة سنة ٣٩٣ هـ.(٢)

---

(١) شوقي ضيف ، عصر الدول والامارات ، ص ٢٨٠ .

(٢) محمد عبد الغني حسن ، سلسلة نوابغ الفكر العربي " الشريف الرضي " ط ٣ ، دار المعارف ، مصر ، ص ٠١٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وكانت الجواري والاماء تحضر مجالس العلماء وتحمل عنهم كثيرا من كتب الحديث ، وعنهن يحملها كثير من الحفّاظ المشهورين على نحو ما عرفنا عن الخطيب البغدادي الذي أخذ صحيح البخاري عن كريمة المروزية.(١)

الجواري والسياسة :

وأما في الحياة السياسية فقد اندفعت الاماء والجواري وتدخّلن في شؤون الدولة بشكل كبير وّاضح وتغلّبن على جوانب واسعة من حياة العصر فمنهن نجد " قبيحة " زوجة المتوكل وأم المعتز التي كان لها دور هام في عزل الخليفة المستعين ليصفو لابنها المعتز ، واشتهرت بالشراء حتى انهم وجدوا عندها مليونا وثمانمائة ألف دينار ومع ذلك عرّضت ابنها لعنت الاتراك الذين تأخرت رواتبهم المستحقة لهم وقدرها خمسون ألف دينار فقط ولم يلبث ابنها أن ذهب ضحية ذلك .(٢)

وكان على رأس النساء في القصر سيدتان تدعي كل منهما قهرمانة احداهما للخليفة والأخرى للسيدة والدته ، وكان يسلم للأولى كبار المعتقلين ليُحبَسوا عندها مكرمين حبساً هيناً .

ومن والدات الخلفاء نجد السيدة أم المقتدر التي استأثرت بنفوذ كبير في الدولة كما كان لغيرها من والدات الخلفاء اللواتي اتسعت سلطاتهن الى حد أنهن قد تمكن من تعيين قهرماناتهن صاحبات دواوين .

ومما يلفت النظر هنا أن هؤلاء السيدات لم يبدين اهتماما بتنشئة أولادهن الأمراء تنشئةً قوامها التوافر على العلم وتوجيههم وجهة صالحة للالمام بشؤون الحكم والوقوف على أحوال الدولة وعلاقتها بغيرها من الدول ، ولم يأبهن كذلك بأن يكون هؤلاء الاولاد الأمراء أولياء العهد متعلمين مثقفين وانما أردنهم ضعافا غير ملمين بشؤون الحكم .

ولقد ثبت من الأحداث أن كثيرا من المنازعات مصدرها أم الخليفة (٣) كما ان المتصلين بالخلفاء ذاقوا وبال ذلك ، وكم حرمت الخلافة الاستفادة من مواهب بعض الوزراء الممتازة ومن سياستهم الرشيدة بسبب غضب أمهات الخلفاء عليهم.

---

(١) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، المجلد الثالث ، ص ١٢ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٧ ، ص ٧٠ .
(٣) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ط ٧ القاهرة ، ١٩٦٥م ج ٣ ، ص ٤٤٧ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ونتيجة لذلك استهترت العامة بالخلافة ونظروا الى الخلفاء نظرة احتقار وازدراء حتى انهم تطلعوا كثيرا عند انتخاب الخلفاء الى السيدة والدته وفضلوه ممن لا أم له رجاء أن تستقيم الأمور معه .(١)

وأخيرا فقد أدى تدخلهن في شؤون الحكم الى جلوسهن للمظالم ونظرهن في رقاع الناس واصدارهن الأوامر مذيلة بتوقيعاتهن ، كما عملن على عزل من لم يُردن من الوزراء ومصادرة أموالهم على حين قبع الخليفة في داره منصرفا عن شؤون الحكم .

هذا إلى أن نساء القصر قد أرهقن الخلافة بنفقاتهن التي كانت عظيمة وأعظم من أن توصف خاصة اذا علمنا أن مئات من الجواري كانت مخصصة للسيدة الواحدة عدا جرار المسك والاحجار الكريمة والياقوت وملايين الدنانير .

الجواري والمجتمع :

ولقد كان لكثرة الجواري والرقيق وامتلاء القصور بهن أثر كبير في الحياة الاجتماعية ، فقد كثر نسلهن واختلطت الدماء حتى أن الخلفاء انفسهم كانوا في هذا العصر من نسل السراري . وينقل لنا أحمد أمين عن ابن حزم قوله " لم يل الخلافة في الصدر الأول من أمّه أمة حاشا يزيد وابراهيم ابني الوليد ، ولا وليها من بني العباس من أمّه حرة حاشا السفاح والمهدي والأمين، ولم يلها من بني أمية بالأندلس من أمّه حرة أصلا ".(٢)

وقد هام القوم حبّاً بهؤلاء الجواري - حكامهم وعامتهم - ولم يتورعوا عن وصف دقائق حياتهم معهن ، فهذا الوزير المهلبي يهيم بجارية له تدعى " تجنّي " يقول في وصف ما احدثته في حياته :

ربّ ليلٍ لبستُ فيه التصابي ... وخلعت العِذارَ والعُذْلَ عني
في محل يحله لذة العيـ ... ـش ويجني سروره من تجنّي(٣)

وفي وصف سيطرتها عليه نجد قوله :

منية سابقتْ ورود البشير ... وموافٍ أوفى على التقدير
يا عروسا زُفّت اليّ فأهديـ ... ـت إليها رقّي مكان المهور(٤)

---

(١) آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري المجلد الاول ،ص ٢٧٢.
(٢) أحمد أمين ، ظهر الاسلام . ص ١٢٤.
(٣) الثعالبي ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، المجلد الأول ،ج ٢ ،ص ٢٣٦.
(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد تفلفلت هؤلاء الإماء والجواري في الحياة الاجتماعية وقمن بأعمال كثيرة فمنهن من عملت في مجال الغناء ومنهن أمهات الأولاد وملك اليمين وهن اللاتي تفلفلن في بيوت الخلفاء والأمراء والوزراء والأغنياء ومنهن من قمن بالخدمة في البيوت ومنهن من بلغن منازل عالية في المجتمع .(١)

وقد شعرت الجواري بالمقام الذي مكّنه جمالهن ودلالهنّ في قلوب الرجال فسعين الى توطيده ولم يتركن عاملا من عوامل الاستهواء والاغراء الا لجأن اليه ، فتزيّن وتجملن وداعبن ومجنّ حتى استعبدن من كنّ اماء له وانتزعنه من المرأة العربية التي لم يكن باستطاعتها أن تباريهن في ميدان الغنج والاغراء والمجون والتخلع .

وقد تسلّطن على الرجال بكافة مناصبهم فلم يكونوا يلهجون الا بهنّ فكرّس هذا الأمر احساس المرأة العربية بانخفاض منزلتها وعجزها عن مجاراة الجواري والاماء في مظاهرهن وطباعهن .

وهناك من يرى أن المرأة العربية قد نهضت الى مكافحة الجواري ولكن قليلا ما كان نجاحها فقد غولي بالجارية التي تفوقت بأمور عدة من مثل حسن الصوت والتزيين وكثرة المعارف وقد عملت على بعث مهنة التقيين في المجتمع حيث كان المقيّنون يشترون الجارية الحسنة الوجه فيثقفونها ويؤدبونها ويروّونها أشعار العرب وأخبارهم ويعلمونها الغناء وصياغة الألحان ثم يبيعونها بأغلى الأثمان . فأصبحت الجواري أنفس ما يتهاداه ذوو المقام وما يجازُ به الشعراء والسمّار ولم يلبثن أن أصبحن واسطة عقد الحياة فلا يعقد مجلس الا كنّ كواكبه وازهاره وحياته .(٢)

الجواري والغناء :

أكثر أصحاب الجواري من تعليمهنّ الغناء واتخذوا لهن بيوتا معدّة للسماع وكثرت هذه البيوت في بغداد في هذا العصر كثرة بالغة حتى أن أبا حيان التوحيدي يقول في كتابه " الامتاع والمؤانسة " " وقد احصينا ونحن جماعة في الكرخ - اربعمائة وستين جارية في الجانبين ، ومائة وعشرين حرة ، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة ، هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل اليه لعزته وحرسه ورقبائه ، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب الا اذا نشط في وقت أو ثمل في

---

(١) احميد امين ، ظهر الاسلام ، ص ١٣٠ .

(٢) كرم البستاني . النساء العربيات ،دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

حال ، وخلع العِذار في هوى قد خالعه وأضناه ، وترنم وأوقع ، وهز رأسه ، وصفّد أنفاسه وأطرب جلّاسه ، واستكتمهم حاله ، وكشف عندهم حجابه وادّعى الثقة بهم والاستنامة الى حفاظهم ".(١)

ويشير حديث أبي حيان هذا الى مدى اكثار القوم من الجواري من خلال العدد الذي أورده لهن قياسا الى عدد النساء الحرائر ، كما يكشف لنا عن مدى حرص القوم على الجواري والغلمان ومدى تفشّي الخلاعة والمجون في هذه الطبقة التي أصبحت تشكل غالبية كبيرة في المجتمع في ذلك الوقت ، كما يشير هذا الحديث الى مدى شيوع الغناء في طبقات المجتمع كلها حيث تردد الناس على اختلاف مراكزهم على محال الغناء العامة ولم يتحرج من ذلك أحد حتى العلماء والقضاة والأدباء والأعيان والصوفية ، فهذا ابن فهم الصوفي يطرب على غناء " نهاية " جارية ابن المغنّى اذا اندفعت بشدوها :

أستودعُ اللّهَ في بغدادَ لي قمراً ... بالكرخِ من فَلَك الازرارِ مطلعهُ
ودّعتُه وبوَدّي لو يودعني ... صفوُ الحياة وإني لا أودعهُ (٢)

ولا أرى بأسا من ذكر نماذج من أحوال بعض خاصة الناس وعامتهم في ذلك الوقت عندما يطربون لسماع غناء الجواري ، لنقدّر مدى شيوع الغناء فيهم وكثرة اهتمامهم به وترددهم على محاله ، كما تعرض لنا هذه النماذج شيئا مما أصاب اخلاق علية القوم والمعروفين بمراكزهم الدينية والاجتماعية .

فابن فهم الصوفيّ كان اذا سمع غناء " نهاية " " ضرب بنفسه الأرض ، وتمرّغ في التراب وهاج وأزبد وتعفر شعره ، وهات من رجالك من يضبطه ويمسكه ومن يجسر على الدنوّ منه ، فانه يعض بنابه ويخمش بظفره ، ويبركل برجله ، ويخرق المرقعة قطعة قطعة ويلطم وجهه ألف لطمة في ساعة ، ويخرج في العباءة كأنّه عبد الرزاق المجنون بباب الطاق ".

وأبو الحسن الجراحي قاضي الكرخ يطرب على غناء " شعلة " .

لا بد للمشتاق من ذكر الوطنْ ... واليأس والسلوة من بعد الحزنْ

وقيامته تقوم اذا رجّعت في لحنها :

لو أن ما تبتليني الحادثاتُ به ... يُلقى على الماء ، لم يُشرب من الكدرِ (٣)

---

(١) ابو حيان التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة "المجموعة الكاملة ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ج ٢ ، ص ١٨٣ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٦٦ .
(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

" فهناك ترى شيبة قد ابتلّت بالدموع وفؤادا قد نزا الى اللهاة مع أسف قد ثقب القلب وأوهن الروح وجاب الصخر وأذاب الحديد ، وهناك ترى والله أحداق الحاضرين باهتة ، ودموعهم متحدرة ، وشهيقهم قد علا رحمة له ورقة عليه ومساعدة لحاله ".(١)

وابن نباتة الشاعر يطرب على صوت " الخاطف " اذا غنّت :

تلتهبُ الكفُ من تلهبها ... وتحسر العين ان تقصّاها
كأنّ ناراً بها محرّشةٌ ... تهابُها مرةً وتغشاها
تأخذُها تارةً وتأخذُنا ... فنحن فرسانُها ومرعاها(٢)

ومن شاء المزيد فليرجع الى كتاب ابي حيان ليرى طرب ابن غيلان التاجر على ترجيعات الجارية " بلّور " وطرب ابي الوزير الصوفي في دار القطن عند جامع المدينة على غناء " قلم القضيبية " وطرب ابن صبر القاضي على غناء " درة " وطرب ابن الحجاج الشاعر على غناء " قنوة البصرية " وطرب ابن معروف قاضي القضاة على غناء " علية " وطرب ابن اسحق الطبري على صوت " درة البصرية " وطرب ابن الوراق على غناء روعة " وطرب الحريري الشاعر على غناء " حلية " وطرب أبي سعيد الصائغ على غناء " ظلوم " وطرب الزهري على غناء " خلوب " وطرب ابن المهدي على غناء " علوة " وطرب الكناني الشيخ المقرىء على غناء " صبابة " في صوتها المعروف بها.

عندها سيرى العجب من احوال الشيوخ والقضاة وطرائفهم الغريبة في الطرب على أصوات هؤلاء الجواري وترجيعاتهن .

ومن الجدير بالذكر أن من هؤلاء الجواري الفيان من كنّ يتاجرن بالعشق والغناء ، فكان الشبان الموسرون الذين يرتادون بيوتهنّ يقعون في أحبالهن حتى يستنزفنَ أموالهم ثم يلفظنهم .

---

(١) أبو حيان التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ، المجموعة الكاملة ، ص ١٦٨.
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٠.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

الفصل الثاني
الصورة المادية للمرأة
في الشعر البويهي

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الصورة المادية - المرأة الحبيبة

بعد القراءة المستفيضة في " اليتيمة ، و " الدمية " ودواوين الشعراء في العصر البويهي وفي بعض الكتب التي تناولت هذا العصر بالدراسة ، تبين لي أن كثيراً من شعرائه قد عرّجوا على غرض الغزل وتفننوا فيه وتناولوا في شعرهم عاطفة الحب هذه العاطفة الانسانية الخالدة التي امتلأ بها شعرنا العربي وعاش لها شعراؤنا العرب الغزلون على مر عصور الشعر العربي - عذرياً عفيفا أو حسيا معتدلا او حسياً لاهياً ماجنا - وكانوا فيها متنقلين مع مختلف الأحاسيس والعواطف ، فمن فرح الى محزون ، ومن متأمل الى متألم ، ومن عفيف ورع الى فاجر لاهٍ ... الخ .

ويرى شوقي ضيف أن تيّار الغزل ظل حاداً مندفعا في هذا العصر ، وظل الشعراء ينظمون فيه وينطقون به وكأنّ كل من شدا بالشعر نظم فيه وجرى الغزل على لسانه لا يشذ عن ذلك سلطان ولا وزير ولا كاتب ولا قائد ، وقد صوروا ألواناً من هذا الحب الذي كان يستأثر بالنفوس ويملك عليها من أمرها كل شيء ، وظل لهذا الغزل لوناه المتقابلان على مر العصور : الغزل المادي والغزل العذري العفيف ، وكان اللون الأول هو الغالب على الشعراء .(١)

واذا ما عدت الى القول بأن اختلاط الشعراء بالمرأة في هذا العصر وقربهم منها قد جعلهم يذلفرون بما شاءوا من وصف مادي مفصل لملامحها الجسدية (٢) فان الحديث عن هذا الأمر خلال الشعر في مجتمع كهذا يُعد أمراً مألوفا ، بل انّه من أكثر الوان الشعر تآلفا وانسجاما مع طبيعة تلك الحياة التي أسرفت بعض جوانبها في العبث فكان في شعرها صور لذلك العبث واللهو فامتزج سلوك شعرائها بفنهم ، وحياتهم العملية بشعرهم حيث نجد في هذا الشعر وصفا لمحاسن مادية للمرأة لم نجدها في الوصف المعنوي لها ، وصورا تهتم بتفصيلات الجمال الجسدي والمتع الحسية . ومن هنا فانه يمكننا أن نصدر حكمين على أصحاب هذا الشعر : الأول أخلاقي يتناول سلوكهم في حياتهم ، والثاني فني يربط هذا السلوك بذاك الشعر الذي كان صورة لحياتهم اللاهية وسببا في نسبة أصحابه الى النزعة الحسية بصورها الفاجرة اللاهية .

وأود أن أشير هنا بأنني سأضرب صفحا عن شعر كثير يعجّ به كتاب " اليتيمة "لمجموعة كبيرة من شعراء العهد البويهي لن يكون بامكاني دراسته لمنافاته الخلق الكريم ولمجافاته الذوق السليم .

---

(١) شوقي ضيف ، عصر الدول والامارات ، ص ٦٠٤ .

(٢) شوقي ضيف . العصر العباسي الثاني ، ص ٤٤٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وسأكتفي بدراسة الشعر الذي تستسيغه الأذن ويرضاه الذوق ولا يجافيه شعرنا الغزلي الذي عرفناه في عصورنا السابقة .

وكذلك فانني سأدع جانبا شعراً كثيراً لهذا العصر يصعب على المرء أن يميز فيمن هو ، حيث أن الغزل بالمذكر قد شاع في ذلك الوقت لأسباب كثيرة منها : احتفاء المجتمع بالغلمان الذين عجت بهم البيوتات وهؤلاء يحملون من الصفات الأنثوية ما يجعل رجالا من عصرهم يلتفتون اليهم التفاتة خاصة في زمن فسدت أخلاق أصحابه واضمحلت .

فها هو الوزير المهلبيّ يقول في غلام لمعز الدولة البويهي :

ظبي يرقُّ الماءُ في وجناته وبرق عيدُه
ويكاد من شبه العذا رى فيه أن تبدو نهودُه (١)

ويقول أيضا في غلام له :

يا هلالا يبدو فيزداد شوقي وهَزاراً يرنو فيزداد عشقي
زعم الناس أن رقّك مُلْكي كذب الناس أنت مالك رقّي (٢)

بل انهم قد احتفلوا بالغلمان حتى وهم في أبشع صوره ، فها هو المفجع البصري يقول غلام أصابه الجدري فرأى وجهه قمرا تخللته النجوم :

يا قمرا جدر حين استوى فزاده حسنا وزادت همومي
كأنما عنى لشمس الضحى فنفطته طربا بالنجوم (٣)

فما تقولون في مجتمع كهذا ؟! خاصة عندما لا يذكر الثعالبي فيمن يتغزل الشاعر وانما يكتفي بقوله وهو في معرض حديثه عن شعر احدهم : وقال في الغزل ...

لذا أجدني مدفوعة لترك هذا الشعر وأمثاله الذي يختلط الأمر فيه على الدارس .

وسأحاول في هذا الفصل تتبع أهم ما يكوّن صورة المرأة في شعر هؤلاء الشعراء من خلال آرائهم والمواقف التي صدروا عنها في مضمار حديثهم عن المرأة حيث كانت هذه الصورة وسيلتهم لنقل آرائهم ومواقفهم من حياتهم في ذلك العصر .

---

(١) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٢ ، ص ٤٠١
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦٤ . الهَزاز : طائر صغير الحجم حسن الصوت يشبه العندليب .
(٣) المصدر السابق . ص ٢٣٧ . عنى : ظهر .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولقد احتشدت صورة المرأة عند هؤلاء الشعراء في فن الغزل الذي كثيراً ما قدموا به قصائدهم المدحية خاصة وبعض المقطوعات القصيرة القليلة المقتصرة على الحديث عن المرأة فقط .

ولا أستطيع أن أجزم بأنهم في مواقفهم هذه كانوا يصدرون عن تجربة حب حقيقية كما أنني لا أستطيع أن أنفي ذلك عنهم فبعض كتب الأدب ودواوين الشعر تحدثنا مثلا أن الشريف الرضي قد أحب فتاتين - غير زوجته - لم يوفق في الزواج منهما ، وهما ابنتا وزيري بهاء الدولة البويهي ، أبي نصر سابور بن أردشير وأبي علي الحسن بن محمد الموفق .(١)

ويحدثنا شعر مهيار أنه قد أحب فتاة عربية كان يُكني عنها " بسام سعد " ، وهي التي ردد اسمها كثيرا في قصائده الغزلية ومنها قصيدته المشهورة :

أُعجبتْ بي بين نادي قومِها "أمُ سعد " فمضتْ تسألُ بي
سرّها ما علِمت من خُلُقي فأرادتْ علمَها ما حسبي
لا تخالي نسبا يخفضني أنا من يرفيك عند النسب(٢)

ويعترف بأن هذه الفتاة العربية قد استعبدته بجمالها .(٣)

سهرنا ببابلَ ، للنائمين عمّا نقاسي بنجدٍ رقودا
من العربيات شمسٌ تعود بأحرار فارسَ مثلي عبيدا

وليس مهما أن يكون وراء حديثهم عن المرأة وتصويرها في شعرهم تجارب حب حقيقية واقعية لكنّ المهم صدقهم في التعبير عن هذه التجارب أيا كان مصدرها يستوي في ذلك تجاربهم هم الذاتية ومعرفتهم بتجارب غيرهم في مجتمعهم ومعرفتهم بتجارب غيرهم في مجتمعات أخرى وعصور مختلفة .

ودعوني الآن أحاول تتبع الصورة المادية للمرأة بأجزائها المختلفة بعد أن استخلصتها من شعر هذا العصر وبعد أن رتبتها حسب تسلسلها واتساقها مكونة هذا التمثال الذي بهر الشعراء - وما زال - بتكوينه الرائع وخلقه البديع ولأبدأ بشعرها وشعرها عندهم جميعا يشبه الليل من حيث لونه فاللون

---

(١) ديوان الشريف الرضي . صنعة أبي حكيم الخبريّ ، تحقيق عبدالفتاح الحلو (ط ١ ، بغداد) ١٩٧٦، ص ٢٥ .

(٢) ديوان مهيار الديلمي (دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٥) ج ١،ص ٦٤.

(٣) علي الفلال ، دراسة تحليلية لشعر مهيار الديلمي ، ص ١٤٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الأسود هو الغالب على شعر المرأة العربية ، ولم يكن أمامهم شيء أشد سوادا من الليل لتشبيه الشعر به ، فقُرونها السوداء عند مهيار أشبه ما تكون بقطع ليل تدلّى بعضه وارتفع بعضه الآخر فبرزت جوانب من الليل واختفت أخرى :

قل للزمان صلحنا ... قد عاد ليلي صبحنا
جادَ فزارَ فمرّ ... كان لوى وشحنا
يلبسُ جنحا من دجى اللـ ... ـيل ويبنضو جنحنا (١)

واضافة لسواد هذا الشعر وافتتان مهيار به فان لنعومته أيضا أثراً خاصا في نفسه اذا ما بدا له منسدلا بين العنق والخاصرة :

وليلٍ لبسناه بقربك ناعمٌ ... بطائنَ ما بين القلائد والوشح
ويضحي ويمسي ضوءُ وجهك بيننا ... سراجاً وضوءُ البدرِ يُمسي ولا يُضحي (٢)

أما الرضيّ فإنه يرى الذوائب والقرون السوداء تشارك بقية أدوات الجمال القتالية عند المرأة لشنّ حرب على الشاعر فتكون بسوادها الداجي وقد تلألأت خلاله أسنانها اللامعة لمعان أقراطها ودمالجها ، أشبه بالليل المظلم وقد زيّنته نجومه اللامعة المضيئة :

لهنّ اللهَ كيف أصبنَ منا ... نفوساً ما عقلنا وما ودينا
لقين قلوبنا بجنودِ حسنٍ ... تطاعن بالدمالج والبُرينا
جلونَ لنا لآلئَ واضحاتٍ ... أضانَ بها الذوائبُ والقرونا (٣)

كذلك فان لطول هذا الشعر وطيّه أثراً في لفت نظر الرضيّ اليه حين نراه مشفقا على حبيبته من أن يتعب جيدها الناعم الليّن بسبب حمله شعرها الكثيف :

فرعاءُ ان نهضت لحاجتها ... عجل القضيب وأبطأ الدعص
ومرجّل جعد ينوء به ... جيد الغزال وناعم رخص (٤)

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ،ج ١ ، ص ٢٠٩. الشُّح: أشد البخل. ينضو: يُخرج ويظهر.

(٢) المصدر السابق ،ص ٢٠٠ الوشح يقصد به الوشاح وهو اديم عريض مرصع بالجواهر واللآلىء تشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها.

(٣) ديوان الشريف الرضيّ ، ج ٢ ص ٥٤٧. وُدينا : دفع ثمن قتلها . الدمالج: مفردها دُمْلج وهي حلية تحيط بالعضد . جلون : أظهرن وكشفن . واضحات : بيض حسان . البُرين : واحدتها البُرَة وهو الخلخال .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٧٠ . الفرعاء : المرأة الطويلة الشعر . الدّعص : كثير اللحم . المرجّل : الشعر المسرح .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وبشاركه هذا الرأي ابو سعيد الرستميّ حين يرى أن لطول قرونها مع سوادها وطيّها شكلاً يزري بشكل الحيّات الملتوية :

مررنَ بحزوى والجآذرُ ترتقي ... فلم تدرِ حزوى أيهنّ الجاذرُ
ومالتْ على الانقاء فاشتبهتْ بها ... أهن النقا أم ما تضمُ المآزرُ
وأرستْ على الأعجاز سودَ فروعها ... فأزرتْ بحيات الغدير الغدائرُ (١)

أما تاج الدولة بن عضد الدولة فانه يرى أن كثافة شعرها تجذبه نحوها خاصة اذا ما تناثر حول صدغيها على شكل الحلق الصغير فانه يشكل صورة جمالية تمتلك قلبه :

سقاني سَحَراً خمرُهُ ... وقد لاحت لي النشرَه
غزالٌ فاتن الطرف ... مليحُ الوجه والطرّه
أنا ملك وقد ملكـ ... ـتُ قلبيَ صاحبَ الوفرَه
وقد زرفنَ صدغيه ... على أبهى من الزهرَه (٢)

وأمّا جبينها أو جبهتها فان بياضه ونقاءه قد جذبا الشريف الرضيّ فوضعهما في مصاف جمال العيون وبياض الصدر ، وقد اشتركت في جذب الشاعر نحو هذه المرأة ، فوضوح الجبين اذن أي بياضه ونقاءه من العوامل الملفتة لنظر الشعراء إلى هذه المرأة :

جلونَ الحداقَ النجلَ وهي سقامُنا ... ووارينَ أجياداً وسودَ قرونِ
ولولا العيونُ النجلُ ما قادنا الهوى ... لكل لبانٍ واضحٍ وجبينِ (٣)

وما أحسنها من خلقة يصورها السري الرفّاء تظهر في بروز نعومة هذه الجبهة وبياضها ولمعانها محاطةً بخصلاتٍ من شعرها الأسود الفاحم والتي يقرنها بضوء الصباح اذا ما انبثق خلال ظلمة الليل :

نفتِ البراقعَ عن محاسنِ روضةٍ ... ريضتْ بمحتفَل الحيا أنوارُها
فمن الثغورِ المشرقاتِ لجُبنها ... ومن الخدودِ المذهبات نضارُها
مصقولةٌ بسنا الصباح جباهُها ... مصبوغةٌ بدجى الظلامِ طِرارُها (٤)

---

(١) الثعالبي ،يتيمة الدهر ،ج٣ ،ص ٣٠٢، الجآذر:مفردها جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية . الأنقاء: مفردها النقا وهو كثيب الرمل . المآزر:مفردها المئزر وهو ما يحيط بالجسم من لباس . الغدائر: الذوائب واحدتها غديرة .

(٢) المصدر السابق،ص ٢٢٢ . النشرة :كوكب في السماء . الطرة :جمع طُرَر وطُرات وطِرار وهي قطع الشعر . الوفرة : الكثيرة الكثيفة . زَرْفَنَ:فارسية معربة وتعني ارسل الشعر على الصدغ .

(٣) ديوان الشريف الرضي،ج ٢،ص ٤٨٥ . النجل :مفردها نجلاء وهي العين الواسعة الجميلة ، ونجل بالشيء: رمى به . اللبان : الصدر .

(٤) ديوان السري الرفّاء ،(مكتبة القدسي ،القاهرة ١٣٥٥هـ)ص ١١٣ نفت : خلعت وأزالته

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وحاجباها سيفان مسلولان يرى مهيار انهما يطغيان كل غر غرير، لذا نجد محبّي هذه المرأة يبيتون على وجل خوف ان يقتتلوا بهما على حين غِرة :

نظرةٌ أعرضتُ عنها أعقبَتْ غضباً آذنَ للقلب النظرْ
أرهفتْ سيفين في أجفانِها كلُّ من غر يبت على غررْ(١)

ولا برء لمن يجرح بهذين السيفين ولو اجتمع عليه الأطباء فان شفاءه لن يكون على ايديهم ، ولكن في نظرة من عيني هذه الحبيبة الجميلتين :

أقسمت : من جرحاه لا بُرا يا طبيبي متُّ ودائي في الحورْ(٢)

وتتخذ الحبيبة من هذين السيفين أداةَ اصطيادٍ وقتل ترمي بهما فتمعن رميا حتى بمن كان بعيدا عنها ولا بد أن تصيب مقتلا عميقا من حبيبها فمعها القسي في حواجبها والسهام في عيونها وليس لهذا الداء في يد الأطباء من دواء :

وعوّذني عرّاف " نجد " بذكرها فأعلمني أن الغرامَ جنونُ
تعوّدَ داءً ظاهراً أن يطبّه فكيف له بالداءِ وهو دفينُ
رمينَ بعيدا والقسي حواجبٌ فأخلصنَ فينا والسهامُ عيونُ(٣)

وأما عيون الحبيبة فقد رسم الشعراء صورتها بفن احتذوا فيه الأوائل من الشعراء العرب الذين توافروا على جمع أجزائها من خلال تشبيهها بشريحة صحراوية تتحرك عادة امامهم وهي الغزلان والمها .

واذا ما عرفنا أن شعراء هذا العهد عاشوا في مدن متحضرة زاهية بالقصور والرياش خالية من معالم الحياة الصحراوية ، فاني أقول ان الشعر العربي هو الشعر العربي مهما تعددت بيئاته واختلفت أزمنته ، وان اتباع السنن العربي في الشعر جعلهم يتخذون من هذه الصورة الصحراوية نموذجا يتبعونه ويحتذونه .

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ، ج ١ ، ص ٣٥٥ . أرهفت : رققته وأخرجت له حدا كالسيف .

(٢) المصدر السابق ، الحَوَر : شدة بياض العين مع شدة سوادها مع بياض الجسد .

(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٥٩ . العرّاف : الطبيب او الكاهن .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فعينا حبيبة السري الرفّاء عينا ظبية ساحرة قاتلة تتميز بنظـــــرة شاردة أو حركة جافلة بعد أن تخلت عن السرب وأحست الخوف منفردة وهذه النظـرة وتلك الحركة مع ضعفهما قادرتان على أن توهيا قُوى الرجل الصلب المتماسك :

أأقحواناً أرَتْه أم بَـــرَدا ... غيداءُ يهتزُ عطفُها غيَـــدا
رنتْ اليه بطرفٍ خاذلـــــةٍ ... ضعيفةِ الطرف تضعف الجَلِـدا
لو وَجدتْ للفراق ما وجـــدا ... لافتقدتْ نومها كما افتقـدا (١)

ولا أجملَ من العيون الواسعة الجميلة فهي مما يجذبه الى تلك المـــرأة الحبيبة، ويزيده لهفا عليها اجتماع هذا الجمال مع قوام رشيق كالغصن :

وقد شيّعني طـــــــرفٌ ... بماءِ الشوقِ مطـــــروفُ
وجادت حدقٌ نجـــــــلٌ ... ومادت قضبٌ هيـــــفُ (٢)

ويشبه مهيار أيضا عين حبيبته ونظرتها بعين الغزالة الجميلة بل انهـا تفوقها حسنا ، ولو قدر للمها أن ترى محبوبة الشاعر وجمال عينيها لخجلـــت من نفسها في الحسن ولمنعت نفسها التلفت والرنوّ :

ومليحةٍ لو انصفتْ عينُ المهـا ... في الحسنِ ما ثنت الصليفَ ولا رَنَتْ
بيضاءُ من كَلَل الخدورِ وربمـا ... ذكرتْ بداوةَ قومِها فتسهمـــــتْ (٣)

ويلتقي مهيار مع السريّ في بيانِ أثر نظرة الحبيبة وجمال عينيها فـــي اضعاف قوة صاحبها ، مهما بلغت اذ أنها تصيبه تجريحا وقتلا وهو من أقوى الرجال وأشدهم فتكا بأعدائه حتى أنه لقادر على الفتك بألف رجل ، أما عندما يقابـــل عيونها النجل الواسعة الجميلة فانه يضعف ويعجز عن صدها :

ما عند سكان " مِنى " في رجـــلٍ ... سباه ظبيٌ وهو في ألف رجـــلْ
دافعَ عن صفحتهِ شوك القنـــــا ... وجرّحته أعينُ السربِ النجـــلْ (٤)

---

(١) ديوان السري الرّفاء، ص ٨٢ ، الأقحوان : نبات له زهرة صفراء صغيرة في الوسط تحيط بها اوراق من الزهر الأبيض الصغير يشبّه الشعراء بها الاسنان الاقحوان؛ جمع أقاحٍ واقاحي . الغيداء: المرأة المتثنية من اللين المتهادية في مشيتها ، العِطف : الجانب .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٥. المطروف : المصاب . مادت : مالت . الهيـــف : مفردها أهيف وهيفاء وهو ضامر البطن رقيق الخاصرة .

(٣) ديوان مهيار الديلمي ، ج ١ ، ص ١٧٥ . الصليف : عرض العنق ، الكلَـــل : أستار رقيقة كالقباب تُضرب على الهوادج . تسهمت : أخذت نصيبها .

(٤) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٩ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وكأنّ دم المحب الذي هو حرام على أعدائه وعلى كل من يحاول أن ينال ولو فطرة واحدة منه كأنه حلال لها تصيب منه متى شاءت ، فدماؤه حلّ لتلك العيون التي أسقمت محبها مع أنه محظور محرّم على اولئك الرماة القاتلين :

هل في الشموسِ التي تُحدى بها العيرُ ... قلبٌ الى غير هذا الدين مفطورُ؟
أمْ عند تلك العيونِ المُتْبلاتِ لنا ... دمٌ على أسهمِ الرامين محظورُ
يَجْحدنَ ما سفكتْ أجفانُهنّ دما ... وقد أقرّبهِ خدٌّ وأطفورُ(١)

وكذلك هي صورتها عند الشريف الرضيّ اذ نراها تتميز - بين صويحباتها الجميلات كالغزلان - بعيون كحيلة فاترة مسترخية الأجفان ، وهذه صورة لعيون المرأة العربية التي تتميز بجمالها استعارها الشاعر من سابقيه من الشعراء العرب .

وفي ذلك السربِ الذي تربانيه ... أحمّ غضيضُ الناظرين كحيلُ
علقناكَ يا ظبيَ الصريمِ طِماعةً ... أعندك من نيلٍ لنا ، فتنيلُ
أنلْ نائلاً ، أو لاتشنْ بنظرةٍ ... فإني بالأولى ، الغداةَ قتيلُ(٢)

وهو يتكىء على أدوات القتال للفارس العربي يتخذ منها شبها لنظرات العيون الجميلة ففيها سيوف وسهام وكلما كانت أكثر جرحا وإيلاما كانت أشد جمالا عند محبها، وفتكها هذا أفعل من فتك القنا :

وغيداءَ لم تصحبْ سوى الشمس أختها ... ولا جاورتْ الا الغزالَ أخاها
وخلّةُ فرسانٍ عيونُ ظبائِها ... أمضُّ جراحاً من طِعان قناها(٣)

بل ان حدّة رموشها تُتخذ أداةً لبري النبال وصقلها ، وهو يراها حادة مؤلمة في حالي نظرها اليه وصدّها عنه ، وهذا المعنى أيضا تكرر على ألسنة الشعراء في هذا العصر وقد استفادوه من سابقيهم من الشعراء العرب :

له عينان تُبرى منهما ... للأعينِ النبلُ
سواءٌ بهما الإحياءُ للواجد ، والقتلُ(٤)

والرضي لا يستطيع أن يتماسك حيال هذه العيون ، اذ سرعان ما يترنح أمام حدة نظراتها التي توجر قلبه ويطير لها لبّه وحشاه :

فررتُ بطرفي من سهامِ لحاظِها ... وهل تُتّقى أسهمٌ بعيونِ
تماسكتُ لما خالط اللبّ لحظُها ... وقد جُنّ منه القلبُ أيّ جنونِ(٥)

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ج ٢ ص ١٠٣ المُتْبلات : اللواتي يصبن بالتَبْل وهو السقم

(٢) ديوان الشريف الرضي ،ج ٢ ،ص ٢٢١ . الأحمّ : شديد البياض وكذلك شديد السواد . غضيض : فاتر الطرف .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٦٢ الخلّة : من اختله بالرمح أي طعنه به .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٥ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٤٨٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فهذه العيون الواسعة الجميلة التي أصابته في قلبه هي سبب ألمه مثلما أن عنقها الجميل وشعرها الأسود هما سبب ألمه ولوعته في الحب لأنهما مخفيان عنه وعيونها الجميلة هذه هي التي قادته لهواها مثلما قاده صدرها وجبينها الأبيضان النقيان ليكون صريع هواها :

جلونَ الحداقَ النجلَ وهي سقامنا ... وواربنَ أجياداً وسودَ قرون
ولولا العيونُ النجلُ ما قادنا الهوى ... لكل لَبَان واضحٍ وجبين (١)

ويعطي تاج الدولة بن عضد الدولة العذرَ لنفسه ولغيره للتعلق بهذه العيون وهو أن " هاروت " ذلك الملاك الساحر قد أمدها بما يملك من سحر فعلمها كيف تسحر الناس وتذهب بألبابهم :

سلامٌ على طيفٍ ألمَّ فسلّما ... وأبدى شعاعَ الشمسِ لما تكلّما
بدا فبدا من وجهه البدرُ طالعا ... لدى الروض يستعلي قضيباً منعّما
وأحسبُ هاروتاً أطاف بطرفه ... فعلّمه من سحرهِ فتعلّما (٢)

وفي نظر أبي الفرج الببغاء هي عيون جميلة ساحرة حتى وهي رمداء مريضة فانها لا تقل جمالا عنها في حال صحتها ، اذ أن احمرارها مستمد من تورد خدي صاحبتها :

أراقت دمي ظلماً محاسنُ وجههِ ... فأضحى وفي عينيه آثارهُ تبدو
غدت عينُه كالخدّ حتى كأنّما ... سقى عينَه من ماءِ توريدهِ الخدُّ (٣)

وفي رموش هذه العيون يرى مهيار سهاماً قاتلة جارحة تصيب قلب محبها ولشدة قتلها وقوته يختلط الأمر عليه أهي سهامُ حربٍ أم لحاظُ امرأة فاتنة :

ما كان سهماً غارَ بل طبعٌ سنخْ ... ان لم يكنْ قتلَ الفؤادَ فقد جرحْ
جلبَ الجمالَ يريدُ أنفسَنا به ... ثمناً فتاجرناه فيه كما اقترحْ (٤)

فتجني المحبوبة عليه عامدة وهو حبيبها ثم تدرك ما أحدثته فيه من جرح بسهامها فتطلب الصفح ولكن أين الجاني من المجني عليه عشقا وظلما :

أيا صاحِ - والماشي بخير - موفّقٌ ... ترنمْ "بليلى" ان مررتَ على السفحِ
وسل طلبة الوادي : أأنتِ أم التي ... حكتكِ على قلبي بلحظها تُنحي
رمتْ فجنتْ واستصفحت هي عامدٌ ... الا أين جرمَ العامدين من الصفحِ (٥)

---

(١) ديوان الشريف الرضي ،ج ٢ ، ص ٤٨٥ .
(٢) الثعالبي ،يتيمة الدهر ،ج ٢ ،ص ٢٢٠ ،هاروت : اسم مَلَكٌ او مَلِك والأعرف أنه مَلَك .
(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ .
(٤) ديوان مهيار الديلمي ، ج ١ ، ص ١٨٦ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

أمّا السري الرفّاء فانه يرى أن هذه الرموش تؤلمه في حالي النظر اليه والاعراض عنه ، كالسهم يؤلم اذا ما وقع في الجسم واذا ما انتزع منه :

ومن وراءِ السجوفِ بدرُ دجـــــى يُخجلُ بدرَ الدجى اذا طلعـــا
أولعَ جفنيه بي ليقتلنـــــــي سهماهما واقعاً ومنتزعـــــا(١)

عندها تلجأ إلى انكار ما جنت عيناها على حبيبها ، لكن ما أراقته بسهامها من دمائه تظهر حمرته في خدودها فتشهد بما أحدثته في حبيبها مـــن جرح كما تظهر في أظافرها التي صبغت باللون الأحمر :

أم عند تلك العيونِ المُنْبلاتِ لنـا دمٌ على أسهمِ الرامين محظـورُ
يجحدن ما سفكتْ أجفانهنّ دمـــا وقد أقرّ به خدٌّ وأظفـــورُ(٢)

اذن هي معركة تديرها لواحظها التي علمت السيوفَ فنَ القتلِ وقوامُهـا الممشوق الذي علم الرمحَ فنَ الطعن :

يا من يرى قتلي السيوفِ حظرت دماؤهم ، اللّهَ في قتلى المقـلّ
لواحظاً علمت الضَّرْبَ الظُّبـــا على قوامٍ علم الطعنَ الأسـلّ(٣)

حتى لتصيب بها اولئك الرجال الصناديد الذين اعتادوا الضرب والقتـل في الأعداء .

ورحن يرمين بالألحاظ مقتنصـا فما تصيدنَ الا أنفسَ الصيدِ
يا ليلَ ، لو كان داءً تقتلين به داويته كان داءً غير مقصودِ(٤)

وكذلك فان الأمر يختلط على أبي الحسين الغويري حين لا يستطيع التمييز بين سيوف الهند المسلولة وسيوف أجفان الحبيبة حدةً وقوة :

أسيوفُ الهندِ سُلّتْ أم ظُبا أجفانُ هنـدْ
يا لأيامِ الصِّبـــا والعيشِ في أكنافِ نجـدْ(٥)

أما ابن لنكك البصريّ فانه يرى ان لا مفر له من هوى حبيبته الا إليه مع أنهـا تقتله بسهام عينيها التي تريق دماءه فتظهر آثار ذلك في وجنات الحبيبة وهـو يشارك مهيار الديلمي في هذا المعنى :

---

(١) ديوان السري الرفّاء ، ص ١٦٠.
(٢) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٣ ،ص ١٠٩ .
(٣) ديوان السريّ الرفّاء ، ص ١٦٠ . الظُّبا : حد السيف . الأَسَل : نبات يخرج قصبانا دقيقة لا ورق له ولا شوك تُصنع منه الرماح لاعتداله وطولـه واستوائه ودقة أطرافه .
(٤) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٣ ، ص ١١٠ .
(٥) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٣ ، ص ٣٣٧ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

حبيبٌ جفوتي فرضٌ عليـــــه مفرّي في الهوى منه اليـــــه
اذا لحظاتُه قتلتْ محبـــــاً تشحّطَ منه في دمٍ وجنتيـــــه(١)

والشريف الرضي يرى ان لحاظ محبوبته قد أشبهت لحاظ الريم لكنهـــــا فاقتها جمالا :

يا ظبيةَ البانِ ترعى في خمائلِه ليهنكِ اليوم أن القلبَ مرعـــاكِ
سهمٌ أصابَ وراميه بذي سَلَـــمٍ من بالعراق لقد أبعدتِ مرمـــاكِ
حكتْ لحاظُك ما في الريمِ من مُلَحٍ يومَ اللقاءِ فكانَ الفضلُ للحاكـــي(٢)

وهي بهذا الشبه تمنحه عذرا للهُيام بها وتخلصه من عذل العـــــذال اذ سرعان ما يدركون هذا الجمال الذي يعطي المحبّ الحقَ في حبه :

ان الربائبَ من غزلانِ أسْنِمَـــةٍ أعلقنَ ذا الشيبِ أعلاقاً من الغَزَلِ
من كلِ ريمٍ هوى ألحاظُ مقلتِـــه يمسينَ للعذرِ أنصاراً على العَـــذَلِ(٣)

وحفل شعر هذا العصر بذكر خدود المرأة الحبيبة فعني الشعراء- مثلما كان لسابقيهم - بلونها ونقائها وصفائها ونعومتها ولمعانها.

فمهيار يرى أن لونها جاء من ألوان الورد ، وهي صورة تقليدية أيضـــا مستمدة مما كان يضفيه الشعراء السابقون على ألوان خدود النساء الحبيبات، وقد اجتمع لحبيبته هذا اللون في الخدود مع عذوبة في الريق محرّمة على حبيبها":

سلافةُ ريقهِ بسلٌ حـــــــرامٌ ووردةُ خدّهِ مما يبيـــــــحُ
أيا عجَبًا يهتّكُ في سلاحـــــي - وقد حطم القناة طرفٌ طموحُ
رمى كبدي وراح وفي يديـــــه نضوحُ دمي ،فقيل : هو الجريحُ(٤)

لكنها مع ما وهبت من جمال ورقة في خديها تبدو قاسية القلب علـــــى حبيبها فاجتمعت فيها الرقة والقساوة في آن :

آهٍ على الرقة في خدودِهـــــا لو أنها تسري إلى فؤادهـــــا
" بالبانِ " لي دينٌ على ماطلةٍ يميسُ غصنُ البانِ في أبرادهـــا(٥)

---

(١) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٢ ، ص ٣٥٤. تشحّطَ : تحرك واضطرب .
(٢) ديوان الشريف الرضي ، ج ٢ ، ص ١٠٧.
(٣) المصدر السابق ص ١٤٢. أسْنِمة : اسم موضع فيه أكمة معروفة . العُذْل والعَذَل: اللوم .
(٤) ديوان مهيار الديلمي ،ج ١،ص ٢١٨. السُّلاف : أول ما يُعصر من الخمـــــر . بَسْل :حرام .
(٥) المصدر السابق ٣١٦ . يميس : يتبختر ويختال أو يتثنى في مشيته. الأبراد مفردها البُرْد وهو الثوب .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وأما الشريف الرضي فان ما يذهله في خدود حبيبته نقاؤها وصفاؤها عندما تميط النقاب عن وجهها :

أمطنَ سجوفاً عن خدودٍ نقيةٍ صفا بشرٌ منها ورقّ أديمُ
تأطّرُ أغصانِ الأراكِ أمالها وقد رقّ جلبابُ الظلامِ نسيمُ(١)

ونرى السري الرّفاء يفتن بلون خد الحبيبة ورقته ولمعانه ونعومته فيأخذه فيه لون الورد الأحمر خاصة عندما تكون الفتاة خجلة فانها تبدو لحبيبها في أحسن صورة وأجملها :

ألم يتحفْه بالوردِ من خَفَرٍ في وجنتيه وبالصهباءِ من شنبِ
اذا تجلّى جلا الخدين في خَفَرٍ وان تثنّى ثنى العِطفين من تعبِ(٢)

وعند حديثه عن لون الورد في خد الحبيبة يعرّج على صورة زهر الرمان الذي يطلق عليه هؤلاء الشعراء اسمه الفارسي " جلّنار " ويبدو لي أن ذلك كان من تأثير اللغة الفارسية في شعرنا العربي في ذلك العهد ، فتبدو له خدود حبيبته لامعة صقيلة محلاّة بلون هذا الزهر :

ومذهّبةُ الخدودِ بجلّنارٍ مفضّضة الثغورِ بأقحوانِ
سقانا اللهُ من رباك ريّا وحيّانا بأوجهكِ الحسانِ(٣)

وكذلك فان السري يرى شقائق النعمانِ الحمراء في خد حبيبته ومع لمعانها تبدو له صورة ورود حمراء قد علاها طلّ أبيض ناعم :

كأنّ خدودَهن اذا استفلّتْ شقيقٌ فيه من طلٍّ بقابا(٤)

ومع ما تتحلى به صاحبته من جمال في لون خدها فانها تتمتع كذلك برقة

---

(١) ديوان الشريف الرضي ، ج ٢ ، ص ٣٣٢ . أمطنَ : أبعدن . التأطّر : التثني . الأراك : شجر يُستاك به لطيبه وهو طويل ناعم كثير الاوراق.

(٢) ديوان السري الرّفاء ، ص ٣٨ . الصهباء : الخمرة التي تُعصر من العنب الأبيض . الشنب : ماء ورقّة يجري على الثغر .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٦٨ . مفضضة : مرصّعة لامعة كالفضة .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٨١ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ونعومة ظاهرتين وحينما تضفي عليه من وشي كفها المخضب فان ذلك يزيده جمالا :

غداةَ بدا لها خدٌّ أسيلٌ ينمنم وشيُه كفٌّ خضيبُ (١)

ومما يزيد في نعومةِ خدها تنعّمها في عيشها فهناك فتيات يقمن على خدمتها ويعتنين بتعطيرها بشذا المسك والكافور فيضيف ذلك الى جمالها جمالا كما يراها تاج الدولة :

وقد أرسلتُ أيدي العذارى بخده عِذارا من الكافور والمسك أسحما
ألمَّ بنا في دامسِ الليلِ فانجلى فلما انثنى عنا وودعَ أظلما (٢)

والشاعر ابن العلّاف يرى لمعان خد صاحبته يفوق ما عرف عن الشمس من لمعان واشراق ، فخدها مأوى للكواكب اللامعة مثلما أن عينيها شرك منصوب لكل ذي هوى :

خدا كِ للخُنَّس السبعِ العلا فَلَكٌ ومقلتاكِ لشرّاد الهوى شَرَكُ
وفيك نفعٌ وضرّ يجريان كما يجري بما يحتوي في وسعه الفَلَكُ
فالضُّرُّ أجمعُ مخصوصٌ به بدني والنفعُ بيني وبين الناس مشتركُ (٣)

ومما يرتبط بصورة الخد والعين معا جريان الدمع من العين على الخد .

فقد تعارف الشعراء على أن يستمدوا صورة هذه الدموع اما من لؤلؤ العقد أو من حبات الندى . أو من حبات الزبد المتناثرة على سطح اناء الخمرة الحمراء فنحن نرى السري الرفّاء غير قادر على التمييز بين صورة الدموع والصور الأخرى التي تسارعت الى ذهنه من شدة شبهها بها ،فهو حائر في أمر هذه الحبات التي فاضت من عيني الغزالة " الحبيبة" على خديها أهي دموع أم حبات عقد انفرطت وتناثرت :

كان جليداً فخانه جَلَدُهُ وعاده بعد همّهِ كمَدُهُ
وأطلق الشوقُ أسرَ عَبرَتِهِ وهو أسيرُ الفؤادِ مضْطَهَدُهُ
أدمعُ ذاك الغزال فاض على الـ خدين أم عِقدُهُ وهتْ عُقَدُهُ ؟ (٤)

ان صورة الدموع المنهمرة كاللآلىء المتناثرة من عينين كالنرجس على خدين كالورد قد كررها الشعراء كثيرا في هذا العصر ، فهذه صاحبة أبي سعيد الرستمي تودعه باكية فلا يلبث أن يرسم بخياله الشاعري صورة متحركة ملونة تظهر من خلالها لآلىء متناثرة من نرجس على ورود حمراء :

---

(١) ديوان السري الرفّاء ، ص ٢٦ ، الوشي : الألوان المختلطة .
(٢) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ . العِذار : الخد .
(٣) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤١٨ .
(٤) ديوان السري الرفّاء ، ص ٨١. الجليد : الصلب المتماسك . الكَمَد : الهمّ والحزن . وهت : ضعفت .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ودمعتي من نرجسٍ بجفونِها ... على وردِ خدٍ لؤلؤٌ متناثرُ
وسائلةٌ عبرى متى أنت آيبٌ ... الينا وهل يقضي الايابَ المسافرُ
حططتُ لها رحلي وسيّبتُ ناقتي ... وأمّنتُها والعيسُ مما تحاذرُ (١)

ويلجأون كذلك الى صورة أخرى يشكلونها من شريحة اجتماعية متكررة في حياتهم اليومية وهي مجالس الخمر ، وإنّ تكالبهم عليها اخذ يوحي للعديد منهم بصور ومجازات وتشبيهات كثيرة مختلفة :

صبابةٌ منكِ في تماديها ... ولوعةٌ خطراتُ الشوقِ تبديها
فالوجدُ يظهرها ان رحتُ اكمنُها ... والدمعُ ينشرها ان بتُّ أطويها
كم في الظعائن من تيمٍ لواحظُه ... تميتُ أنفاسَها طوراً وتحييها
وعبرةٌ في احمرارِ الخد حائرةٌ ... كأنما مَرَحُ الصهباءِ جاريها (٢)

فدمعتها حبة لؤلؤ بيضاء تتراقص على صحن خدها الأحمر مثلما حبة الزبد الأبيض تجري على سطح اناء الخمرة الحمراء .

ومما يتصل بجمال الخد أيضا أن يحلّيه خال أسود ، فيجتمع في الحبيبة ما يُعجِب ، فهذه صاحبة عز الدولة بن معز الدولة قد اجتمع لها سواد الخال في صحن خدها مع سواد الشعر على صدغيها وجلست أمام حبيبها في ليلة من الليالي المظلمة فاجتمعت على وجهها الجميل ثلاثة ألوان سوداء .

وفاؤكِ لازمٌ مكنونَ سري ... وحبُّك غايتي والشوقُ زادي
وخالُك في عِذارك في الليالي ... سوادٌ في سوادٍ في سوادِ (٣)

وأما الشفاه فقد استحسن الشعراء فيها رقتها التي استمدوها من رقة الكأس حتى اختلط الأمر على الشاعر أهي شفاه رقيقة أم فم كأس ، واذا كان المقصود هنا كأس الخمر فاننا نرى شعر مهيار قد عكس جانبا من حياة قومه ساعة لهوهم حين نراهم مجتمعين في مجلس الشراب ينظرون الحبيبة تتمايل أمامهم بقوام كالغصن تدير عليهم الكؤوس فيعشقون فيها هذا القوام وتلك الشفاه .

---

(١) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٣ ، ص ٣٠٢ .
(٢) ديوان السري الرفّاء ، ص ٢٧٨ .
(٣) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٢ ، ص ٢١٩ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

اذا استوحشتْ عيني أنستُ بأن أرى نظائرَ تصبيني اليها وأشباها
فأعتنقُ الغصنَ الغويمَ لقدّهـــا وألثمُ ثغرَ الكأسِ احسبُهُ فاها (١)

كذلك ناقوا الى ارتشاف ريقها الحلو البارد من شفتها الرقيقة اللمياء:

ومن تعاطي الكأسِ من ريقتهـــا وارتشفُ الأشنب من لماهـــا (٢)

وقد جاء توقهم الى هذه الرشفة من شفاه الحبيبة مع يقينهم بأن الله قد حرم عليهم مثل هذه الأفعال لكنهم يحاولون الخلط هنا ما بين الوشاية والتحريم في محاولة للحصول على طلبتهم فينسبون المنع الى الوشاة الذين لا يتوانون عن تذكيرهم بتحريم ذلك حرمة الخمر عليهم .

قال واشيها - وقد راودتُهـــا رشفةً تُبردُ قلبي من لماهـــا -
لا تَسُمْها فمَها ان الـــذي حرّمَ الخمرةَ قد حرّمَ فاهـــا (٣)

وبهذا يشير مهيار الى نوع من الانحلال الأخلاقي الذي ساد المجتمع في ذلك العهد والى موقف الشعراء الفرس خاصة من هذه المظاهر الاجتماعية .

واستحسن الشعراء من هذه الشفاه حمرتها ، فاذا ما نظرنا الى سواد عيون الفتيات مع حمرة شفاههن فاننا نحسب أن دما قد غطى هذه الشفاه بحيث أخذت شقائق النعمان تحاول الوصول بحمرتها الى مستوى حمرة هذه الشفاه المزينة بلمى الحبيبة :

وسودُ النواظرِ حمرُ الشفـــاهِ تحسبُهُنّ ولَغْنَ الدّمـــا
قريبٌ لألوانهن الشـــقـ يقُ ، مفتضَحٌ عندهن اللّمى (٤)

ولم يكن نصيب لثة الحبيبة منسياً من هذه الصورة ، فقد رسم لها الشاعر صورة استمدها مما كان يدور في جلسات لجماعات اعتادت في ذلك العصر التكالب على كؤوس الخمر المشعشعة ،فطعم لثتها عند الشريف الرضيّ عسل أبيضُ مخالط خمرةً باردة رطبة :

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٤ ، ص ١٨٣ .
(٢) المصدر السابق . اللمى : سمرة أو سواد مستحسن في باطن الشفة .
(٣) المصدر السابق .
(٤) ديوان الشريف الرضي ، ج ٢ ، ص ٣٥٦ . الولوغ : الشرب باللسان .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وفي ذلك السربِ الذي تريانِـــه احمَّ غضيضُ الناظرَيْن كحيـــلُ
وكمْ فيه من خوّ اللثاتِ كأنمـــا جرى ضَرَبٌ ما بينها وشَمُـــولُ(١)

وأما فم الحبيبة فقد حظي من شعراء هذا العصر باهتمام رسمته لغتهم الشعرية الجميلة ، وقد ظهر جماله من خلال وضاءته واشراقه محاطا اما بلـــون شفتها الحمراء وخدها الزاهي ، أو بلون شعرها الأسود ، وكذلك ظهر جمالـــه خلال الكلام الذي يصدر عن هذا الفم .

فمن المعنى الأول تظهر عند السري الرفّاء أسنان الحبيبة في فمهـــا الجميل المزين على شكل عقد لامع من اللؤلؤ الأبيض وعندما يفترّ هذا الفـــم عن ابتسامة فانه يزري بجمال عقد الجوهر الذي لا يملك الا أن يبكي خجلا مـــن جوهر فمها :

ونظامُ ثغرٍ ما تهلّلَ وشيُـــه الا بكى خجلاً نظامُ الجوهـــرِ
يُهدي اليكَ نسيمَه فكأنمـــا شِيبتْ جوانبُه بمسكٍ أذْفَـــرِ(٢)

بل ان هذا الفم المبتسم عند الشريف الرضي ليزري مضحكه بكل عقـــود اللآلىء والجواهر مثلما يزري جيدها الناصع باللؤلؤ الخالص :

ذكرتُ على بعدِها من منالـــي منازلَ بين قبا والمطـــالِ
عقائلُ علمهن العفـــافُ وصلَ المطال ومطلَ الوصـــالِ
مضاحكهنَّ عقودُ العقـــودِ وأجيادُهن لآلي اللآلـــي(٣)

وأما اشراقة فمها وبريقه فان السريّ يراها تغلب اشراقة الفضة ، بـــل ان الفضة تستمد بريقها ولمعانها من هذا الفم الوضيء مثلما يستمد الذهـــب لمعانه من خدودها المضيئة :

جاورتُ من شِيمِ الكواعبِ في الهوى من لا يُجارُ من الصبابة جارُهـــا
فمن الثغورِ المشرقاتِ لُجينُهـــا ومن الخدودِ المذهباتِ نُضارُهـــا(٤)

أمّا الشاعر احمد بن المفلّس فان الأمر يختلط عليه حتى أنه لـــم يستطع التمييز بين لمعان البرق الساري يشع وسط الدُّجُنّة وبين بريق فمهـــا الوضّاء وقد أحاطت به هالة سوداء من شعرها الكثيف .

---

(١) ديوان الشريف الرضي ، ج ٢ ص ٢٢١. الضَرَب : العسل الأبيض الغليظ .
الشَمُول: الخمرة الباردة لانهم يعرضونها لريح الشمال حتى تبرد .
(٢) ديوان السري الرفّاء ، ص ١٥٠ . شِيبت : اختلطت ، أذْفَر : ذكي الرائحة .
(٣) ديوان الشريف الرضي ، ج ٢ ، ص ١٤٥. العقائل : الكريمات من النساء.
(٤) ديوان السري الرفّاء ، ص ١١٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أبروقٌ تلألأت أم ثغـــــورُ ولياليٍ دجت لنا أم شعـــورُ
طالعاتٌ من السجوفِ علـــــى الركبِ بدورٌ أبرزتْهنّ الخدورُ
مُطمِعاتٌ في وصلهـــــــنّ ودونَ الوصلِ إن رمته دماءٌ تمورُ (١)

وكذلك الشاعر أبو محمد الخازن فانه ليعجب لذلك البرق الذي يلمـــع ويشع من فمها لكن ما يحيره أنه لا يسمع صوتا للرعد الذي يصحب البرق :

وشفيتُ حَرّ الوجدِ مـــــن بردِ سلى الاكبادَ بَـــرْدا
عجباً أشيمٌ لثغرهـــــا برقاً ولست أحسُّ رعـــــدا (٢)

والقاضي الجرجاني يرى فم حبيبته حديقة مزركشة بما زهى من الورد وقد تخللته حبات البرد البيضاء فسقت بنداها العذب البارد تلك الورود الجميلة :

باللّهِ فضّ العقيق عن بَـــرَد يروي أقاحيه من مُدامِ فمـــهْ
وامسح غوالي العِذار عن قمـــرٍ نَقّط بالوردِ خدّ ملتثمِـــهْ (٣)

ومن المعنى الثاني نرى مهيار يرى في فم حبيبته خلال ما يصدر عنه من كلام احدى الوسائل التي تلهيه عما يصيب قلبه من جراح في سبيل حبها وهو يقنع نفسه ويحاول ارضاءها بحلاوة كلام المحب عساها تكون عوضا عن آلامه وعن سوء ما يلاقي في هذا الحب ، بل انه ليجدها نعمةً من نعم المحبوب عليه :

نعمْ : من جميلةَ احدى النِعَـــم وان ضنّ قلبٌ فقد جادَ فـــمْ
نعالجُ في الحبّ مرّ الكـــلام ونقنعُ منه بحلو الكَلِـــمْ (٤)

وفي أسنان الحبيبة نرى الشعراء في هذا العصر قد استعانوا - مثلما استعان سابقوهم بمظاهر الطبيعة يستمدون منها صورا لأسنان محبوباتهم ، فهي امّا أقاح أو بَرَد أو درّ.

---

(١) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٣ ، ص ١٢٩ . تمور : تتحرك وتضطرب بشدة وبسرعة .
(٢) المصدر السابق ،ص ٢٣٢ .
(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٠ .
(٤) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٣ ، ص ٣٣٧

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كذلك فان لنعومتها وعذوبة مائها وبرودته على قلب المحب نصيباً وافراً من هذه الصورة .

فعند الشريف الرضي تظهر أسنان المحبوبة على شكل ورد الأقاح الأبيض الصغير المفلّج وقد غمس في ريق المحبوبة العذب البارد ، وكل هذه الورود الرطبة الندية يحملها قوام كالقضيب النحيف :

مانعٌ لا يجودُ بالنَيْل ، ممنو ... ع برزٌ من القنا وحفيفِ
من أقاحٍ غُمسنَ في البارد العذ ... ب طويلا ومن قضيبٍ قضيفِ
موردٌ ينقع الغليلَ ، ويبرد ... ا صفاءً على طروقِ الرشيفِ(١)

وفي موضع آخر تظهر عنده على شكل حبات بَرَد تسري رطوبتها وعذوبتها وبرودتها الى قلب كل من ينظر اليها قبل أن يمسها :

يُلَجْلِجْنَ قضبانَ البَشام عشيةً ... على ثَغَبٍ من ريقِهِنّ معينِ
ترى بَرَدا يعدي الى القلب بردُه ... فينقع من قبلِ المذاقِ بحينِ(٢)

وهو يعجب لبريق أسنان المحبوبة ولمعانها حتى ليراها درّاً يبرق وقد فاقت الطبيعة بما وهبها الله من عذوبة وحلاوة في فمها حيث أن در الطبيعة مسكنه مياه البحر المالحة أمّا درّها فمسكنه فمها العذب الصافي :

جلونَ لنا لآلىءَ واضحاتٍ ... أضأنَ بها الذوائبَ والقرونا
عهدنا الدرَّ مسكنُه أُجاجٌ ... فكيف تبدّلَ الثغبَ المعينا(٣)

والشاعر الخالع كذلك يرى سمطين من اللؤلؤ الأبيض المشرق يتلألآن في فمها عندما تبتسم .

تبسمت فظننا أنّ مَبْسِمَها ... فيه من اللؤلؤ المجلوّ سمطانِ(٤)

---

(١) ديوان الشريف الرضي ، ج ٢ ،ص ٢٨ . القضيف : دقيق العظم قليل اللحم .
(٢) المصدر السابق ، ص ٤٨٥ . يُلَجْلِجْن : يُدِرْن ويُردِدن : البَشام : شجر طيب الريح يستاك به . الثَغَب : الذائب .
(٣) المصدر السابق ، ص ٥٤٧ . أُجاج : شديد الملوحة .
(٤) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٣ ، ص ١٢٨ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وأما عن ماء الأسنان فان مهيار الديلمي ينظر الى حبيبته فيرى أسنانها الناعمة وقد خالطها ريقها العذب الطيب فيأخذه هذا المنظر ويعجب له :

فيريني تلك الثنايا الطريـــرا ت وتلك المراشفَ السلسالة (١)

وكذلك ريق المحبوبة ظهر في شعرهم صافياً عذبا طيبا " رائحةً وطعمـا"، ينقع الغُلّة لو نيل ، بارد شحيح محرّم ، وقد أفردوا أبياتا كثيرة للحديـــث عنه مع أنهم متعطشون له محرومون منه ، وعندما يتعطشون لريق المحبوبـــة فان جميع ما في الدنيا من غدران بصفوها وعذوبتها لا تساوي ريق المحبوبـــة عذوبةً ونقعاً لغلّة الشوق :

ملكتْ على بانات جوٍّ أمرَهـــا فلها الامارةُ ما استقامتْ وانثنتْ
سنحتْ لنا دونَ الغديرِ فما سقى صفوُ الغديرِ وعذبُه من أعطشتْ (٢)

وقد تردد ذكر ريق المحبوبة كثيرا في شعر مهيار ولعل الحياة الاجتماعية التي عاشها الناس في تلك الفترة كان لها أثر في هذا فهو يستطيع أحيانـــا ارتشاف ريقها ولو خلسة اذ أنها جذبته برائحته الفواحة الطيبة كالمســـك أو الخمرة .

خالستُ قبلتَه الوشـــاةَ كما ادّعمتُ الحرفَ دمجـــا
ففتحتُ عن غرّ تمـــجٍّ المسكَ والصهباءَ مجّـــا
لو لم تكن مخلوقـــةً للرشف لم يُخلقنَ فُلْجـــا (٣)

هذه الخمرة تطيب طعما لمن يمارس شربها مع يقينه بتحريمها عليه :

سلافةُ ريقه بسلٍّ حـــرام وورودةُ خده مما يبيـــحُ
أُسارقُه مسارقةً ودون الخِـ لاط به الأسنةُ والصفيـــحُ (٤)

ولأنه يبدو أحيانا محروما منها فهو يستعطف الحبيبة كي ترحمه مـــن بكائه وشرب دموعه وتبدله بهما رشفةً ولو قليلة من فيها :

قَسَمَ الحبِّ فما أنصفنـــي جورٌ مانفل لي وافترضـــا
ما على ساقي دمعي مغدقـا في رضاب لو سقاه مبرضـــا (٥)

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٣ ، ص ١٦١ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٥ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٨٠ الفَلَج : بعدٌ ما بين الأسنان الأمامية . الحرف: الحافة والطرف .
(٤) المصدر السابق ، ص ٢١٨.
(٥) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٣ ، مغدق : مكثر . الرضاب : الريـــق . المبرض : المقل

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويتمنى لو جادت عليه بما يروي غلته ويطفىء ظمأه حين يتعطش لرشفة من شنبها العذب البارد :

أفيروى عندكم ذو غلة ... عدم الظَّلَمَ فما يشربُ بَرْدا ؟
رُدَّ لي يوما على " كاظمة ... إن قضى اللهُ لأمرٍ فات ردّا (١)

وقد يكتفي الشاعر بأن ينظر وجه الحبيبة فيرى شنبها زينة لفمها مثلما يزيّن خفرها وحياؤها خديها بلون الورد الجميل :

شفاه قربا وقد أشفى على العطبِ ... خيالُ ناشئةٍ حياهُ من كثبِ
ألم يتحفه بالوردِ من خفرٍ ... في وجنتيه وبالمهباءِ من شَنَبِ (٢)

وقد يكتفي بالنظر الى محبوبته وهي تدير في فمها عودا من شجر طيب تستاك به خلال ريقها العذب البارد السلسال الذي يروي الظمأ قبل مذاقه :

يُلَجْلِجْنَ قضبانَ البَشَام عشيةً ... على ثَغَبٍ من ريقهنّ معينِ
ترى بَرَدا يُعدى الى القلب برده ... فينقع من قبل المذاق بحينِ (٣)

ويرى أيضا أن حلاوة هذا الريق وعذوبته قادرةٌ على تحلية الصبر المر وقادرة على تطييبه :

وأنهلني في القَعْبِ فضلَ غَبوقه ... خليطان : ريقٌ باردٌ وضريبُ
ولو نفضتْ تلك الشنيات بردَها ... على الصبر الممرورِ كاد يطيبُ (٤)

وقد حظي وجه الحبيبة بتصوير كثير في شعر هذا العصر حيث اجتلى الشعراء طلعة البدر يقرنونها بوجوه حبيباتهم ، والبدر من الظواهر الطبيعية المتميزة في حياتهم والتي تعارفوا على أنّه نموذج للحسن والجمال يتخذون منه صورة لوجوه الحسان .

وقد ظهر وجه المرأة الحبيبة في هذا الشعر جميلا متميزا : حُسنا وكمالا وخفرا ووقارا ونعومة واشتراقا ونضرة ونعيما .

فقد رأى مهيار الحسن في وجه حبيبته كاملا وعلى أحسن ما تحب وترغب وكأنما خُيرت في خلق وجهها فاختارت أجمل ما خلق الله .

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ، ج ١ ، ص ٣٣٣ .
(٢) ديوان السري الرفّاء ، ص ٣٨ .
(٣) ديوان الشريف الرضي ، ج ٢ ، ص ٤٨٥ .
(٤) المصدر السابق، ص ١٧٩ . النَهْل : اول الشرب . القَعْب : القدح الضخم الغليظ الجافي . الغَبُوق : الشرب بالعشيّ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وكأنما وَلِيَتْ خطائطَ وجهِهـا يدُها فجاءت في الكمالِ كما اشتهتْ

وينظر كل من تاج الدولة بن عضد الدولة ومهيار وجه الحبيبة فيريان البدر في طلعته جميلا مشرقاً في رأس قوام كالغصن وقد أحيط بألوان الزهر الزاهية المختلفة ٠:

سلامٌ على طيفٍ ألمَّ فسلّما وأبدى شعاع الشمس لما تكلما
بدا فبدا من وجهه البدرُ طالعا لدى الروضِ يستعلي قضيباً منعّما (١)

ويتكرر المعنى نفسه - كما أسلفت - عند مهيار فهو لا ينظر البدر الاّ وتذكر وجه حبيبته الجميل ، كما أنه لا ينظر الغصن الاّ وتذكر قوامها الناعم :

أجتلي البدرَ فلا أنساكِ وجهاً وأرى الغصنَ فلا أسلاكِ قدّا (٢)

ولكم أشقاه هذا الوجه الجميل الناعم وهو واحد من الوجوه الحجازية الجميلة التي تيّمته وأتعبته والتي يسير متنقلا منها واليها :

لعلَّ الركبَ أن خَلَصوا نجيّا يرون الحزمَ أن يقفوا المطيّا
فان على المشارفِ من "رسيس" هوىً يستنظر السير الوجيّا
نواعمُ من وجوهٍ بين جمعٍ الى البطحاءِ رحت بها شقيّا (٣)

ويكمل حسن هذا الوجه عند السريّ اذا نفت صاحبته البرقع عنه فيبدو كما لو أنه بستان منير بألوان الزهر المشرق قد حباه الله مطرا عميما فرح له هذا الزهر وانتشى به فبدا في أجمل صورة :

نفتِ البراقعَ عن محاسنِ روضةٍ ريضتْ بمحتفَلِ الحيا أنوارُها
مصقولةٌ بسنا الصباحِ جباهُها مصبوغةٌ بدجى الظلامِ طرارُها (٤)

ويشتد تعلّقه بهذا الوجه الجميل المشرق حيث يبدو اشراقه اكثر اذا حفّت به شعور الحبيبة السوداء الفاحمة :

تعنُّ لنا في مشرقاتِ وجوهها اذا هي عَنَتْ مظلماتِ فروعها (٥)

---

(١) ديوان مهيار ، حـ١ ، ص ١٧٥ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٣٣.
(٣) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٩٣ ، الوجيّا : السريع .
(٤) ديوان السريّ الرفّاء ، ص ١١٢
(٥) المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أما الرضي فانه يرى صاحبته ظبية شاردةً تشرئبّ بعنقها الجميل لتستشرف الصيادين بوجه يشع نضارة ونعيما ورونقا ويبرز جمال هذا الوجه الصافي لحظة اماطة البرقع عنه :

عطونَ بأعناق الظباء ، وأشرفتْ وجوهٌ عليها نضرةٌ ونعيمُ
أمطن سجوفاً عن خدود نقيةٍ صفا بشر منها ورق أديمُ(١)

ويرى ابن سكرة الهاشميّ أنّ ألوان الجمال المختلفة قد اجتمعت في وجه حبيبته كما لم تجتمع في وجه انسانة أخرى فخدودها ورود مزهرة وصدغاها يفوحان بأخلاط الطيب وريقها خمرة وأسنانها برد أبيض :

في وجهِ انسانةٍ كلفتُ بها أربعةٌ ما اجتمعنَ في أحدْ
الخدُّ وردٌ ، والصدغُ عالبةٌ والريقُ خمرٌ والثغرُ من بَرَدْ(٢)

ويتمنى الوزير المهلبي لو أراه الله وجه حبيبته وجاد عليه بمرآه كل صباح لأنه مدعاة للتفاؤل والاستبشار بالخير ، زيادة على جماله ، فهو لا يملك الا أن يمتع عينيه به وبمرآه الحسن وطلعته البهية لو نظر اليه :

أراني اللهُ وجهَك كلَّ يومٍ صباحا للتيمّن والسرور
وأمتّعُ ناظري بصحيفتيه لأقرأ الحسنَ من تلك السطورِ(٣)

وعن وضاءة هذا الوجه واشراقه نجد شعراء هذا العصر قد تكلموا كثيرا وافردوا شعرا تناولوا فيه ضياء الحبيبة واشراقها وقابلوا ذلك بضياء الشمس ونور البدر وضوء السراج أو المصباح .

فالمرأة الحبيبة عند مهيار لها من الضياء ما مكّنها من التحكم بضياء الشمس والازراء به ، تأخذ منه ما تشاء وتدع ما تشاء حتى تجمّع لها ما شاءت من ضروب الجمال :

أخذت وأعطت من ضياء الشمس ما احـ تكمتْ فجمّعت الجمال ووفّرتْ
ملكت على بانات " جو" أمرها فلها الامارة ما استقامت وانثنتْ(٤)

---

(١) ديوان الشريف الرضي ، ج ١ ، ص ٣٣٢ . عطون : تتطاولن .
(٢) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٣ ، ص ٧ . عالية : ظاهر واضح .
(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .
(٤) ديوان مهيار الديلمي ، ج ١ ، ص ١٧٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهو يراها الشمس عينها قد أنارت الركب الذي تسير فيه فيبدي عجبه اذ المعلوم عن الشمس أنها لا تُنال لكنه يبصرها الآن بين ركب الفتيات تبعث فيه الضياء والاشراق :

أشمسَ الركبِ يوم أنرتِ فيه ... أ ليسَ الشمسُ كانت لا تنالُ؟(١)

لذا فهو يتساءل هل هذا اللمعان الذي يخطف بصري هو لمعة برق أم أنه نور الحبيبة انبثق مصباحا مضيئا ؟! وهي في هودجها الذي يسابق الشمس حاملا الفتيات البيض وقد امتدّ ضياء الحبيبة حتى غطى الهوادج جميعها فبدا كأنه الشمس ساعة الأصيل :

أبارقُ ما تشيمُ عينيَ ... أم المصابيحُ في الحمولِ ؟
تسابقُ الشمسَ جنبَ "سلعٍ" ... حتى سبقنَ الدّجى بميلِ
أهدى استتارُ الشموسِ فيها ... لغبطِها صبغةَ الأصيلِ(٢)

أما ابن العميد فانه يعجب لهذه الشمس التي ليس فيها ما عرف عن الشمس من التحريق وشدة الحر ، بل ان فيها من الظلة والطمأنينة ما يجعل حبيبها يرتاح اليها ويطلب ظلها الظليل لتسكن نفسه اليه :

ظلت تظللني من الشمس ... نفسٌ أعزُّ علي من نفسي
فأقول واعجباً ومن عَجَبٍ ... شمسٌ تظللني من الشمسِ(٣)

ورأى الشعراء في اشراق هذا الوجه سراجا منيرا ، فها هو مهيار يقف أمام حبيبته وقد أزالت الحجاب الأسود عن وجهها فبدا له هذا الوجه سراجا منيرا بضياء يبدد الظلمة :

لما أيسَ من الظلا ... مِ رفعنَ لي فنظرنَ سرُجا(٤)

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ، ج٣ ، ص ١ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٩٨ .
(٣) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٣ ، ص ١٧٨ .
(٤) ديوان مهيار الديلمي ، ج ١ ، ص ١٨٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هذا الضياء الذي يشع من وجهها يبقى منيرا لا يُطفأ بل انه ليزري بضوء السراج وضوء البدر اللذين لا يُريان الا مساء :

ويُضحي ويمسي ضوءُ وجهِك بيننا سراجاً وضوءُ البدرِ يُمسي ولا يضحي(١)

بل إن ضياءها واشراقها يزريان بنور القمر الذي يجب أن يختفي عندما تظهر الحبيبة فالجمال والنور لأقمار الخدور وليس لأقمار السماء :

اذا مررتَ بالقباب من " قبا " مرفوعةً وقد هوت شمسُ الأُصُلْ
فقلْ لأقمارِ السماءِ: اختمري فحلبةُ الحسنِ لأقمارِ الكِلَلْ(٢)

أما السريّ فانه يرى نور حبيبته يزري بنور البدر حتى وهي مستترة ببرقعها فعليه أن يخجل من الظهور أمامها :

ومن وراءِ السجوفِ بدرُ دجى يُخجِلُ بدرَ الدُّجى اذا طَلَعا(٣)

وأما عن لون وجه الحبيبة فقد أحب الشعراء بياضه وسمرته ، لكن ليس في كل مواضعه ، فمهيار يرى تارة أن بياض الحبيبة قد امتلك الحسن كله حين تكون السمرة في شفتيها فقط هي ملاك الحسن وسبب الشفاء :

يا قرّبَ اللهُ يوم تُقصى الدُّمى الـ بيضُ طباً " بمكة " أُدُما
أو سُلّم الحسنُ للبياضِ لمّا عُدّ شفاءً بين الشفاهِ لمى(٤)

وتارة أخرى نراه يعود للاعتراف بأن الحبيبة بوجهها الاسمر قد فاقت البدر حلاوة وجمالا وأزرت بضيائه وضوئه حتى تمنى البدر لو حال لونه الى لونها:

وسمراءُ ودَّ البدرُ لو حال لونُه الى لونِها في صبغةِ الأوجهِ السمرِ(٥)

أما الرضي فقد أحب السمرة في وجه الحبيبة التي رآها غزالة متميزة بين السرب سمراء كحيلة العينين فاترة الطرف مسترخية الأجفان :

---

(١) ديوان مهيار الديلمي،ج١ ،ص ٢٠٠ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٠ . اختمري : ضعي الخمار .
(٣) ديوان السري الرفّاء ، ص ١٦١ .
(٤) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٣ ، ص ٢٤٢ .
(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٦ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وفي ذلك السربِ الذي تريانِـــه أحمُّ غضيض الناظرين كحيـــلُ(١)

ويحتل جيد المرأة الحبيبة جزءا غير قليل من أجزاء الصورة الماديـــة وقد برزت صورته حسنا أبيض مشرقا ناعما شفافا جميلا طيب الرائحة عزيـــزا لا يذلل.

فهو عند الشريف الرضي جيد له من جمال الشكل وحسنه ما يجعله يبـــارز عنق الظبية بل ويفوقه ، والظبية هي صورة الطبيعة التي اتخذها الشعراء مثـــالا يقارنون به الجمال الانساني الأنثوي خاصة في صورة العنق أو الجيد ، فالفتيـــات ظباء مستشرفات بأعناق طويلة ووجوه ناعمة نضرة :

عطونَ بأعناقِ الظباء ، وأشرفتْ وجوهٌ عليها نضرةٌ ونعيـــمُ
أمطنَ سجوفاً عن خدودٍ نقيـــــةٍ صفا بشرٌ منها ورقَّ أديـــمُ(٢)

وهي كذلك تقارن بالظبية لمراوغتها ومما طلتها للقانصين القاصرين عـــن الوصول اليها مع أنها الطيّبة الريق ، الطويلة العنق :

وفي ذلكِ السربِ الذي تريانِـــه أحمُّ غضيض الناظرين كحيـــلُ
شهيّ اللّمى عاطٍ الى الركبِ جيده خَتُولٌ لأيدي القانصين مَطـــولُ(٣)

وجمال جيدها وحسنه خلق وهبة من مبدع الكون ومبدع الطبيعة لا بفعـــلٍ وزخرفةٍ وتزيينٍ بيد صاحبته مثلما أن سواد عينيها هو كحلهما لا ما تضعه هـــي من الكحل :

من كلِ ريمٍ هوى الحاظ مقلتـــه يمسين للعذرِ أنصارا على العُـذُلِ
حُلّيّةٌ جيده لا ما يقلّـــــده وكحله ما بعينيه من الكُحْـــلِ(٤)

ولهذا الجيد من البياض والاشراق ما جعله يفوق لمعان اللآلىء مثلمـــا تفوق أسنانها ببياضها نظام العقد ولمعانه وهي بهذا قادرة على أسر قلـــب حبيبها مع أنها الضعيفة وهو الرجل القوي :

مرابعٌ يشكو بهنّ الجـــراح أسودُ الشَرى من ظباءِ الرمـــالِ
مضاحُكهنّ عقودُ العقـــودِ وأجيادُهن لآلى اللآلـــــي(٥)

---

(١) ديوان الشريف الرضي ، ج ٢ ، ص ٢٢١ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٣٢ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٢١ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١٤٢ .
(٥) المصدر السابق ، ص ١٤٥ . الشَرى : موضع تأوي اليه الأسد وهو بناحية الفرات

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومع هذا فجيدها مصون من أن يُرى وهو محاط دوما بما يحجبه ويمنعه ويحول دون الأيدي من أن تمسه والعيون من أن تنظر اليه وكذلك شعرها ، فقد صانته من المس والنظر :

فواللهِ ما أدري الغداةَ رمَيْنَنا ... عن النبعِ أم عن أعينٍ وجفونِ
جلونَ للحداقِ النُّجْلَ وهي سقامُنا ... ووارينَ أجياداً وسودَ قرونِ(١)

وكذلك هي عند مهيار ظبية لها من جمال الجيد وحسنه ما يجعله يبرز ويزداد كلما أطلت على صاحبها من علٍ تبحث عن ولديها ، وقد ملك الحزن عليها أقطار نفسها وكاد أن يذهب بعقلها فكانت تتلفت حيرى ، بهذه الحركة وهذه الصورة يبرز جمال عنقها وعينيها في أحسن صورة وأبهاها :

وبومَ الكثيبِ استشرفتْ لي ظبيةٌ ... مولَّهةً قد ضاع بالقاعِ خِشفاها
يدلّه خوفَ الشكلِ حبةَ قلبِها ... فيزدادُ حسنا مقلتاها وليتاها(٢)

وجيد حبيبته هو الطيب نفسه ، وهو المسك نفسه وهو هو الكافور وعندما يحيطه بعقد من العنبر يكتمل طيبه وعطره :

ما كان سهماً غار بل ظبيٌ سنحْ ... ان لم يكن قتلَ الفؤادَ فقد جرحْ
في جيدِهِ الكافورُ سبحةُ عنبرٍ ... ما كان أغفلني وليس عن السُّبَحْ(٣)

ولهذا الجيد من البياض والنعومة والشفافية ما يبز بها عقدها الشفاف بل ان بريقه ليذهب بلمعان الحليّ وبريقها ويفوقها نصوعا :

تناصَعَ عقدُها الشفافَ عنقٌ ... لها وقصاءُ تنتهب الحُلِيّا
وعاب العاذلون بها جنوني ... أهانَ اللهُ أعقلَ عاذليّا(٤)

أما السري الرفّاء فانه يرى أن جمال جيدِها وحسنه يدعوانها لمداراته واخفائه بكفيها عن الأعين المتشوفة المشوقة ، فيكون بذلك لها من جمال الحركة ما يدفع صاحبها الى مزيد من الهيام بها :

تصانعُ عن أجيادِها بأكفِها ... فيَحْسُنُ عند المستهامِ صنيعُها
فلا طيبَ الا أن يفوحَ نسيمُها ... ولا فجرَ الا أن يلوحَ صديعُها(٥)

---

(١) ديوان الشريف الرضي ، ج ٢ ، ص ٤٨٥ .
(٢) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٤ ، ص ١٨٣ . الوَلَه : ذهاب العقل لفقد الحبيب . الخِشْف : ولد الظبي ، الدَّلَهُ والدَّلْهُ : ذهاب الفؤاد من همّ أو نحوه . اللِّبيت : صفحة العنق .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٦ .
(٤) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٩٤ . الوقصاء : العنق .
(٥) ديوان السري الرفّاء ، ص ١٦٤ . الصديع : اللحم الخفيف .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وأمّا صدر الحبيبة فقد ظهر في اطار عناية شعراء هذا العصر ببياضه ونعومته وطيبه وتزيينه وصونه عن أن يطال .

وبياضه عند الشريف الرضي يبرز مع بياض الجبين في سياق اظهار ضديهما وهو شدة سواد العينين مع اتساعهما ، عندها تكتمل في نظره صورة الحبيبة الجميلة :

ولولا العيونُ النجلُ ما قادنا الهوى لكل لبانٍ واضحٍ وجبينِ(١)

ومع ما وهبها اللهُ من بياضٍ ورقة ونعومة وجمال فلا يفوتها أن تزينه بالدّر النظيم الذي يضيف جمالا آخر الى جمال صدرها الذي يظهر في أروع منظر له عندما تلبس الشفوف الرقيقة .

أمطنَ سجوفاً عن خدودٍ نقيةٍ صفا بشرٌ منها ورقّ أديمُ
شفوفٌ على أجسادهن رقيقةٌ ودرٌّ على لَبّاتهن نظيمُ(٢)

والشاعر الحمدوني يرى أن نعومة صدر حبيبته جاء من تنعمها ودلالها ويراه مصدرا ومعينا للعطر والطيب وكأنه روضة يتنسم طيب أنفاس أزاهيرها عندما يمر بها الوسمي فتندى وتبتل فتكون في أحسن صورة لها من نعومة وطيب ورقة :

ومترفٍ التربِ مجّاجٍ الندى عطرٍ مفوّفٍ النَوْرِ موسومِ الثرى خَضِلِ
قد شامَ جدوله فيها مهندةٌ فاهتزّ مثل اهتزاز الخائف الوجلِ
اذا نسيمُ الصّبا باحت سرائرُه أصغى اليهنّ سمعَ الغصن بالمَيَلِ(٣)

ويرى السري الرفّاء أن صاحبته ـ مع ما تتمتع به من جمال وزينة ـ تحرص على أن تصون نفسها وتحافظ على هذا الجمال كي يبقى عزيزا منيعا ، بل ان مس ملابسها محرم على الناس في أي موضع من مواضع جسمها :

وعلتْ ثمارُ صدورها أجسادَها فحرمن مسّ مجاسدٍ وربـاط
يا دانِ اسقِها الهوى ، وأوَدُّلو حلّت عليها المزنُ كلَّ ربـاطِ(٤)

---

(١) ديوان الشريف الرضي ، ج ٢ ، ص ٤٨٥ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٣٢ .
(٣) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٣ ، ص ١٢٤.
(٤) ديوان السري الرفّاء ، ص ١٥٨ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وكذلك أبرز الشعراء في هذا العصر خاصرة الحبيبة كجزء متمم لأجزاء الصورة المادية للمرأة ، ولقد تميزت المرأة عند الشعراء بخاصرتها النحيفة التي تقرنها بالغزالة ، فالشريف الرضي يذكرها في معرض فقده للحبيبة ومروره على ديارها بعد أن هجرتها وأصبحت أطلالا لا يعمرها انسان،يذكر الحبيبة التي تشبه الغزالة بجسمها الجميل ذي الأجزاء المتناسقة ، وخصرها النحيل مع سيقانها الممتلئة التي تحليها الخلاخيل ، فيراها من أجمل خلق الله في الكون :

لمن الديارُ طلولُها وقصُ ... ما للقطينِ بعقرِها شخصُ
ولقد تحلّ بها مربّبةٌ ... ظمأى الوشاحِ وللبُري غصّ (١)

أما السري فقد أصبح نشوان بخمرة حبها عندما تثنت امامه - كأنها سكرى بقدها المياس وخصرها النحيف ، بل انه ليصيبه الألم والجوى من هذا الجسم الذي يشبه جسم الغزالة السمراء التي تشراب بعنقها لتستشرف الأعالي :

وصلتْ بنا سكرَ الصبابة وانثنت ... سكرى القدودِ نحائفُ الاوساطِ
ولقد تسلّفني الجوى وترينه ... بسوالفِ الرشأِ الأحمِ العاطي (٢)

وأمّا الردف والعطف فلم يبدعهما شعراء هذا العصر دون أن يعرجوا عليهما ويصوروهما في قصائدهم ، فظهرت الأرداف ممتلئة والأعطاف ضامرة ، فهي تظهر عند مهيار في معرض تشبيهه لحبيبته بالغزال في ضمور جانبيها واكتناز ردفيها وامتلائهما وبهذه العدة الجمالية مع سهام عيونها القاتلة تؤلمه وهو يطلب منها وصلا ولو كان ضنينا لكنها خالية الذهن من كل ذلك :

وكالظبياتِ أعطافاً عطاشا ... اذا ضُمت وأردافاً رُويّا
ينافلنَ القلوبَ بصائباتٍ ... يُرقن وان قتلت بها الرميا
أطورُ بهن أستجدي ضنينا ... وأستعدي على شجوى خليا (٣)

---

(١) ديوان الشريف الرضي ، ج ٢ ، ص ٥٧٠ . الوُقْص : الناقصة . المربّبة : المنعّمة . البُري : الحليّ التي تلبس في السواعد .
(٢) ديوان السري الرفّاء ص ٣٦ .
(٣) ديوان مهيار الديلمي ،ج ٤ ، ص ١٩٣ . الرّدف : العَجُز . العِطف : الجانب . أطورُ : اقرب منهن .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويشاركه هذه الصورة الشاعر احمد بن المغلس الذي تطلع عليه صاحبته من بين السجوف كالبدر ، مكتنزة الردف ضامرة الخصر ، وهذا من تمام التناسق بين أعضاء جسمها ، وهو أيضا مما يزيد تعطشه لنوال وصلها الذي يصعب عليه ، ويرى دماءً تجري وتحول دونه ودون الوصول الى صاحبته :

طالعاتٌ من السجوفِ على الركبِ بدورٌ أبرزتهنّ الخدورُ
مشقلاتٌ أردافهنّ ولكن مرهفاتٌ من فوقهنّ الخصورُ
مطمعاتٌ في وصلهن ودون الوصلِ ان رمتَه دماءٌ تمورُ(١)

وابن نباتة السعدي يمنّي نفسه بنيل وصال هذه الفتاة التي تأخذه بردفيها القويين المفتولين ويلوذ بهما كي يحفظا جانبيها النحيفين المتثنيين كالأغصان الماثلة ، ويطلب من صاحبة هذا الجسم المتناسق الجميل أن تجود عليه ولو بموعد كاذب :

ما ضرَّ من ضنَّ بميعادِه لو جادَ أو علَّلَ بالباطلِ
أعيدُ مجدولَ نقا ردفِه بجذبِ عِطفيْ غصنِه المائلِ(٢)

ولم يكن حظ ساق الحبيبة وساعدها منسيا من هذه الصورة ، فقد اهتم الشعراء بهما من خلال ابرازهما مكتنزين مزينين .

فالشريف الرضي ينظر أرجل الفتيات وسواعدهنّ ، فيراها تجول بخلاخيل وأساور ذهبية وقد اكتنز لحمها مما جعل هذه الخلاخيل وتلك الأساور تمتلىء وتغصّ به وهي اذ تتمايل وتتثنى ليعجبه تثنيها ويذكّره بصورة تمايل أغصان الأراك وقد لاعبها نسيم المساء العليل :

يُجلنَ خلاخيلَ النُضارِ ، وملؤها بواديُّ غَيْلٍ بينهن عميمُ
تأطّر أغصانِ الأراكِ أمالها وقد رقَّ جلبابُ الظلام نسيمُ(٣)

ونظر جسم حبيبته فرآه متناسقا بخصر نحيف وساقين مكتنزتين وقد غصت خلاخيلها بلحمها الريان :

لمن الديار طلولها وُقُمص ما للقطين بعقرها شخصُ
ولقد تحل بها مربّبة ظمأى الوشاحِ وللبُري غصٌّ(٤)

---

(١) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٣ ، ص ١٢٩ .
(٢) ديوان ابن نباتة السعدي ، تحقيق عبد الأمير الطائي . (دار الحرية ، بغداد ١٩٧٧) ج ١ ، ص ٤٦٧ .
(٣) ديوان الشريف الرضي ، ج ٢ ، ص ٣٣٢ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٧٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أما ابن نباتة السعدي فانه يرى أن محاسن حبيبته قد كملت بما وهبها الله من خلق بديع لساقها وساعدها ، فليس هناك من حاجة بها للبس الخلخال والسوار ولذا فهو يغار عليها حتى من نظره اليها لاكتمال حسنها وجمالها :

وكنا قبلُ نسألُ أن نراها ... عليها من نواظرنا نغارُ
وقد كَمُلتْ محاسنُها فماذا ... عسى الخَلخالُ يصنَع والسوارُ؟(١)

ولم ينسَ الشعراء في هذا العصر كفّ الحبيبة وأصابعها فقد برز جمالها عند السري من خلال صورتها مخضّبة بالحنّاء ، وبهذا الكف الخضيب تزين هذه المرأة خدّها الناعم بألوان الزينة وتُنمنمُه بما يحلو من الوشي لتكمل صورتها الجميلة بقوام كالغصن الرطيب وعيون ساحرة كعيون الظبية :

يريك قوامَها الغصنُ الرطيبُ ... ولحظَ جفونها الرشأُ الربيبُ
غداةَ بدا لها خدّ أسيلٌ ... ينمنم وشيَه كفٌّ خضيبُ(٢)

وقد عُني الرضي أيضا بكفيها الناعمتين اللتين يدميهما اللمس ، ذكر ذلك وهو في معرض حديثه عن طيبها وعطرها الدائمين اللذين يتصاعد دخانهما من ثوبها عاليا فتبدو صفحة وجهها من خلاله كشمس طالعة وسط الغيوم :

ومعتادةٍ للطيب ليست تُغبّه ... منعمةُ الأطراف تدمى من اللمس
اذا ما دخانُ النَد من ثوبها علا ... على وجهها أبصرتَ غيماً على شمسِ(٣)

ولقد لفتت هذه المرأة نظر مهيار الديلمي بأصابعها اللينة وتابعها هو متفحصا بدقق النظر فيها ، فكان بنانها الرخص سببا في ملازمته لها وهي صاحبة هذا الجمال المشرق المضيء التي امتنعت على من يحبها فتابعها هو بنظره مدققا في أصابعها اللينة الناعمة وجسمها الغض الطري الذي تهزه كالغصن الناعم محتميا بردفها الممتلىء :

ندمان سافرة الجمال اذا احتمت ... عينا تنقبت البنان الرخّصا
ربا اذا هزّتْ لشغلٍ غصنَها ... أمر الكثيبُ وراءها أن تنكُصا(٤)

---

(١) ديوان ابن نباتة السعدي ، ج ١ ، ص ٢٣٩ .
(٢) ديوان السري الرفّاء ، ص ٢٦. الرشأ : ولد الظبية اذا تحرك ومشى .
(٣) ديوان الشريف الرضي ، ج ١ ، ص ٥٦٥ .
(٤) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٢ ، ص ١٤٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ونظر شعراء هذا العصر في جسوم الحبيبات وقوامهن ، فأعجب مهيار ضمور بطنها ورقة خاصرتها (هيفها) وأعجبه فنجها وهي تتثنى كالرمح او كالنصل :

رمحٌ ونصلٌ لا كما سموهما هيفاً وفُنْجا(١)

ومع هيفها يحب الشاعر الخالع في جسمها قدّها الذي يشبه البان لدقته ولطفه فتبدو الحبيبة وهي تتثنى في مشيتها كأنها كسلانة متمايلة ، لكن هذا الكسل يوقد شعلة الحب في نفس الشاعر فتبعث جياشةً متوقدة :

هيفاءُ مرهفةُ الأعطافِ إن خطرتْ أهدت نشاطَ الهوى من خطوِ كسلانِ
أفي غلائلِها غصنٌ من البانِ يهتزُّ في نعمةٍ أم قدُّ انسانِ(٢)

وقد حظي قوام الحبيبة وقدها باعجاب كبير ، ولفت أنظار الشعراء اليه كثيرا ، ولعل قوامها هو الشيء الذي يستطيع الشاعر أن يستكمل النظر اليه بسرعة لذلك أكثر من ذكره والحديث عنه فشبهه بما يقع تحت بصره من صور تنم عن الدقة واللطف والجمال والاستقامة والنحافة والميد والطول ، ، وأكثر المظاهر الطبيعية بروزا أمام نواظرهم الغصون والقضب والمها وكذلك الرماح والسيوف والقنا .

فالشريف الرضي يعجبه من قوام حبيبته نحافته وخفة لحمه وضموره وهذا ما يدفعه لتشبيهها بالبقرة الوحشية النافرة التي افتقدها وقد خلت الديار منها ومن رفيقاتها اللواتي كنّ كسرب المها وهو يسّرح نظره في واحدة من هذا السرب قد سرقت قلبه وعقله :

هل دارُنا بالرملِ غيرُ نزيعةٍ أم حيُّنا بالجزعِ غيرُ خلوفِ
فلقد عهدتُ بها كنافرةِ المها من كلّ ممشوقِ القوامِ قضيفِ
سربٌ إذا استوقفتُ في ظبياتِه عيني رحتُ على جوىً موقوفِ(٣)

ومهيار يراه رمحا يطعن فيولم ، بل هو الذي يعلّم الرماح الطعن ، وهي تجمع مع هذا القوام عيونا جميلة رموشها كالسيوف أو هي التي علمت السيوف الضرب :

لواحظا علمت الضربَ الظبا على قوام علم الطعنَ الأسلْ
يا من رأى "بحاجر" مجاليا من حيث ما استقبلتهافهي قبَلْ(٤)

(١) ديوان مهيار الديلمي ، ج ١ ، ص ١٨٠ .
(٢) الثعالبي ، يتيمة الدهر ،ج ٣ ، ص ١٢٨، الغلائل : البطائن .
(٣) ديوان الشريف الرضي ،ج ٢ ، ص ١٢ .
(٤) ديوان مهيار الديلمي ،ج ٣ ، ص ١١٠ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

كما يرى مهيار ان استقامة هذا القوام واعتداله يجعلانه يزري بالقنا ، بل ويعلمها الاعتدال ، ويزيد قوامها جمالا ان صاحبته فرعاء يحليها شعر كثيف طويل مغفور بكبر وتيه ، ينتهيان بها الى قبيلتها العربية " سليم " .

وكالظبيات أعطافاً عطاشا ... اذا ضُمّتْ وأردافا رُوِيّا
وشمّاءُ الغدائرُ من " سُليم " ... يعلّم عدلُ قامتِها الغُنِيّا (١)

ولذا فهو يعشق كل غصن مستقيم اكراما لقوامها ويقبّل كل حافة كئاس اكراما لرقة شفتيها الى غير ذلك من مظاهر جميلة تذكره بصورة تلك الحبيبة :

اذا استوحشتْ عيني أنستُ بأن أرى ... نظائرَ تصبيني اليها وأشباها
فاعتنقُ الغصنَ القويمَ لقدّها ... وألثمُ ثغرَ الكاسِ أحسبُه فاها (٢)

بل ان قوامها ليزري باستقامة القضيب الرطيب وتجعله يخجل اذا ما تثنت او انعطفت فإنها تفوقه جمالا يذهب بكل جماله ولذا فقد ملكت امارة الاستقامة والتثني :

ملكتْ على بانات " جو " أمرَها ... فلها الامارةُ ما استقامتْ وانثنَتْ
فاذا ارادتْ بالقضيبِ مساءةً ... وتنقمتْ جرماً عليه تأوّدتْ (٣)

وكذلك هو عند السري غصن يحمل كل جميل وغريب من الثمر وهذا ما يجعل حمله معجبا لأنه صورة عن قوامها الجميل وكل ما يتصل به من جسمها :

أغصان بانٍ أغربتْ في حملها ... فغرائبُ الورد الجنيّ ثمارُها
طالتْ ليالي الحبّ بعد فراقِها ... وأحبُّهن الى المحبِ قصارُها (٤)

والى جانب الجميل الغريب في هذا الغصن فانه يحمل أيضا الرقة والنعومة في جسم كجسم الغزال وفي عيون وجيد كعيون الغزال وجيده :

قام يريد الوداعَ كالغصنِ البر ... يّان يثني قوامَه غيدُه
ومستعيرُ النُضارِ من رشأ ... لم يُخْطِهِ لحظُه ولا جيدُه (٥)

وهو عند ابن نباتة السعدي غصن كيفما تحرك مثلما أنّ وجهها بدر منير سواء أخفته أم أظهرته :

كالغصنِ إن مالتْ وان هي لم تملْ ... والبدرِ ان سَفَرَتْ وان لم تسفرِ (٦)

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ،ج ٤ ،ص ١٩٤. الشمّاء: التي تشمخ رفعة وعلوا
(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٣ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٥.
(٤) ديوان السري الرفّاء ، ص ١١٣ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٨١ .
(٦) ديوان ابن نباتة السعدي ، ج ١ ، ص ٥١٧ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وقوامها في نظر الوزير المهلبيّ غصن يزري بجمال كل الأغصان التي تحسدها اذا ما تثنت في تيهٍ وكِبر وهي بهذا تؤلمه وتجني عليه ويطلب من الله ان يحميه من عذاب حبها :

مرتْ ، فلم تثنِ طرفَها تيهاً يحسدُها الغصنُ في تثنيها
تلك «تجنّي» التي جنت بهما أعاذني الله من تجنّيها (١)

وهذا ما يجعل أبا الفرج الأصفهاني يذكر دوما صورة الغصن الرطيب عندما تقبل عليه بقد متمايل متبختر وبحركة توقد جذوة الغرام في نفسه ، وبوجه يحكي بدر السماء العالي :

فما أنسَ لا أنسى اقبالَها تميسُ بغصنٍ سَقَتْه الدّيَمْ
وقد بدرتْ مثلَ بدرِ الدُّجى سما في السماءِ علواً وتمْ (٢)

وجمال هذا القوام واعتداله هو الذي يعطي العذر لأبي اسحق الصابي في حبها وعشقها كي يقلع الناس عن لومه في هذا الحب مع أن لومهم يعني بالنسبة له مزيدا من اغرائه في حبها ، وكذلك يفعل شعرها الجميل المحيط بجانبي وجهها فهو ايضا من عناصر الجمال التي تغريه في حبها :

أيها اللائمُ المضيقُ صدري لا تلمني فكثرةُ اللوم تُغري
قد أقام القوامُ حجةَ عشقي وأبانَ العِذارُ في الحبّ عذري (٣)

وكذلك مر الشاعر في هذا العصر بطول جسمها كعنصر متمم لجمالها فاهتم به اهتمامه بغيره من معالم جسد الحبيبة ، فهي طويلة ان قامت لحاجة من حاجاتها نراها مسرعة بقوام كالغصن وردف ممتلىء مكتنز :

فرعاءُ ان نهضتْ لحاجتِها عَجِلَ القضيبُ وأبطأَ الدَّعَصُ (٤)

ونظر الشعراء كذلك في مشيتها ، فاهتموا بمشية المرأة الحبيبة وأحبوا فيها البطء والتمهل والتمايل وذلك انسجاما مع قدها الذي يميس كالغصن الرطيب ، فمهيار الديلمي يقارن معجبا ما بين خطاها البطيئة على التراب وطعنات لحاظها المسرعة المذهلة التي تصل لبّه وتخترق حشاه وفي سيرها تتضوع طيبا كأنما قطعة المسك الخالص فتفتق وفاح طيبها :

---

(١) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١١ .
(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ .
(٤) ديوان الشريف الرضي ، ج ١ ، ص ٥٧٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

خَطَتْ في الثرى خطوَ البطيءِ وقاسمتْ لحاظاً لها في القلبِ مشيُ سريعِ
كأنّ مطيّبا قال للعترةِ افتفي يقول لها: جُرّي الذيولَ وضوعي(١)

وأما محمد بن أحمد الحمدوني فانه يحب خطاها المتمايلة وهي تسير ببطء كأنها نشوى ثملة بفعل دلّها وتيهها ، وهذا يتناسب وينسجم مع جسمها النحيف الأهيف الذي يسير ليّنا طريا متهاديا ويشبه في سيره سير الخائف المرتجف جرّاء مشاهدته سيوف عينيها القاتلتين :

وفي الظعائنِ مهضومُ الحشا غَنِجٌ يخطو بأعطافِ نشوانِ الخطا ثمل
قد شامَ جدوله فيها مهندة فاهتزّ مثل اهتزازِ الخائفِ الوجلِ(٢)

وقد تحدث الشعراء أيضا عن نعومتها وليونها أي غيدها ، وهو ما خُصت به المرأة ، فليونها ونعومتها من أحب الصفات الأنثوية فيها التي جذبت الرجل اليها فهذا الشريف الرضيّ يرى المرأة الغيداء صنواً للشمس وأختا للغزال الذي يرنو بعينيه فيستل سيوفا وسهاما ويرمي بها قلب محبه :

وظبيٍّ " بأطوار الجمار" ، اذا غدا رمى كبدا مقروحة ورماها
وغيداءُ لم تصحب سوى الشمس أختها ولا جاورتْ الا الغزالَ أخاها(٣)

وهو يرى نفسه قنصا أسيرا واقعا في حب هذه المرأة الغيداء مع أنه الصياد الماهر الذي اعتاد قنص الظباء وصيدها ، لكنه يرى هذه الغزالة على مقربة منه دون أن يستطيع الامساك بها أو لمس جسمها الطري :

وأمّا وذيّاكَ الغُزيّل انه عرضَ الزلالَ وحال دونَ ورودي
أغدو الى طرد الظباء وانثني وأنا الطريدةُ للظباءِ الغيد
حتّامَ تعتلقُ البطالةُ مقودي ويعودني لهوى الظعائنِ عيدي(٤)

وهذه المرأة الغيداء مماطلة في حبها تستطيع بحيلها في الهوى الافلات من حبيبها ، لذا فان حقوقه عندها ضائعة بدلّها عليه ، والذي منحها هذا الدلال هو غيدها فمنعت حبيبها الوصل وأخلفت وعوده ونقضت عهوده بل وتولت عنه وهو يراها أمامه تبتعد رويدا رويدا ومع ذلك فهو لا يتوانى عن تصوير جمالها الذي يذكره بروض زاه كساه المطر فبدت ألوانه الجميلة المتتابعة بنظام شديد

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٢ ، ص ١٩٨ . العترة : القطعة من المسك الخالص .
(٢) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٣ ، ص ١٢٤ . مهضوم : لطيف ودقيق . مهندة : مطبوعة في بلاد الهند .
(٣) ديوان الشريف الرضي ، ج ٢ ، ص ٥٦٢ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٨٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كمصباحٍ بنير دروب السالكين :

رفعوا القبابَ ، وبينهن لبانةٌ ... لم تقضِها عِدةُ الغزالِ الأغيدِ
وغدوا غدوَّ الروضِ ألبسهُ الحيا ... نسجين بين مسرَّدٍ ومعقَّدِ
وأهلةٌ بتنا نفل بضوئها ... ولقد ترانا بالأهلة نهتدي(١)

ومهيار يرى صاحبته تفيض نعومة وسط حشد الفتيات الناعمات اللواتي يحطن بها ويدرن حولها كيفما اتجهت وهن يدعين لها بأن تبقى هي هي محط الانظار وموضع الاعجاب وهذا يدلنا على مقدار ما تتفوق به عليهن من نعومة ولين :

طافَ في غيدٍ تكنَّفنَ به ... كيفما دارَ جنوبَ الدارِ دُرْنا
يتحفَّفنَ به يعطينَه ... دعوةَ الإعظام من هنا وهَنّا(٢)

وكذلك السري الرفّاء يرى صاحبته تفيض نعومة عندما يميل غصنها أمامه وتزداد صورة جمالها جمالا عندما تبتسم فتبدو أسنانها البيضاء اللامعة كالاقحوان أو كحبات البرد ، وعندما ترنو اليه بطرف خالت ذابل تريه صورة غزالة ضعيفة انتعبت صيادا قويا ماهرا:

أأقحواناً أرته أم بردا ... غيداءُ يهتزُّ عطفُها غيَدا
رنتْ إليه بطرفٍ خاذلٍ ... ضعيفةِ الطرف تُضعف الجَلِدا(٣)

وأما ابن نباتة السعدي فان ما يؤلمه من حبيبته أنها تبدي مخالفة واضحة ما بين لين جسمها ونعومته الجذابة وقساوة قلبها وصلابته المؤلمة ، فهي بهيفها وطيب عودها تستطيع التحكم في كثير من الأمور :

وذا هَيَفٍ من يابسِ الصخرِ قلبُه ... وان كانَ من لينٍ يَحِل ويعقدُ(٤)

وتحدث شعراء هذا العصر عن عطر المرأة وطيبها ، وأطالوا في حديثهم عن طيب جسمها الذي يضفي على الطبيعة من عطره ، وقد قرنوا عطرها برواتح الطبيعة اللطيفة الطيبة التي تفوح من الجنان وورودها فضائها ، وقرنوه كذلك بالنَّد والمسك الخالصين فضائهما طيبا . حتى أن جنان الارض وبساتينها قد فاحت بروائحها الطيبة من أثر مرور الحبيبة بها . حيث أن أكمام ثوبها قد نفحت من عرق جسدها طيبا غلب طيب الورود وعطرها :

---

(١) ديوان الشريف الرضي ،ج ٢ ، ص ٣٤٩ . اللُّبانة : الحاجة من غير فاقة ، المسرَّد : المخروز المعقَّد : الثوب فيه علامات وخطوط عند العقد .
(٢) ديوان مهيار الديلمي ،ج ٤ ، ص ١٦٩.
(٣) ديوان السري الرفّاء ، ص ٨٢ .
(٤) ديوان ابن نباتة السعدي ، ج ١ ، ص ٥٤٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أرجت جنانُ " السفح " فيه بنافضٍ ... ردنيه عن عَرفِ الجنانِ اذا نَفَحْ
عرقَ المجاسد فاض ماءُ شبابه ... والوردُ أطيبُ منه ريحاً ما رشحْ(١)

ومثلما يتنسم مهيار عطر جسدها ، فان السري الرفّاء يتنسم طيب أنفاسها وعطر وجناتها ، فطيب فمها مسك خالص وصحن وجنتها عنبر مميز وسط شمس وجهها المشرقة المضيئة :

ونظامُ ثغرٍ ما تهلّلَ وشيهُ ... الا بكى خجلاً نظامُ الجوهرِ
يهدي اليكَ نسيمَه فكأنّما ... شِيبتْ جوانبُه بمسكٍ أذفرِ
شمسٌ يهبُّ على القلوبِ اذا بَدَتْ ... عن صحنِ وجنتِها نسيمُ العنبرِ(٢)

وحيثما اختلط الأمر على مهيار الديلمي وظلّ عن مكان حبيبته فان رائحتها العطرة الفواحة وشمها ومسكها التي يتضوع البيت بها تشي بمكانها وتكفل للحبيب أن يهتدي الى حبيبته :

اذا كتمَتْهُ خالفةٌ وخدرٌ ... وشى بمكانِه المسكُ النضيحُ
ولم أرَ صادقَ العينين قبلي ... أضلَّ فدلّه شمٌّ وريحُ(٣)

أما الرضيّ فانه يقدم لنا صورة من أجمل الصور لعطر الحبيبة وطيبها الذي لا تخلو منه أبدا وكأنها عادة لا تستطيع اخلافها ، حتى اذا تصاعد دخان النّد من ملابسها وعلا صفحة وجهها المشرقة المضيئة بدت لنا صورة شمس قد تكاثفت حولها الغيوم :

ومعتادةٍ للطيب ليست تُغبُّه ... منعمةُ الأطرافِ تَدمى من اللمسِ
اذا ما دخانُ النّدِ من ثوبِها علا ... على وجهِها أبصرتَ غيماً على شمسِ(٤)

وأبو القاسم القاشاني يترفع بمحبوبته عن أن تتطيب بعطر من عطور الدنيا فان لجسمها عطرا من أطيب العطور هو كفيل بتعطير ملابسها وكفيل كذلك بأن يغنيها عن أي طيب في الدنيا :

صِينتْ عن العطرِ أن يطيبَها ... الا الذي حملتْ مخانقُها(٥)

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ، ج ١ ، ص ١٨٦.
(٢) ديوان السري الرفّاء ، ص ١٥٠ .
(٣) ديوان مهيار الديلمي ، ج ١ ، ص ٢١٨ . الخالفة : التي تخفي نفسها في البيت. النضيح : الذي يرش الماء أو العطر .
(٤) ديوان الشريف الرضي ، ج ١ ، ص ٥٦٥ .
(٥) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٢ ، ص ٣٣٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والمرأة الحبيبة تتميز عند شعراء هذا العصر بصباها ، لكنهم افترقوا في تحديد مفهوم الصّبا ، ففي الوقت الذي نجد مهيار يعني بالصّبا صغر السن وهو ما يجعلها تتطاول على حبيبها وتعيره بكبر سنه :

يا هوى حسناءَ ! ما شئتَ لها ... من فؤادي ،غيرَ ذل وخَوَرْ
رب يوم باهلتني بالصّبا ... وصِغارٌ عندها حظُّ الكِبَرْ(١)

نجد الشريف الرضيّ يعني بالصّبا نعومة المرأة واشراقة وجهها وجمال جسمها ونشاطها وحيويتها ، صباها استمرار جمالها ، فهي الغزالة التي تتثنى وسط سرب الغزلان ، وما كان هذا السرب ليحيط بها لولا تميزها عنه بجمال الصّبا الذي أخرج الشاعر عن سنته التي كانت تمنعه الذلّ لأي صبوة لكنه عندما رآها وأبصر نعومتها وبياضها كان أول المتعلقين بها وآخر من يمكن أن يسلوها ويتسلى عنها :

وقد كنتُ آبى أن أذلّ لصبوةٍ ... وأن تملكَ البيضُ الحسانُ عقالي
الى أن تراءى السربُ بين غزالةٍ ... ترنّح في ثوب الصّبا ، وغزالِ
فلما التقينا كنتُ اول واجدٍ ... ولما افترقنا كنتُ آخرَ سالي(٢)

وهي أيضا فتاة مدلّلة مترفة منعّمة بفيض منها الصّبا لتنعمها ونعومتها وما زالت تتمتع بقوام ممشوق كالغصن الرطب الذي يلاعبه النسيم :

هل ناشدٌ لي بعقيقِ الحمى ... غزيّلا مرّ على الركب
منعّمٌ يعطفُ منه الصّبا ... لعب الصّبا بالغصنِ الرطبِ(٣)

واهتم الشعراء في هذا العصر بكل ما تضعه المرأة على جسمها من ثياب وزينة ابتداء برأسها وحتى قدميها ، فتحدثوا عن خمارها ووشاحها وثوبها ونطاقها وعقدها وغير ذلك من ألوان اللباس والحلية .

وقد نظر مهيار الى الحبيبة في هودجها فرأى أن لردائها ولخمارها أثرا في اخفاء معالم جسمها الجميل وبالتالي فان هذا اللباس يسهم في اضفاء مزيد من العفة على هذه المرأة :

عفّاتُ ما تحت الحُبى ... والخمرِ الا المقلا
عواصياً على الخنا ... وان أطعنَ الغزلا(٤)

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ، ج ١ ، ص ٣٥٥ . باهلتني : فاخرتني وفاقتني .
(٢) ديوان الشريف الرضي ، ج ٢ ، ص ٢٢٣.
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٦ .
(٤) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٣ ، ص ١٤١ . الحُبى: المنطقة من المنكب الى العنق .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن تمام عفتها وكمالها أن تكون ثيابها طويلة مرسلة إلى الأرض وتتهادى هي بخطوات قصيرة متقاربة ، وهذا الكساء الساتر الذي تلبسه ينبيء عن انسانة عفيفة قريبة الى قلب محبها لكنها تنفر منه ان حاول نيل وصالها:

وبينَ ذوائبِ العُقَداتِ طِبّي ... قصيرُ الخطوِ في المِرط المذالِ
ربيبةُ ان أُريغَ الى حديثٍ ... نُوارٌ ان أُريد الى وصالِ(١)

وينظر الرضيّ أيضا الى نطاقها فيراه يسهم في ابراز جمال هذه المرأة الحبيبة ، فعندما تعقد نطاقها على هذا النوع العجمي من ثيابها أو عندما تنفض قميصها فان غصناً من البان يتحرك داخل هذا القميص :

ولحظة عقد نطاقه ، فكأنّما ... عقد الجمال بقرطقٍ محلولِ
جذلانُ ينفِضُ من مروجِ قميصِه ... أعطافَ غصنِ البانةِ المطلولِ(٢)

ويزين هذه المرأة حياؤها مثلما يزينها خمارها ، فما تكاد تنزع الخمار عن وجهها الا ويخفي حياؤها معالم وجهها الجميل فيمنعها من أن تكون مبذولة لمن شاء ، بل يظل النظر الى وجهها والتمتع بجمال محيّاها طلبة كل محروم :

لم تنكشفْ عنها البراقعُ لوعةً ... الا وألبسها الحياءُ براقعا
كتمتْ سجوفُ الرقم ذائعَ حسنِها ... وأعَدْنَ مكتومَ المصابةِ ذائعا(٣)

ويعجب ابن نباتة بموضع الهيف من جسمها وهي المنطقة الواقعة بين وشاحها ومئزرها الذي تلف به جسمها أي منطقة خاصرتها وهذا يجعلها كالغصن الرطب تسير متهادية بوجه مشرق كالبدر وجسم رخص ناعم :

وضياءُ نارٍ تصطليها طفلةٌ ... هيفاءُ بين وشاحِها والمئزرِ
كالغصن إن مالت وان هي لم تمل ... والبدر ان سفرتْ وان لم تسفرِ(٤)

ويعجب المحسّن ابن القاضي التنوخي من هذا الجمال الكامن وراء الخمار المذهب والذي لا يملك المتعبد الزاهد الا أن ينسى نسكه وعبادته أمامه ، فنور الخمار المذهّب ونور وجهها المشرق يكادان يشتعلان من شدتهما وهذا هو موضع عجبه :

---

(١) ديوان الشريف الرضي ،ج ١ ، ص ١٧٥ . المِرط : ثوب من خزّ أو غيره . المذال : المسترخي .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢٣ . القرطق : الثوب .
(٣) ديوان السري الرفّاء ، ص ١٦٠ .
(٤) ديوان ابن نباتة السعدي ، ج ١ ، ص ٥١٧

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قل للمليحةِ في الخمارِ المذهَبِ أفسدتِ نسكَ أخي التقى المترهّبِ
نورُ الخمارِ ونورُ وجهِكِ تحتَه عجباً لوجهِكِ كيف لم يتلهّبِ(١)

وفي تصوير جميل يرينا عليّ بن جلبات صورة وجه الحبيبة وقد وضعت على رأسها غطاء أزرق وأرسلت شعرها الأسود على جبينها وجانبيّ وجهها فبدا لنا بدرا علته صفحة السماء الزرقاء وقد أحاطت به ظلمة الليل الحالكة :

برزتْ لنا تحتَ القناعِ الأزرقِ ليلاً فعادَ لنا كصبحٍ مشرقِ
الوجهُ بدرٌ والقناعُ سماؤه والشعرُ بينهما كليلٍ مطبقِ(٢)

وكذلك نرى صاحبة أبي الفرج الأصفهاني تزيّن رأسها بقناع أزرق مثلما تزيّن جيدها بحبل مزيّن من الجواهر الملونة وقد علاه وجه منير فبدت لنا صفحة السماء الزرقاء وقد توسطها البدر وأحاطت بها النجوم الملونة المتلألئة المنيرة :

وقد بدرتْ مثل بدرَ الدّجى سما في السماءِ علوّا وتمْ
على رأسِها معجرٌ أزرق وفي جيدِها سبحةٌ من بَرَمْ(٣)

والمرأة عند أبي القاسم القاشاني منعمة تمتلىء أنحاء جسمها بما زان وزهى من الذهب والثياب التي تكاد أن تنطق على جسمها كالأسوار والنطاق والثوب وقد حفت بها لحسنها وجمالها الحسناوات من الفتيات المنعّمات أيضا:

كواعبٌ أخرستْ دمالجَها عنا وقد أنطقتْ مناطقَها
خراعبٌ حفنَها وصائفُها تشي بأبدانِها قراطقُها(٤)

ونظر شعراء هذا العصر في الجمال العام للمرأة دون الدخول في تفصيلات جسمها ، فمهيار الديلمي يراها قد حازت من الجمال كثيرهِ وقليلهِ كبيرهِ وصغيرهِ اذ لم تغادر من عناصر الجمال شيئاً الا امتلكته :

رمتِ الجمالَ فملكتِ عنوةً أعناقَ ما دقّ من الحسنِ وجلّ(٥)

بل وتحكمتْ في الجمال كله حتى استعبدته فكأنها وضعت ختم الرّق والعبودية على عنقه :

---

(١) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٢ ، ص ٣٤٦ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٩٩.
(٣) المصدر السابق ، ص ١١١ . المعجر : ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها. البَرَم : حبل مزين بالجواهر .
(٤) المصدر السابق ج ٢ ، ص ٣٣٣ ، الخراعب : واحدتها خُرْعبة وهي الشابة الحسنة في قوام كأنه الخُرْعوبة وهو القضيب الناعم .
(٥) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٣ ، ص ١١٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

حَكَمتْ في الحسن حتى ختمتْ سمةَ الرِّق على عنقِ الجمالِ (١)

وحازت هذه المرأة من معالم الجمال الشيء الكثير حتى أصبحت دميـــة من الدّمى أضافت للجمال كثيرا من بديع حسنها وبهائها :

رحيبةُ باعِ الحُسنِ طاولتِ الدُّمى فزادت بمعنىً في الجمالِ بديعِ (٢)

حتى أصبحت هذه المرأة مصدرا للجمال تستمد منه الظباء حسنها وجمالها واذا ما أرادت هذه الحبيبة استرداد ما أخذت الظباء منها الفينا الظباء خالية وصفرا من معالم الحسن والجمال :

لمياءُ يلفى الظبي من أوصافِه صفراً اذا ردَّ الذي منها سرقْ (٣)

وقد أخذ مهيار يتمنى دفع روحه وبذل نفسه ثمنا لاحراز رضاها والتمتع بجمالها وهو راض بذلك أشدّ الرّضى حتى يقطع على العواذل والوشاة طريقهم :

جلبَ الجمالَ يريد أنفسَنا بـــه ثمناً فتاجرناه فيه كما اقترحْ
لأشاطرنَّ هواهُ جسمي إن وفـــى ولأبخلنَّ على العواذلِ إن سَمَحْ (٤)

ونرى هذه المرأة جرّاء جمالها التام تتمادى في التّجني على مـــن يحبها ، عندها فقط يذم الشاعر هذا الجمال لما جرّه عليه من آلام :

غريمُك يوم وعدِك ليس يُقضى وعشرة يوم حبك لا تقـــالُ
وجسّرك الجمالُ على التّجنـــي ألا يا قبحَ ما صنعَ الجمالُ (٥)

وقد اقترب ابن نباتة في تصويره لجمالها العام من صور مهيار ومعانيه فهو يرى صاحبته قد تحكّمت فيما تريد من معالم الجمال فاختارت ما حلا لهـــا وأبقت للحسان الأخريات ما فضل عنها فسرقت بجمالها قلب محبها وتحكّمت بـــه وجارت في حكمها عليه وهو لا يملك ازاء فتنتها الاّ أن يذعن راغما ويقبـــل الجور والظلم والتجني :

نالَ من الحسنِ ما تخيّرَهُ ثم أنالَ الحسانَ ما تركَهْ
لو كانَ قلبي معي سلوتُ بـــه لكنّه عند أجورِ المَلَكَـــهْ (٦)

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٣ ، ص ١٣٤ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٩٨ .
(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٤٣ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٦ .
(٥) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١ .
(٦) ديوان ابن نباتة السعدي ، ج ١ ، ص ٥٣٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الثالث

الصورة المعنوية للمرأة

في الشعر البويهي

١ ـ الحبيبة
٢ ـ الأم
٣ ـ الزوجة

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المـــرأة الحبيبـــــة

اما المرأة الحبيبة فقد حظي ذكرُها بقيمة وكمية كبيرتين ،ولا نكاد نغادر شعر أي من شعراء العصر البويهي عامة إلا ونجد أن حديثه عن المرأة قد انسحب على عدد كبير من قصائده ،ولعل هذا لم يأتِ مصادفةً او عبثا ،وإنما جاء ليدل دلالة اكيدة على ان المرأة قد ضربت بجذور وظيفتها في أعماق حياتهم ،

ولقد تجلت عبقرياتهم في غزلهم مثلما تجلت عند كثيرين من الشعـــــراء السابقين ولم لا ؟! فإن الغزل كان وما يزال هو الغرض الشعريّ الذى تتجلى فيـــــه عبقرية الشعراء لانه ينسجم مع طبيعة الفطرة الانسانية اذ هو المعبّر الصادق عـــن العاطفة الإنسانية التي لا يشوبها غرض ولا غاية ،وانما يصدر عن ميول الشاعر وهواه وهـو- كما يقال – اول اغراض الشعر العربيّ التي تغنّي بها الشاعر فذكر الأحبة وتألـــم لهجرهم ووداعهم ،ورحل إليهم تشاركه راحلته عناء مسيره الطويل الى ديار المحبوبة التي ردّد ذكرها كثيرا في ديار مختلفة ،في الحجاز ونجد واليمامة والعراق والشـــام وغيرها .. ،وذهب بعد ذلك الى وصف راحلته او الحيوان الذى يشاهده خلال رحلتـــه الطويلة وصفاً يتميز بجودة شعرية ملحوظة .

كذلك فإننا نجد الشعراء العرب منذ القدم قد اتخذوا من النسيب فاتحـــة لقصائدهم خاصة المدحية منها ،وأصبح هذا الامر تقليداً متّبعا يندر ان يشذّ عنـــه شاعر إلا في الاحوال التي تقتضي خلاف ذلك ،واستمر هذا النهج عند شعرائنا العرب حتى وصل بنا الى شعراء هذه الدراسة في القرنين الرابع والخامس الهجريين فلم يشـذّوا عن القاعدة بل اتبعوا الناموس والطبع الذي وجدوا آباءهم من الشعراء عليه ،مـــع اختلاف الأسباب والدوافع ناهيك عن ان ذكر الاحبة والهوى يوقد الإحساس بالشاعرية لدى الشاعر ويثري معين خياله ويحيي نضرة وجدانه فيلجأ الى معالجة الغزل في مطلع قصيده أيّا كان غرضه حتى تواتيه شاعريته فتشب عاطفته ويثور حنينه ويشحذ خيالـــه ليعرض به شريط ذكرياته الذي تتزاحم فيه صور متعددات فتتزاحم معها المعاني بحلل لفظية جميلة فيجود قوله ويتحفنا بما يلذّ من شعر .

وعند دراستي الصورة المعنوية للمرأة الحبيبة عند شعراء البلاط البويهي وجدتها تتمثل في المعاني التالية :

ان المرأة الحبيبة عندما تفارق حبيبها تحمل معها زينة الحياة وبهجتها وتحرم حبيبها من أن ينعم بحياة جميلة هانئة بقربها ،اذ أنها هي التي تمنح حياته الزينة والبهجة .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولذا نراه يحاول جاهدا ان يبقى قريبا منها ملازما لها حتى ليدفعه ذلك الى الاحساس بأن قلبه يطير مسرعا لاحقا بالحبيبة التي فارقته

فكانت الحبيبة بذلك موضع حرمانه وشكواه ،ونراه يستعين بأسرع وسيلة من وسائل التنقل التي يرى فيها سبيله الى الحبيبة وخلاصه من آلامه وجراحاته :

كأنّ قلبيَ يومَ البينِ طارَ بـه من الرِّفاع نجيبُ الساق عـدّاءُ(١)

بل إن فُراقها يغدو سببا في سلب كل شيء حول الشاعر جماله وبهجته ،فالديار مثلا تفقد رونقها أو تمحي معالمها الحلوة وتغدو خِلوا من الزينة والبهجة :

يا دارُ جاذَبَها الفراقُ جمالَهـا فغدا وراحَ على ظهورِ جِمالـهِ(٢)

ومن القيم المعنوية لهذه المرأة انها تحرم حبيبها الاستمتاع بجمالها فهي في عينيه جميلة مشرقة لكنها تمنعه هذا الجمال وهذا الاشراق في الوقت الذى تواتيه الفُرصة كي ينال حظه من جمالها وحسنها ،فتصبح الحبيبة والحالة هذه حبيبة الفراق الذى يغالب الشاعر فيغلبه ويحول دونه ودون الوصول الى حبيبته :

هويتها والفراقُ يهواهـا فحالَ بيني وبينَ لقياهـا(٣)

وإن احساس الشاعر بألم الفراق ليشتد عندما يستبد به الهوى وياخذه الشوق كل مأخذ فيزداد تعلقه بالحبيبة في الوقت الذى تزداد هي بعداً عنه فيتالم ويعجب لهذه المفارقة التي تلاحقه أنّى حاول لقاء الحبيبة والأنس بقربها :

دنا طربٌ والهوى نـازحٌ فيا بعد ذاك ويا قـربَ ذا(٤)

ونرى الشاعر متألما اشد الالم لهذا الفراق وذاك الابتعاد ،لكن امتلاء نفسه بالامل في حلو الحياة بعد مرها ،وطيب العيش مع الحبيبة بعد قساوة الفراق يجعله يستمرىء ذلك الألم إيمانا منه بأنه الطريق الذى ينتهي به الى لقاء الحبيبة :

---

(١) ديوان الشريف الرضي ،ج١ ،ص ٤٨ .
البيْن : الفراق . الرِّفاع : العالية . النجيب : مفرد نجائب وهي خيار الابل
(٢) ديوان السريّ الرفّاء ،ص ٦٨٢
غدا : ذهب مبكرا .راح : سار في العشي
(٣) المصدر السابق ،ص ٢٧٥ .
(٤) ديوان الشريف الرضي ،ج٢ ،ص ٤١٢ .الطرب : خفة وهزة تثير النفس لفرح او لحزن .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

تنادوْا لتفريقِ الفريقِ فاصبحتْ مدامعُنا تندى لفرقتِهم دما
فراقُ شربنا الماءَ صِرفا بكاسِه فيا طيبه لو كانَ صابا وعلقما (١)

ومن المعاني التي يدهش لها الشاعر قسوة الحبيبة التي ما تنفك تمعن في إيلامه وتجريحه فهي لم تكتفِ بما أصابه من فراقها وبعدها عنه بل تعمل على تكريس الالام في نفسه بهجرٍ مرير يورثه حرقة القلب ونار الوجد ،فيقف متسائلا منكرا عليها تتابع تجريحها له اذ ان جرحا واحدا منها يكفيه ألما ووجدا متجددين :

أجمعتِ هجري والفراقَ معا أو ما اشتفيتِ بواحدٍ مني (٢)

لذا فإنه يجد نفسه غير قادر على تحمل الام رحيلها وبعدها وهجرها فيلجأ لصاحبه يستمد منه العون والقوة على مغالبة هذه الالام وعدم الاستسلام لها وذلك بتتبع اثر الحبيبة في قومها الراحلين غير سامح للراحة ونعومة العيش أن تثنياه عن عزمه ،بل يعمد قاصدا الى مواصلة ليله بنهاره من اجل نيل طلبته ،اذ ان اخا الحاجات لا يطول له نوم ولا يهدأ له بال حتى ينال بغيته ومراده :

قمْ غيرَ معتذرٍ ولا متثاقلِ فاقصصْ معي أثرَ الخليطِ الراحلِ
واسمحْ بأحلى نومتيك لساهرٍ شفعتْ اواخرُ ليلهِ بأوائلِ (٣)

ومنها أيضا ان هذه الحبيبة تمثل بعثا اخر من بواعث الام الشاعر حين نجدها تخالف صاحبها وتناكفه وتقطعه وهو يقبل عليها صافي الود نابذاً القطيعة والصدود ناشداً القرب والوصل يجمله على كفّه كما لو تقرب عابد الى معبوده بقربان أثير نفيس رمزاً للوصل والحب فيقابله هذا الوثن وهو صاد مشيح بوجهه يلقى بالقربان بعيدا ،فيصدم هذا الساجد العابد بقسوة القرب مثلما صدم بألم البعد :

يعجَبُ من عُجْبي به في الهوى واعجبي منه ومن عَجَبي (٤)
اقربُ بالودِّ ويناى به ويلي على بعدِك من قربِ

---

(١) ديوان السري الرفّاء ،ج٢ ،ص ٦٨٢ ، الصِّرف : الخالص لم يشب بغيره .
الصاب : الكثير المنسكب .
(٢) ديوان الشريف الرضي ،ج٢ ،ص ٤٧٩ .
(٣) ديوان مهيار الديلمي ،ج٣ ،ص ١٨٣ .
(٤) ديوان الشريف الرضي ،ج١ ،ص ١٧٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهذا يزيده حرقةً وشوقاً إلى قربها فهو لا ينظرها الا مبتعدة نائية ،وشوقه هو الذى ينزع به دوما لمحاولة لقائها لكنه يتألم لانه لا يملك الا عيون الشوق والحرقة ينظرها بها فيراها بعيدة بعيدة وهو يريدها قريبة أثيرة ،فيقع تحت سيطرة هذه الاحوال المضطربة التي تتضارب وتتصارع في نفسه فحبها صاف كدر وهي قريبة بعيدة فمن له بنجدته وتخليصه مما ألمّ به ؟ :

يراها بعين الشوق قلبي على النوى ... فيحظى ولكن من لعيني برؤياها
فلله ما أصفى وأكدرَ حبها ... وأبعدها مني الغداةَ وادناها (١)

وقد تلوح له هذه الحبيبة بما يشير إلى أنها نادمة على هذا الفراق وتتمنى عدم مجيء يومه وهذا ما يعطيه بارقةً من أمل تدفعه لمتابعة ركبها في أماكن تنقلها المختلفة طالباً لقاءها وقربها :

هل رِيعَ قلبكَ للخليطِ المنجدِ ... " بلوى البراق " تزايلوا عن موعدي
قالوا : غدا يومَ النوى فتسلّفوا ... عضاً لأطراف البنان على غدِ (٢)

ولقد طال به هذا الحال المتقلّب وامتد ،قرب وبعد ،شوق وصدود ،اقبال وإدبار حتى وجد نفسه يسير في طريق اليأس وعدم رجاء النفع من هذه العلاقة مع شدة شوقه وغرامه وهيامه ومقابلتها له بالصدود والإعراض ،فليس هناك من نفع يرجى من استمرار تقابل هذه الامور المتضادة :

كم ذميلٍ إليكمُ ووجيفٍ ... وصدودٍ عنالكم وصدوفِ
وغرامٍ بكم لو ان غراماً ... جرّ نفعا للواجد المشغوفِ (٣)

ومن صور الحبيبة المعنوية في هذا الشعر أنها ذات اثر غريب في نفس صاحبها فهي تؤلمه بوصلها كما تؤلمه بصدودها ،فالوصل منها يورثه السقام حيث يزداد شوقه اتّقادا ويتفجر هيامه وولوعه بها بشكل أشد واكبر ،عندها يصبح دواؤه داءه وهذا ما يجعل قلبه في حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار فيذكره ذلك بفزع يوم القيامه وأهوالها قبل وقوعها :

أشكو الى اللّهِ قلباً لاقرارَ لـه ... قامتْ قيامتُه والناسُ أحياءُ
إن نالَ منكم وصالاً زادَه سَقَماً ... كانّ كلَّ دواءٍ عنـده داءُ (٤)

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ،ج٤ ،ص ١٨٣ ،النّوى : البُعد .
(٢) ديوان الشريف الرضي ،ج١ ،ص ٣٤٩ ،ريع : أُفزع ،الخليط : الجماعة التي تتعدد أصنافها ،المنجد : الذى يدخل نجداً ، لوى البراق : اسم مكان ،تسلّفوا : تقدموا او استبقوا ، البنان : الاصبع .
(٣) المصدر السابق ،ج٢ ،ص ٢٧ ،الذميل : السير السريع اللّين ،الوجيف : الخوف والاضطراب ،المشغوف : المُولَع بحبه ،الصدوف : الإعراض .
(٤) المصدر السابق ،ج١ ،ص ٤٨ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهو عندما يلقاها فانما يلقاها بقلب صافٍ خال من الألم لكن نهاية هذا اللقاء تكون مزيجا من الشوق والحرقة والظمأ للقاء اخر يكون فيه نقعا لغلته فلا يورثه قربها إلا كللا وتعبا ونَصَبا :

أُلقاكِ والقلبُ صافٍ من رجيعِ هوى ... وأُنشئ عنك بالاشواقِ نشوانا (١)
ولا تداويت من قرحٍ فرى كبدي ... ولا شفاني راقي الحي سلوانا

وأرى الشريف المرتضي يصر على أن يبقى بقربها مع أن قربها لا يورثه الا السقم والالم :

وإني لأهوى ان أكون بارضكم ... على أنني منها استفدتُ سَقامي (٢)

وسيعمل جاهداً على مصاحبة هذا السقام والتعايش معه على ما فيه من الغدر والعذل لان اضطرابها وتذبذبها في علاقتها معه قد اديا به الى هذا اللون من الأحاسيس التي لا يستقر لها قرار :

سأصحب سقماً يستوي في ظِلالِه ... عواذرُ وجدي عندَه وعواذلي (٣)

ولقد أتعبته هذه الحبيبة وأضنته ،فما بال هذا الحب الذي لا يفيد صاحبه إلا علة وسقاما وما بال هذه الحبيبة التي لاهمّ لها الا إرهاق حبيبها وايلامه ؟!

وفي بعض الحالات لهذه الحبيبة التي اذهلتنا بتعطشها الدائم لعذاب حبيبها نراها ـ وفي احايين قليلة ـ تؤنسه بوصلها وقربها ولا يعود وصلها سببا في تزايد لوعته اتقادا ،وانما تمثل هذه اللحظات القصيرة الهانئة حالة من الاطمئنان بعد طول النفور والصدود :

غدونَ لنا بالوصلِ أُنْسا نواضرا ... وكنَّ من الهجران وحشا خواذلا (٤)
يحرّكنَ اعطافَ العليلِ صبابةً ... اذا حركت اعطافُهن الغلائلا

---

(١) ديوان الشريف الرّضيّ ، جـ٢ ،ص ٤٧٤ ، الرجيع : كل شيء مردود،نشوان : سكران من الحب .

(٢) الباخرزيّ ،دمية القصروعصرة أهل العصر ، تحقيق ودراسة محمد التونجي ، ١٣٩١هـ ١٩٧١م ، جـ١ ،ص ٢٩٩ ، السّقام : المرض والضنى من شدة الحب .

(٣) ديوان ابن نباتة السعديّ جـ١ ،ص ٤٠ ، العواذر : جمع عاذر وهو الذي يجد لصاحبه العذر عن الذنب ، الوجد : الحب ، العواذل : جمع عاذل وهو اللائم .

(٤) ديوان السري الرفّاء ،ص ٢١٥ ، الانس : هن اللائي يسكن اليهن ويزلن الوحشة النواضر : الوجوه فيها رونق وحُسنٌ ونعومه ، الخواذل جمع خاذل وخاذلة : وهو البائن المنقطع الذي يتخلى عن صاحبه .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لكن هذه اللحظات ليست دائمة اذ نجد الحبيبة في كثير من المعاني مصدرَ هم الشاعر وقلقه وسبب المه وشجوه وقد اجتمعت عليه متفقة مع مصائب الدهر لتزيد من بلائه ومحنته وهو يعلم يقينا أن بلاء الانسان في حياته لا يأتيه الا من دهره او من خِله ،فكيف بالاثنين وقد اجتمعا عليه ؟!

انتِ والايامُ ما انكرتــــه وبلاء المرء يومٌ او خليـــلُ(١)

ومن المعاني ايضا ان هذه الحبيبة مماطلة تعده وتخلف وعوده ،ومع ان وعودها كاذبة تعنّيه وتتعبه لكنه يحاول تسلية نفسه بها عن الهم والألم اللذين يراهمـــا هينين عليه لانهما منها ،وكم يهون عليه هذا الحزن الذى يلاقيه منها :

وإنّي والمواعدُ كاذبـــات ليطعمنا خلابُ الواعدينـــا
نُعنّى بالمِطال من الغواني وهان على المواطل ما لقينا(٢)

وهي تعلم حق العلم ان وعدها لصاحبها دين عليها قضاؤه ولكن مع مطالهـــا الشديد فإن كثيراً من ديو ن صاحبها وحواشجه قد ضاعت ،وليس لديه رجاء في أن تمنحه الحبيبة من الوصل ما يفي بهذا الدين ويطفىء ظماه لوصلها :

يماطلُني عنها الخليُّ وقد درى على غدرِه ان العهودَ ديـــونُ(٣)

لكنه - ولولعه الشديد بها - يحاول التماس العذر لها كأنْ يجعل من رحيـــل قومها وبعدهم سببا في عدم وفائها بوعودها واستمرار تعطشه لوصلها :

رفعوا القبابَ وبينهن لبانـةٌ لم تقضِها عدةُ الغزالِ الأُغيدِ(٤)

ولعلوقة الشديد بها نراه راضياً بنفورها بل ويحاول ردّه إلى صورةٍ جميلـة من صور النفور المحبّبة في الطبيعة الجميلة وهي نفور الغزالة الذى تعلمته الحبيبة واتقنت فنه وكذلك سارت في مطالها وليّها العهود على طريقة لي القضيب المائل الذي كسبت تثني عودها من تثنيه :

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ،ج٣ ،ص ١٧٩ .
(٢) ديوان الشريف الرضي ،ج٢ ،ص ٥٤٦ ، الخِلاب : الخديعة برقيق الحديث ، المِطال: التطويل ، الغواني : النساء الغنيّات بحسنهن وجمالهن عن الزينة .
(٣) ديوان مهيار الديلمي ،ج٣،ص ١٥٨ و ١٥٩ ، الخليّ : الذي لا حبيب له .
(٤) ديوان الشريف الرضي ،ج١ ،ص ٣٤٩ ، اللُّبانة : الحاجة من غير فاقه ، الأُغيـد المتمايل المتثنّي في لين ونعومة .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لَقَنَ النِّفارَ من الغزالة واحتذى ليَّ العهودِ من القضيبِ المائلِ(١)

وهي ظالمة لا تنصف حبيبها مع ما تعلَمُه من غليل شوقه وحرقته وأرقه ولذا فهو على يقين من أن امره سينتهي دون أن يعدل فيه :

ومن السفوارب في الخدورِ مسلّطٌ تمضي قضيتُه وليس بعادلِ(٢)

اذ لو كانت في حبه رحيمه به لأحست مثلما يحس من لهيب الجوى وحرقة الشوق ولما كان لها هذا القلب الذى لا يتحرك فيه ساكن ازاء ظلمه الحبيب :

خلّوا عليك مِطال السفر وانطلقوا وأسلفوك سلواً قبلَ أن عشقوا
لو يُنصفوني الهوى ما كان مندَهم بردُ القلوبِ وعندي الشوقُ والأَرَقُ(٣)

لكن ما يذهله ويدهشه ان قلبه لا يمكن ان يظلمها او يبادلها النفور والصدّ بل إنه يجني على صاحبه بوقوفه الى جانب الحبيبة الظالمة والذهاب معها أي مذهب حتى لو كان فيه حيف بحق صاحبه فهو لايمكن ان يطاوع صاحبه فيبادل الحبيبة ظلما بظلم :

يا ظالمي والقلبُ ناصرُه يجني علي له كما يجني
سمحتْ بكم نفسي على مضضٍ ولَرُبَّ سامحةٍ على ضِنِّ(٤)

وهي في علاقتها مع صاحبها متأرجحة بين الايجاب والسلب ،وهذا التذبذب يرهقه ويؤدى به الى عدم انضباط الحال ،ولذا فهو يعجب كثيرا من تناقض حاليها وتأرجحها بين الصفاء والكدرة والقرب والبعد :

فللّهِ ما أصفى وأكدرَ حبّها وأبعدَها مني الغداةَ وأدناها(٥)

ففي الوقت الذى تريه من التبريح ما يقتله ومن الجفاء ما يجعله يظن بأنها عدوة له ،نراها في مرة اخرى تعود اليه لتؤكد له حبها وتزيل ما وقر في نفسه من ظن خاطىء بها ،وهذا ما يوقعه في الخلط والاضطراب وعدم ثبات الحال :

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ،ج٢ ،ص ١٨٣ ، النِّفار : الإعراض والصدّ ، اللّي : المِطال
(٢) المصدر السابق ،ج٣ ،ص ١٨٣ ، الغوارب : المرأة السمراء في مسكنها ، المسلّط : المسيطر
(٣) ديوان الشريف الرضي ،ج٢ ،ص ٩٧
(٤) ديوان الشريف الرضي ،ج٢ ،ص ٤٧٩ .
(٥) ديوان مهيار الديلمي ،ج٤ ،ص ١٨٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

رماني كالعدوّ يريدُ قتلـــي ... فغالطني وقال أنا الحبيبُ(١)
وأنكرني فعرّفني إليـــــه ... لظى الأنفاسِ والنظرُ المريبُ

ومن صور المفارقات في هذه الحبيبة أن الشاعر يراها تتمتع بجمال انثوى ناعم وفي الوقت نفسه فانها تحتفظ بقلب يابس كالصخر لا يلين ومن قبيل تضادهـــا وتناقضها جمعها بين هذه الامور المتنافرة في آن :

وذا هيفٍ من يابس الصخر قلبه ... وإن كان من لينٍ يَجِلّ ويعقـــدُ(٢)
كلانا يظن الحسنَ بعضَ عيـــوبهِ ... ويعطي النّوى منه القيادَ ويكمَدُ

ومن صورها المعنوية بُعد حالها عن حاله ،فحين نرى تباريح الصبابة لاتعنّيها ولا تؤرّقها ولوم الاخرين لها كثيرا ما يمنعها وصل حبيبها ويدفعها الى هجره فاننا نرى إلحاح الغرام عليه يؤرقه ويعفيه ويرهقه ،واللوم في الحب يغريه بالاغراق فيه وهي بذلك تفتح الباب على مصراعيه لتباريح الهوى كي تقضّ مضجعه وتقلق راحتـــه:

لواعجُ الشوقِ تُخطيهم وتُصميني ... واللّومُ في الحبّ ينهاهم ويُغريني
ولو لقوا بعضَ ما ألقى نعمتُ بهم ... لكنّهم سلموا مما يعنّينـــي(٣)

فتضطره الحبيبة الى الاعتراف باخفاقه في هذا الحب الذى تُمثّل فيه هـــذه المرأة حالةً من السلبية التي تنأى بها عن حبيبها وتجعلها لا تقدّر قيم الوفـــاء والرحمة والعدل وتدفع الحبيب الى الاعتقاد بأن هذه القيم هي السبب في الاخفـــاق والفشل في الحب ،علما بأنها دعائمه وركائزه :

فنصتُ " بجمعٍ " شادناً فرحمتـه ... وأُخفق فنـاصٌ يكون رحيمـــا(٤)
أأغدو مُهينا بالحبائلِ ساعـــةً ... غزالا على قلبي الفُداةَ كريما

وهي بخيلة لا تنقع غُلته ولا تروى ظمأه ولا تصله بما يطفىء تعطشه وشوقـــه اليها ،كما أنها لا تبالي بهيامه وفنائه في حبها ،وهو وعلى مرأى منها يـــذوب شوقا وحـــرقة إلا أنها الحبيبة البخيلة التي تملك الحب والعطف لكنها لاتجود بشيء منهما بل ترضيها عودة حبيبها خائبا غير قادر على أن ينال أقرب الاشيـــاء منه :

---

(١) ديوان الشريف الرضي ،ج٢ ،ص ١٧٨ .
(٢) ديوان ابن نباتة السعدى ،ج١ ،ص ٥٤٢ .
(٣) ديوان الشريف الرضي ،ج٢ ،ص ٤٤٤ ،اللواعج : الحُرَق التي تصيب الفؤاد من الحب ،تُصمينى : تصيبني بشدة ،يعنّيني : يتعبني ويشقيني .
(٤) ديوان الشريف الرضي ،ج٢ ،ص ٢٧٢ ،جَمْع : اسم موضع . الشادن : ولد الظبية .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لم ينقعوا الظمآنَ من غُلّـــةٍ ولم يبالوا طربَ المستهـــام (١)
ونظمأُ والمواردُ معرضـــاتٌ فنرجعُ بالغليل وما سُقينـــا (٢)

ولذا فهو يحس التعطش والحرقة ويسعى دوما لنيل وصلها والتمتع بجمالهـــا ومع أنها قد تكون قريبةً منه أحيانا الا انه لا يرجو لها لقاء ولا يأمل منها نوالا فقد ارادت له هذه الحبيبة الحرمان من جمالها والقتل في حبها وهواها :

معاهدُ من غزلانِ أُنْس تحالفتْ لواحظُها ان لا يداوىٰ صريعُها (٣)
فشمتُ من ثغرِها على ظمـــأ بارقةً لا أُنال سقياهـــا (٤)

وهي امرأة تتلذذ بألم حبيبها مع أنها نفسها مصدر هذا الالم ،فقد يكـــون المورد العذب امامها لكنها لا تحب الارتواء الا من معين دموعه :

الماءُ عندكِ مبذولٌ لشاربـــه وليس يرويك الا مدمعُ الباكي
انتِ السلوّ لقلبي والغرامُ له فما أمرّك في قلبي واحـــلاك(٥)

وفي بعض مواقفها مع شعراء هذه الدراسة نرى الحبيبة تعيب على حبيبهـــا ألمه بل تعيره نحوله وشحوب وجهه ،وما هذا الألم وذاك الشحوب الا بسبب بلائه فـــي حبها ،هذا البلاء الذى غطى معالم وجهه بمسحة من الشحوب والهزال سيكشف يوما عـــن صورة وجه بهي لرجل لو جادت عليه هذه الحبيبة بوصلها ومنحته ما يذهب سقامـــه ويطفىء حرقة نفسه لظهر نضرا خاليا من الشحوب والسقام :

تُعيّرني تلويحَ وجهي وإنمـا غضارتُه مدفونةٌ في شحوبِـــه (٦)

وقد تشتط في هذا الإنكار وتبعد فيه حتى تصل حد التجاهل والتساؤل عن سبب السقام والهم اللذين يبدوان عليه وكأنها ليست السبب في كل ما يحل به من الام الا انها تود التأكيد على الحال المزرية التي آل اليها صاحبها ،وفي سبيل ذلـــك تحاول تكريس أحزانه بأن تذكره على الدوام بالحال الناعمه والجمال المميز اللذين افتقدهما ولم تعد تجد فيه من سبب او صفة تدفعها لقبوله فهو قد كان بـــدرا

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ،ص ٣١٣ ، ينقعوا : يروواء الغلّة : أشد العطش .
(٢) المصدر السابق ،جـ٢ ،ص ٥٤٦ .
(٣) الثعالبي ،يتيمة الدهر ،المجلد الثاني ،جـ٤ من شعر القاضي الجرجاني ،ص١٢
(٤) ديوان السرى الرفاء ،ص ٢٧٥ ،شمتُ : طلبتُ ،
(٥) ديوان الشريف الرضي ،جـ٢ ،ص ١٠٧ .
(٦) ديوان الشريف الرضي ،جـ١ ،ص ١٣٢ ، الغضارة : الخصـــب والخير والطيب

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

واستحال الان هلالا وكان غصنا رطيبا واصبح الآن جافا يابسا ليس فيه ما يغري بالاقبال عليه :

سألتْ " ظبيةُ " ما هذا النحولُ ... اسقامٌ باحَ ام همٌ دخيلُ
أين ذاكَ الظاهرُ المالىءُ للعين ... والمختَرَطُ الرّطبِ الصقيلُ
أهلالاً بعدما اقمرَ لي ... أم قضيباً مشى فيه الذبولُ(١)

وهي تُعمل في نفسه الاحزان عندما تثير فيها هذه الحال التي يمتزج فيها الندم واليأس معا فيداخله إحساس بأنه قد يكون في قلبها شيء من الحب له لولا ما اصابه من شحوب ونحول فتصبح حبيبته والحال هذه مصدر احساسه بالألم والأمل وبالحزن والفرح وبالسلوى والهيام وبالحلاوة والمرارة :

يا ظبيةَ البانِ ترعى في خمائلِه ... ليبهنَك اليومَ ان القلبَ مرعاك
انتِ السلوُّ لقلبي والغرامُ لَه ... فما امرّكِ في قلبي وأحلاكِ(٢)

ومن المعاني التي وفق لها شعراء هذه الدراسة تعبيرهم عن الضنى والشحوب اللذين كانت المحبوبة سببهما وقد اذهبا نضرة الشباب وغضارته ،فتقف الحبيبة موقفها السلبي المعهود مستنكرة متجاهلة دورها في تجريحه وقتله ،بل إنها لتنكره انكاراً مطلقا حين تظهر جهلها بشخصه :

قتلتني وانبرتْ تسألُ عني ... أيها الناسُ لمن هذا القتيلُ؟(٣)

وقد يدعى الاطباء محاولين - عبثا - شفاءه الا انه ينكر قدرتهم ويستبعد معرفتهم ذلك ،فهو على يقين من ان طبه ودواءه بيد الحبيبة وليس للطبيب حول امام هذا الداء ، بل ان الطبيب نفسه يعترف بعجزه حين يوصي براشحة المحبوبة الطيبة وريقها البارد العذب دواءً شافيا ليس بعده من شافٍ لعلة هذا السقيم :

دعوا لي اطباءَ العراق لينظروا ... سَقامي وما يُغني الاطباءُ في الحبِ
اشاروا بريحِ المندلِ اللون والشذا ... وردّ ذماءِ النفس بالباردِ العذبِ
يطيلون جسّ النابضيْن ضلالةً ... ولو علموا جسوا النوابضَ من قلبي(٤)

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ،ج٣ ،ص ١٧٩ . المختَرَط : السيف الصقيل
(٢) ديوان الشريف الرضي ،ج٢ ،ص ١٠٧ .
(٣) ديوان مهيار الديلمي ،ج٣ ،ص ١٧٩ .
(٤) ديوان الشريف الرضي ،ج١ ،ص ٢٠٢ ،الذّماء : بقية الروح في المذبوح .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهذه امنية أمانية تتحقق لو وصلته الحبيبة فوصلها بمثابة اعادة الروح الى جسمه ورد النفس اليه واحياء شبابه الذاوي الذابل وجريان ماء الحياة في عروقه التي ماتت بسبب جفاء الحبيبة ،لكنه الحب وكثير منه ما قتل وهذا هو ما احسه شعراء هذه الدراسة عامة ،فتناقص آجالهم نتيجةً حتمية لوقوعهم في مثل هذا الهوى القاتل بل انهم ليذهبوا ابعد من ذلك حين يرون انفسهم اطيافا زائله في دنيا الهوى القاسية التي لم ترحمهم :

مَن لقتيلِ الحبّ لو ... رُدّ عليه القاتلُ
شُيع بالقطر الرويّ ... ذاك الشبابُ الراحلُ
كلُّ حبيبٍ ابدا ... ايامه قلائلُ
ظِل ،وكم يبقى على ... فودِك ظلٌّ زائلُ؟!(١)

ومن هذه المعاني كذلك انها ان دخلت الرحمة نفسها فرحمت حبيبها من القتل فهي لامحالة ستقوده الى الجنون في هواها ،فأى حبيبة هذه ؟! وأي حبيب هذا الذى لا يجد من حبيبته الا الحرمان والصد والألم والقتل ؟!

وان خرج من هذه فالى لب شارد وعقل ذاهب او اليهما معا :

الا لا أرى مثلي يُجنّ من الهوى ... ولا مثلَ حبّ العامرية قاتلي(٢)

وهذا هو مصدر عجبه ودهشته اذ انه لا يجد مثله في الدنيا حبيبا مقبلا متفانيا مندفعا الى حبيبة متجافية قاسية قاتلة ،فتأخذ الحسرة والندم من نفسه كل مأخذ حين يراها تكابد وتعاني ونراه يبذلها رخيصة في سبيل من أمعنت بها قتلا وتبريحا :

انا ذا الحمّيُ اطعمتُ الهوى ... فهي نفسي فوق أظفاري تسيل(٣)

وهي امرأة لوّامة ،تلوم حبيبها على بكائه مع انها تدفعه اليه بسبب هجرها وصدها وهي تعنّفه بشدة لكنه ازاء رحيلها وبعدها عنه لا يملك الا هذا البكاء الذى يرى في اطالته واستمراره تقريبا له من نحبه ونهايته :

تعنّفني أن اطلت النحيبا ... وأسكب للبين دمعا سكوبا
وأدنى المحبين من نحبه ... محبٌّ بكى يوم بين حبيبا(٤)

---

(١) المصدر السابق ،ج٢ ،ص ١٣٥ .
(٢) ديوان ابن نباته السعدى ،ج١ ،ص ٤٠٠ .
(٣) ديوان مهيار الديلمي ،ج٣ ،ص ١٧٩ ،الحمي : المريض الممنوع مما يضره
(٤) ديوان السرى الرفاء ،ص ٤٨ ،التعنيف : الاخذ بالشدة ،النحيب : الإعلان بالبكاء ،النَحْب : انتهاء الأجل بالموت .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهي تقف وقفة غريبة مستهجنة حين لا يتوقع منها غير الوصل واللقاء لهذا المحب المتفاني ،هذه الوقفة التي رأينا شعراء هذه الدراسة يُخذلون في الحب بسببها ،هي وقفة الحبيبة التي تشد الرحال دونما وداع او كلمة طيبة ساعة الفراق المريرة ، الحبيبة التي تشتط في فراقها وتعنف حبيبها على بكائه الذى هو بسبب منها في وقت يحن اليها الحبيب ويتألم ويحزن لفراقها حزنا يجعل من بكائه اليمرّ مُعلّما للصخر القاسي كيف يحن ويلين :

دعوني فلي إن زُفّت العيسُ وقفةٌ ... أُعلم فيها الصخرَ كيف يلينُ
وخلّوا دموعي أو يقالُ :نعم بكا ... وزفرةُ صدري او يقالُ : حزينُ(١)

ويبلغ الحزن والاسى مبلغه من نفوس هؤلاء الشعراء عندما يعرّجون على صورة الوشاة والرقباء الذين ما انفكوا يحاولون افساد العلاقة والحيلوله دون احياء عهد جميل صاف يزينه الود وتعمه البهجة بين الحبيبين .

ولقد احتل ذكر الوشاة عند شعراء هذه الدراسة قسما غير قليل من صور التعبير في شعرهم ،مثلما كان لشعراء الغزل السابقين ،اذ انهم يمثلون شريحة لها اهميتها في ذلك المجتمع الذى افرز لنا مثل تلك المواقف السلبية لهذه المرأة اضافةً لما تحمله هذه المرأة من طبيعة انثوية تجعلها تقف هذا الموقف السلبي المتردد .

وليس غريبا في هذا الحب الذى اتعب صاحبه أن تبرز صورة الوشاة والرقباء وهم الذين اخذوا على انفسهم تعقّب المحبين وتعكير صفو علاقتهم بمن يحبون ،فهم عند مهيار مصدر همه وأساه والمه وهم الذين ينفثون سم القول في اذنه حسدا منهم على هذا العبق اللطيف من نسائم مودة ومحبة تتماوج في قلبه .

فالواشيات يحاولن تعكير صفو المحبة والمودة بينهما حين ينسبن الى الحبيبة ما يعيب لكن الحبيب وفيٌّ لها ولا يمكن ان يخفع لمساومتهن في هذه العلاقة الصافية اذ انه لو اطاعهن لخرج من خلقه الحميد الى الغدر والخيانة :

لعمر الواشيات " بام عمرو" ... لقد اغرين والتانيب يغري
حسدنَ مودةً فحملنَ إفكا ... وعِبْنَ وعائبُ الحسناءِ يغري
يردن على الوفاء نزوعَ خُلقي ... وماساومتُني شطَطا كغدري(٢)

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ،ج١ ،ص ٢١٧ ،زُفّت : سارت بسرعة ، العيس : الإبل التي يخالط بياضها شقرة .

(٢) ديوان ميهار الديلمي ،ج ٢ ،ص ٦٧ ، الإفك : الكذب والافتراء .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومثله مثل بقية شعراء هذه الدراسة محبون مخلصون متفانون لا يسمحون للوشاة بالتدخل بينهم وبين محبوباتهم لان حبهم شأنهم وحدهم ولا مجال لتدخل طرف ثالث سيما إذا كان عاذلا كاشحا حتى وإن كانت المحبوبة غريبة بعيدة الا ان سهام العذل ستطيش وستخطىء هدفها ولن تطال ولو ذرة من تراب ارضها ،لذا فلن يكونوا قادرين على ان يثنوا قلوب هؤلاء الشعراء عن حب محبوباتهم وعن تمنيهم رؤيتها كل لحظة :

أُلُوّامُهُ في حبِ دارٍ غريبةٍ ... يشق على رجمِ المطامعِ مرماها
دعوُه و"نجدا" انها شأنُ نفسِه ... فلو أن " نجدا" تلعةٌ ما تعدّاها
وهبكُم منعتم أن يراها بعينِه ... وهل تمنعون القلب أن يتمناها (١)

وهم لا يلقون بالا لهؤلاء الوشاة والعذال ولا يعيرونهم سمعا والتفاتا ويدركون حقا ان هؤلاء انما يفعلون ذلك سفها ،وعداوة وبغضاء وحقدا ،وليمت الوشاة غيظا وليرتد كيدهم الى نحورهم ولتكن امالهم في افساد العلاقات بين المحبين سرابا . ويرى هؤلاء المحبون في عدم الاصغاء للوشاة وعدم طاعتهم والانقياد وراءهم إرضاءً ووفاء للحب والحبيبة :

عذلوني وليس يُرضي التصابي ... عاشقٌ ليس يُسخط العذّالا (٢)

وإن رأى هؤلاء الشعراء ان الوشاة يصرون على التدخل بينهم وبين محبوباتهم محاولين افساد العلاقة بينهما فان منهم من يتظاهر بالابتعاد عنها ويصطنع عدم اطالة النظر اليها حتى يهدّىء من ثورة الحقد في نفوس الكاشحين فيمكّن هذا الحب من الاستمرار ويوفر له مناخا هادئا ينمو فيه ويترعرع ،فيبقى بذلك على علاقة الحب صافية نقية خالصة من ثلم يصدر عن نفسٍ حاقدة باغضة :

أُصانعُ لحظي أن يطولَ ذُبالُه ... إليكِ ،وأُنهي الدمعَ أن يترقرقا
مخافةَ واشٍ يثلمُ الحبَّ قولُه ... وهيهاتَ طالَ الحبُّ منّا وأورقا (٣)

لكنهم لا يستطيعون ذلك دوما اذ ان تظاهرهم بالسلو والنسيان لا يستمر طويلا مع طبيعة اخلاقهم وطبائعهم المحبة التي تغلب هذا التصنع وذاك التظاهر بموجة الشوق العارمة المسيطرة على نفوسهم وعواطفهم :

وإن أنا أضمرتُ السلوَّ تراجعت ... من الشوقِ اخلاقٌ يُزلن التخلّقا (٤)

---

(١) المصدر السابق ،جـ٤ ،ص ١٨٣ ، التلعة : ما ارتفع من الارض .
(٢) ديوان السري الرفاء ،ص ١٧
(٣) ديوان الشريف الرضي ،جـ٢ ،ص ٨٠ ،يثلم : يكسر ويخدش .
(٤) ديوان الشريف الرضي ،جـ٢ ،ص ٨٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بل ان منهم من يتلذذ لسماع اقوال الوشاة والعذال لان في ذلك افساحا لمجال يتردد فيه اسم المحبوبة وليس من قبيل اى عامل سلبي في نفي المحب :

قالتْ : سمعتَ العُذْلَ قلتُ لها ... حباً لذكرِكِ اسمعُ العُذْلا (١)
لا تجزعي بهواكِ عن غرضٍ ... غلبَ النّساءُ عليّ واستولى

اما المحبوبة فانها ما تزال تخضع لطبيعتها الانثوية السلبية حين تعير السمع للوشاة والعذال فتساعدهم بذلك على النجاح في افساد العلاقة بينها وبين حبيبها ،فتظلمه وتجور في حقه لكنه حريص على ان يُبقي على العلاقة الودية الحميمة بينهما لانه متيقن من أن اندفاعها لذلك انما هو من سم الوشاية والعذل الذى نفثوه في قلبها وسمعها لكنها بالنسبة اليه هي هي الروح والغصن الطريّ والحياة :

وهل " هيفاءُ " إن غدرتْ وجارتْ ... سوى غصنٍ من الأرواحِ يجري! (٢)

حتى انه يقبل بتلونها وملالها منه لان ذلك عنده لا ينم عن الهجر والغدر وانما هو تقلّب احوال الغانيات بفعل دلّهن على هؤلاء الشعراء العشاق :

وقلنَ : تلوّنتْ لك حين ملّتْ ... وليس على الملالةِ كلُ هجرِ
تقلّبها أصابيعُ الغواني ... على الطعمين من حلوٍ ومرِّ (٣)

وهو دوما يريدها محبة حقة يطمئن الى حبها والى قلبها الذى لا يفسح فيه مجال لتردد اقوال الوشاة واحقادهم حتى اذا ما غاب عنها فانه لن يكون قلقا على حبه :

حبيبُكَ من خلّفتَ بين ضلوعِه ... وسرتَ فؤاداً لا يلينُ لكاشحِ
خليلي ـ والواشون حولي عصابةٌ ... فمن مسرفٍ في لومِهِ ومسامحُ ـ
أُجِلْ في جانبِ الركبِ طرفَك هل ترى ... أسيء بارحاً او طائراً غيرَ مبارحِ؟ (٤)

---

(١) ديوان ابن نباتة السعدى ،ص ٢٠١ ، النّساء : تأخير الدين .
(٢) ديوان مهيار الديلمي ،ج ٢ ،ص ٦٧ .
(٣) المصدر السابق ،ج٢ ،ص ٦٧ .
(٤) المصدر السابق ،ج١ ،ص ١٨٣ ، الكاشح : العدو المبغض .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن المعاني التي زادت من اساه والامه ان الحبيبة لا تحب من حبيبها الا زمن الشباب فاذا تخطاه الى زمن المشيب نراها تصد عنه وتخيفه بصدها الذى يجتمع عليه مع الشيب فتزيد الامه الاماً واحزانه احزانا لانه في شبابه كان يمثل قمة الشباب وروحه ،وقد اقتحم المشيب عليه شبابه فراعه ذلك بصدود الحبيبة وهجرها الذى يلوّح بانتهاء عهد الصّبا بكل ما يحمله من حيوية وبهجة وجمال :

أحينَ فشا الشيبُ في شعره ... وكتمَ اوضاحَه بالخُضابِ
تروعينَ اوقاتَه بالصدودِ ... وترمين أيامه بالسّبابِ
تخطى المشيب الى رأسه ... وقد كان أعلى قباب الشبابِ(١)

بل انها لتشتط في ذلك حين نراها تُصدم لظهور الشيب في شعر رأسه وتبدي خوفها من ذلك فيدفعها هذا الخوف الى ردة فعل معاكسة تبدو في تناسيها وعيبها كل ما كانت تحبه فيه :

وبيضُ راعهنّ بياضُ رأسي ... فكلُّ محببٍ مني معيبُ(٢)

إذن هي بذلك حبيبة متقلبة غادرة يبقى الحبيب عندها اثيراً يمثل الحياة والربيع والبهجة بل يبقى هو وحبه ذلك التمثال الرائع الذى تظاهرت بفدائه يوما ما بل وكانت تبدى له من التذلل ما عدها عابدة له ما دام شابا ،فان تقدمت به السن واضاء فجر الشيب ليل شبابه فهو الحطام المرفوض وبقايا الروض الذى جف واستحال هشيما لاحياة فيه ولا رونق وهذا مايدفعه الى العجب لكنه الغدر غدر الغانية المتقلبة :

أرَتْها الاربعونَ هشيمَ روضٍ ... وقبلَ الاربعين رأتْ ربيعا
ألا فاعجبْ لما صنعَ الغواني ... فقد افسدنَ بالغدرِ الصنيعا
كفرنَ بذلك الصنمِ المفدّى ... وكنّ له سجوداً أو ركوعا(٣)

ولو حاول البحث عن سبب ظهور الشيب في رأسه لوجد ان ما رَمَته به من ظلم ومماطلة وتسويف وجوْر ،وما أوجعت به قلبه من غدر وصد وعدم مبالاة ،وما أصاب نفسه من ألم وهمّ وغم هي كلها سبب ذلك :

وما بكيتُكم لكن ضاعَ فيما بكيتُكم ... سوادُ عِذاري في بياضِ دموعي(٤)

بل إن دلالها وتمنعها مع شدة تمسكه بها كانا أيضا سببا في ظهور شيب راسه فهي تذمه لمشيبه مع أنها السبب فيه فكانت بذلك خصمه وحكمه :

---

(١) ديوان الشريف الرضيّ ،ج١ ،ص ١٢١ ،كتم : ستر وأخفى . الأوضاح : البيضاء المنيرة .
(٢) ديوان مهيار الديلمي ،ج١ ،ص ٦٥ .
(٣) ديوان السرى الرفّاء ،ج٢ ،ص ٣٧٦ ، الهشيم : اليابس المتكسر .
(٤) ديوان مهيار الديلمي ،ج٢ ،ص ١٩٨ ، العِذار : جانب اللحية .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أرابكِ من مشيبي ما أرابـــا ... وما هذا البياضُ عليّ عابـا
يذمُّ البيضُ من جزع مشيبـــي ... ودلَّ البيض اولُ ما أشابـا (١)

ولما وضح له موقفها وتبين انها تحبه لشبابه ،قاده ذلك الى ردة فعـل معاكسه تبلورت في حبه الشيب وفرحه بمقدمه وترحيبه به لأنه يعني له زوال الشباب بغبته وطيشه وحلول الرَشد والهدى ،فأهلا بزائر كريم ينير طريق العقل والنهى بعد زمان طويل من الغي والتصابي والسير في دروب الهوى دون رشد او هدى :

قل لزوْرِ الشيبِ أهلا إنّـــه ... أخذَ الغيَّ واعطاني الرَشَدُ
طارقٌ قوَّمَ عُودي بالنُهـــى ... بعدما استغمز من طولِ الأوَدْ
وَقَرَّ اليوم جموحاً راسـه ... جار ماجار طويلا وقَصَـدْ (٢)

بل انه يذهب أبعد من ذلك حين يرى الحب عبودية خلصه الشيب من ربقها وأعطاه حريته بعد أن كان ذليلا مقيدا بقيودها ،ولذا فان للمشيب عليه يدا لن ينساها وذمة لن يخفرها فهو الذى قد اعتقه بعد زمان طويل من الذل والعبودية ولعل سلوك حبيبته تجاه مشيبه هو الذى قد امده بهذه الروّيا التي تحمل في ثناياها تاريخا من الحزن والألم اللذين ولّدا في نفسه هذا التحدى وهذه المحاولة لتحقيق الذات واثباتها في اطار وواقع جديدين فرضتهما مزاجية الحبيبة وتقلبها ،وقد رضي الحبيب بهذا التحدي وقبل به محاولا اثبات قدرته على مواجهته والتغلب عليه :

دعْ للمشيب ذمـــةً ... إنّ له عندي يـــدا
أُعتقَ من رق الهـــوى ... مذلَّلا مقيَّـــدا (٣)

وبعد معاناة طويلة مع الحبيبة يقف بعض من شعراء هذه الدراسة حائرا مفكرا في امر هذه العلاقة ،فقد يبدو له ويحاول التخلص من هذا الهوى الذى جر عليه المتاعب وخلق له الازمات الحادة . والذى يراه سكرةً قضى فيها زمنا ثم افاق وشرابا وهوى وطربا ولهوا يرى من اباءه ومجده بعده عنها ورفضها :

وكانت سكرةً فصحـــوتُ منهـــا ... وأنجبَ من أُبى ذاك الشرابـا
يميل بي الهوى طَرَبا وأنـــاى ... ويجذبني الصِّبا غزلا فآبـى (٤)

---

(١) ديوان الشريف الرضي ،ج١ ،ص ٩٣ ، الدَلّ : الدلال .
(٢) ديوان الشريف الرضي ،ج١ ،ص ٤٧٩ ، استغمز : اتهم بعيب ، الأَوَد : الاعوجاج، وقر : ثبت بثقل ورزانة ، الجموح : العتوّ عن امر الصاحب ،قصد : استقام
(٣) المصدر السابق ،ج١ ،ص ٣٥٥ .
(٤) المصدر السابق ،ج١ ،ص ٩٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فيتنكب طريق الهوى والغرام محاولا التوجّه الى طريق اخر ،وليس هناك افضل من طريق المجد والعلا الذى يدعو صاحبه الى ركوب الصعب وتخطي الاهوال من اجل الوصول اليه فيبيت الرجل منهم شاعرا ساهرا ولكن ليس من ضنى الحب والهم الهوى بل من اجل تحقيق المجد والرفعة اذ ان " اخا الحاجات من يبيت على وجل "

شُغلتُ بالمجدِ عما يُستلذُّ به ... وقائمُ الليلِ لا يلوي على السمر(١)

ومع هذا فانه ما زال يأمل في ألا يصرفه توجهه لداعي المجد والرفعة عن حبه للانسانة التي يحب ويهوى والتي يجد لها من نفسه مكانةً يصعب ان يحلها غيرها ،فهي توأم نفسه التي لا يستطيع عنها انفصالا او بعدا وليس من ضير في ان يسير حبه لها مع تطلعه نحو الامجاد والمعالي :

وقالوا : لمْ أُطعتَ وكيف أعصي ... أميراً من رعيته القلوبُ(٢)

وما زالوا يأملون أيضا في ان تورق علاقة حب في ربيع حياة خضراء تزينها البهجة وإن جفت اوراقها لحين اذ ان الامل لا يموت وان خبا بل يبقى حيا يضيء ظلمة النفوس مهما طال ليلها واشتد ظلامها،فتداعب مخيلتهم بارقةٌ من أمل تتراقص خلال عتمة الحرمان والالم وغلّة الشوق والحرقة تبشرهم بانبلاج فجر جديد من الحب الاكيد تسكن اليه نفوسهم وتطمئن به قلوبهم فيرون فيه الراحة من النصب والخلاص من الضنى والتعب فتعود حبال الوصل جديدة وليالي الدهر بيضاء سعيدة :

أراجعةٌ تلك الليالي كعهدِها ... الى الوصلِ ام لا يُرتجى لي رجوعُها
بها تسكنُ النفسُ النّفورُ ويغتدي ... بآنس من قلبِ المقيمِ نزيعُها(٣)

ولا يوقد مصباح الامل الا الحنين الدائم لتلك الايام التي كان الشمل فيها مجموعا وحبل الود موصولا ،وهم يتحسرون لفقد الايام في تلك البطاح الجميلة التي تنيرها بهجة الحياة ويتعطشون كي يرووا ظمأهم ويشفوا غلة نفوسهم ويطفأوا حرقة قلوبهم من هبوب تلك الربى الندي الرطب فينصفهم دهرهم ويعطف عليهم بعد نفوره ولا يعودون الى ترقّب النهاية جرّاء جفاء الحبيبة .

وماذا لو أنصفت الحبيبة حبيبها فحقق امله ؟ لا شك انه سيقرّ عينا وبهدأ نفسا ويطيب خاطرا ويهنأ معها بحياة بهجة مشرقة زاهية زهو الحياة التي يرجو في ارض طيبة زكية التراب مشتعلة بنُوار الأقاح الصقيلة اللامعة التي تزيد الحياة وضاءة وإشراقا ينساب بين جنباتها نسيم شمالي رقيق عليل فتزداد حياته رقة ونعومة :

---

(١) ديوان الشريف الرضي ،ج١ ،ص ٤٥٨ .
(٢) المصدر السابق ،ج١ ،ص ١٧٨ .
(٣) الثعالبي ،يتيمة الدهر ،المجلد الثاني ،ج٤ ،من شعر القاضي الجرجاني ص ١٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولِلّهِ أيامٌ عفونَ كما عفـــا ... ذوائبُ مياسُ العرارِ رطيبـــهِ
أحنُّ إلى نَوْرِ الرُّبى في بطاحه ... وأظمأ الى ريّا اللّوى في هبوبهِ
وذاك الحمى يغدو عليلاً بنسيمه ... ويمسي صحيحا ماؤه في قليبـــهِ
وهل لليالي عطفةٌ بعد نفـــرةٍ ... تعودُ فتلهي ناظراً من غروبـــهِ (١)

اذن لا بد من لقاء ،ولا بد من وجه اخر للحبيبة غير هذا الوجه السلبي الذى عرفنا وجهٍ نرى فيه صورة هذا اللقاء ولون تلك الحياة التي اليها يسعون وبهـــا يفرحون فماذا يزين هذه العلاقة التي طلبها غير واحد من شعراء هذه الدراسة ؟ وأي وصل يرجون ؟ وأي حب يأملون ؟ وأي علاقة يريـــدون ؟
لعلنا نلاحظ من خلال ما نقرأ لهم من نصوص شعرية انها علاقة تتزين بالنقاء والصفاء وان الحبيبين مرتبطان بعلاقة عفة وحياء وتبرئة للنفس مما يريب تجنبا لمزالـــق الشبه ومظان الاثام .

فها هما الحبيبان منفردين في ليل أليل لكنهما يلبسان من أثواب الهوى العفيف والخلوة الطاهره ما جعل الارض تحتهما والسماء فوقهما تشدوان بلحنِ حب عفيـــف طاهر تتردد نغماته بين نفسيهما :

وكريمة الأبوين اطرق بينهـــا ... والليلُ بابنِ سمائهِ متوضّحُ
وعليّ من ثوبي هواي وعفتـــي ... شوقٌ يبَلّ وخلوةٌ لا تقبـــحُ (٢)

ومع سيطرة العاطفة الملتهبة المتقدة عليهما الا انها مقيدة بسلاسل العقل محفوفة جنباتها بالعفاف والتقى مسيرة بعيون ومسامع من الطهر والنقـــاء لذا فان ذكرى هذه اللحظات البريئة الطاهرة لا تفارق خيالهم :

وقفتُ بربعِ العامريةِ وقفـــةً ... فعزّ اشتياقي والطلولُ خواضعُ
وكم ليلةٍ بتنا على غيرِ ريبـــةٍ ... علينا عيونٌ للنّهى ومسامـــعُ (٣)

---

(١) الثعالبي ،يتيمة الدهر ،المجلد الاول ،ج١ ،ص ١٣٢ من شعر القاضي الجرجاني
عفون : زلن وامحين ،المياس : المختال ،العرار : بهار طيب الرائحة ،
الريا : الريح الطيبة ،اللّوى : العشب بين اليابس والرطب ،الغروب : المكان الذى تسيل منه دموع العين .
(٢) ديوان مهيار الديلمي ،ج١ ،ص ٢١٤ .
(٣) ديوان الشريف الرضي ،ج١ ،ص ٦٥٨ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

اذن هو العفاف ،وهو التقى الذى يجعل الشاعر يكتفي بالنظرة العجلى وقلبه يتوقد شوقا الى محبوبته ،وهذا ما يفسر لنا المواقف النفسية لهؤلاء الشعراء وهي التي نقف ازاءها متسائلين : اهو التحرج من المغامرة والمخاطرة الذي يسرى النار قد حفت بالشهوات ؟ ام هو السمو والتعالي الذى وجد في الفن القولي سبيلا الى التعبير عن هذه المشاعر فكانت هذه الصور الفنية للعواطف العفيفة الملتهبة من الحبيب والحبيبة في آن ؟

والهوى محفوظ في صدريهما وليس بينهما مايريب لان نفسيهما قد طبعت على العفة وليس ما بينهما من قبيل التظاهر والتصنع وليس هناك ما يدعو الى مراقبتهما ومنعهما اللقاء فان مكان لقائهما يشهد بعفتهما وطهرهما :

نغضُّ حديثاً عن ختامِ مودةٍ ... معاقلها أحشاؤنا والاضالعُ
يكادُ غرابُ الليلِ عند حديثِنا ... يطيرُ ارتياحاً وهو في الوكرِ واقعُ
خلوْنا فكانتْ عفةٌ لا تعفُّفٌ ... وقد رُفعتْ في الحي عنا الموانعُ
سلوا مضجعي عني وعنها فإننا ... رضينا بما يُخبرنَ عنا المضاجعُ (١)

وما أحسنه من تعبير عن قهر شهوات النفس سبق اليه شعراء هذا العهد وجددوا فيه ،فقد تضاجع الحسناء الشاعر - وبه من لواعج الشوق ما به - والسيف دونها لكن السيف ادنى الضجيعين اليه ،فما ابرعها من صورة يكنى بها عن العفة ،انه العشق عشق الابطال الشرفاء الذين يختارون السيف اذا ما وضعوا في موقف اختيار بين الحبيبة والسيف :

تضاجعُني الحسناءُ والسيفُ دونَها ... ضجيعان لي ،والسيفُ أدناهما مني
إذا دنت البيضاءُ مني لحاجةٍ ... أبى الأبيضُ الماضي فأبعدَها عني (٢)
وإن نام لي في الجفن انسانُ ناظر ... تيقظ مني ناظرٌ لي في الجفنِ

ولعل في هذا المعنى من الجدة والطرافة بالاضافة الى ما يعبر عنه من عفة وطهر ما يحملنا على القول بأن شعراء هذا العصر قد ابدعوا هذا المعنى وسبقوا اليه فهو من أرفع ما يعبر عن سلوك شخصي عفيف شريف .

لكن هذا الرجاء وهذه الامال والصور الجميلة البريئة ما تلبث ان تخبو حين يجد الشعراء أنفسهم يتكلمون مع أنفسهم ويصرخون في وادٍ لا يجدون من الحبيبة ما يعبر عن استجابتها او رغبتها في القرب ، فتذبل احلامهم ويعودون ثانية للاعتراف بان ما يرجون وما يأملون لن يأتي به غد :

---

(١) ديوان الشريف الرضي ،ج١ ،ص ٦٥٨ .
(٢) المصدر السابق ،ج٢ ،ص ٤٨٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الا من لبرقٍ في جوانحِ ليلـــــةٍ كأنّ الدُّجى في حملِه يتـــــأودُ
اذا قلتُ يبدو الصبحُ لي من خلالِـه محا ضوْه جنحٌ من الليلِ اسودُ
اؤملُ أمراً والمقاديرُ دونـــــه وأرقب يوماً ليس يأتي به غـدُ(١)

حتى ان بصيص الضوء الذى لمحوه خلال عتمة الليل والذى رآوا فيه بارقـــة الامل الذى يرجون قد وجدوا الليل ينوء بحمله ويتبرّم به ويتثاقل منه فيهجم هـــذا الليل بظلمته ووحشته على تلك البارقة المضيئة ويمحوها ومن هنا فانهم يـــــرون نهاية امالهم الى زوال وكل يوم يرجونه لن تطلع شمسه فيبعث ذلك في نفوسهم يأسا قاتلا يجعلهم لا يرجون حتى مجرد رؤية الحبيبة وانما يكتفون بالنظر الى صورتهـــا في اعماقهم دون ان تبصر عيونهم شخصها على ارض الواقع :

يراها بعينِ الشوقِ قلبي على النّوى فيحظى ولكن من لعيني برؤياها(٢)

فتعظم مصائبهم في هواهم وتكبر الامهم في حبهم حتى لتفوق اعظم ما يبتلـى به انسان :

بمثلِ بلائي او بمثلِ بلا بلـــي تهونُ الرزايا عند ثكلِ الثواكلِ(٣)

ومع هذا فإنهم ماضون في هذا الحب مستعدون للتفاني في سبيله بـــل ان تهالكهم في حبهم يدفعهم الى قبول ما يرضي الحبيبة وان كان فيه ما يؤلمهم فهم يعشقون الحبيبة بكل ما فيها حتى هجرها وظلمها ،بل اننا وفي نهاية رحلتنا مـــع شعراء هذه الدراسة في الصورة المعنوية نقف متاملين هؤلاء الشعراء الذين وجدناهم أسرى حب لا يقوون على الفكاك منه حتى بعد أن اصبح هذا الحب عذاباً دائما لهـــم ونارا تأكل قلوبهم وتحرق نفوسهم ،وقد اكثر هؤلاء من ذكر المرأة حتى اصبحـــت شغلهم الشاغل في النهار وهاجسهم في الليل يوقظهم من نومهم اذا ما اووا الـــى فرشهم ليرتاحوا من عناء يومهم ،وما زال هذا الهاجس يعاودهم ويلح عليهم فقـــد سعوا جهدهم ليلتقوا صواحبهم نهارا فلم يتحقق لهم هذا المسعى ،ولذا نجدهم يكتفون بطيف الحبيبة منقذا لهم من عذاباتهم ومعاناتهم القاسية المريرة في هذا الحـب العاثر الذى أتعبهم وأشقاهم ،فيرسمون في خيالاتهم صورا للقاءات جميلة تطـــول وتقصر كما يحلولهم يشكلون اجزاءها كما يشاؤن وكما توحي لهم خواطرهم واشواقهم صور تهتدى فيها الحبيبة الى ديارهم ومنازلهم بعد قطعها مسافات بعيدة فتصل الاحبة وترخص لهم ما كانت تغليه عليهم وتكتحل عيونهم بمراها ويلذ لها ان تنظرها بصورها

---

(١) ديوان ابن نباتة السعدى ،ص ٥٤٢ ،يتأود : يموج من الثقل .
(٢) ديوان مهيار الديلمي ،ج٤ ،ص ١٨٣ .
(٣) ديوان ابن نباتة السعدى ،ج١ ،ص ٤٠٠ ، البلابل : جمع بلبال وبلبالة وهي شدة الهم والوسواس .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الجميلة وأن تتابعها في حركاتها وسكناتها ، ويطيب لآذانهم سماع أحاديثها وهمساتها والأنس بكلامها العذب اللطيف ، كما يحلو لهم الاستمتاع بجلساتها وتنسّم عبق أردانها وعبيرها الفوّاح ، لكنّهم ما يلبثون أن يصحوا ليجدوها أحلاما ورؤىً تتردد في ذاكرتهم فتعيد لهم تلك اللحظات العابرة التي تكررّت في قصائد بعض شعراء هذه الدراسة مع اختلاف مواقفهم من هذه الأطياف .

فهذا مهيار الديلمي يبدأ قصيدته بخيال " لأسماء " يسري من بعيد يزوره بعد أن يفقد الأمل في وصلها وبعد أن يتعب وهو يجري وراءها وهي ممتنعة عليه فلم يبقَ أمامه الا الطيف والخيال يطوي الصحاري والقفار متلهفا للقاء حبيبه يحمل له في برده عبقا ونسيما فوّاحا يعطر الأرجاء غير خائف من الليل ولا وجل من أعدائه في هواه ، وهو وحيد يسير لابسا لبوس الحب الذي يجعله يقوى على مواجهة الخوف والتغلب عليه مع أن المعهود فيه خوفه حتى من الطفل الصغير فما أحلاها وما أعجبها من صورة يهتدي فيها خيال الحبيبة الى منزل الحبيب في أخريات الليل فيصله ويجود عليه :

أمِن " أسماءَ " والمسرى بعيدُ ... خيالٌ كلّما بخلتْ يجودُ ؟
طوى طيّ البُرودِ عِراضَ " نجدٍ " ... وزارَ كما تأرّجتِ البرودُ
يشقُّ الليلُ والأعداءُ فردا ... شجاعا وهو يذعره الوليدُ(١)

وها هو خيال " ظمياء " يأتيه في زورة أخرى فيخضّ لمقدمه الوادي وتخضل الأرض وينشق الفجر عن نهار وضّاء بهيّ ، وهو لا يلوي على شيء من المصاعب والمشاق التي عاناها من قطعه المسافات البعيدة فيعرفه الحبيب من عبقه الذي يعطّر تراب الأرض تحت قدميه .

أروّضَ الوادي أم أبيضَّ الغَسَقْ ... أم طيفُ " ظمياءَ " على النأي طرقْ
جاء على غربتهِ لم يحتفلْ ... ما نكدُ الأرضِ وما تيهُ الطَرَقْ
فقمتُ أمشي نائماً ينفضني ... اكبارُ ما خاضَ إليّ وحَرَقْ
مرتشفا ترابَه أعرفه ... من غيرهِ بما استفادَ من عَبَقْ(٢)

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ، ج ١ ، ص ١٧٢ .
البُرود : الثياب والكساء . العِراض : الساحات والبقاع الواسعة تأرّجت : انتشر فيها الطيب .

(٢) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٢ ، ص ٣٤٣ ،روّض : صار كالروض في كثرة أزهاره وخضرته . الطّرق : السير ليلا . ينفضني : يحركني . خاض : دخل .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويأنس السريّ الرفّاء الى هذا الخيال الذي يسري إليه ليلا يسابق غمض جفونه فيمنعها الكرى ويبعد عنها النوم ليبقى الحبيب ساهرا مع حبيبته :

آنستُ منها بخيالٍ آنسٍ يسابق الغمضَ اذا الغمضُ ألمّ (١)

وعلى الرغم من وجود الأعداء والرقباء فانه يزور حبيبه وقد ذعر وتوجّس خيفة خشية أن يبصره أحدهم لذا فهو يسير الى حبيبه وقد ترقب أعداءه بحذر :

وطيفُ حبيبٍ خافَ طيفَ رقيبِه فزار وسارَ خائفاً مترقّبا (٢)

أما الشريف الرضيّ فإننا نراه محروما من الحبيبة في نهاره ومحرومًا من زيارة طيفها في منامه فيتمنى أن يكون طيفها فريسة رقاده يدني صورتها من بعيد فتخفف من ألمه وحرمانه في حبها ، لكنه يجد نفسه غير قادر على النوم لأنه مروّع وعينه خائفة فقد أفزعته الحبيبة بصدها وهجرها حتى حرمت مقلته لذيذ المنام ولم تعد أجفانه تلتقي الاّ لتمنع دموعا حرّى تنسكب من جفنيه وهو يجد هذا هينا سهلا لو جاد عليه طيفها بزورة تخفف أحزانه :

ليتَ الخيالَ فريسةٌ لرقادي يدنو بطيفك عن نوًى وبعادِ
ولقد أطلتُ الى سلوّك شقّتي وجعلتُ هجرَك والتجنّبَ زادي
أهونْ بما حملتنيه من الضّنى لو أنّ طيفَك كان من عوّادي
ولقلّما نزل الخيالُ بمقلةٍ روعاءَ نافرةٍ بغير رقادِ
ما تلتقي الأجفانُ منها ساعة واذا التقت فلغمّض دمعٍ بادِ (٣)

* * *

وفي مرة أخرى يتمنى على هذا الطيف أن يصله في منامه فيعطيه ما ينقع غلته لكن هذا يزيد في ظمأه وشوقه الى حبيبه ، وكأن هذا الطيف كان يروي ظمأه من ماء مهجة هذا المحبّ بينما يسقي هو حبيبه من دموع بكائه ، فشتان مابين المحب والمحبوب ، فهو محروم من الوصل في منامه مثلما هو محروم منه في يقظته وان جاد عليه الحبيب بوصل فإنّ فيه عذابه وظمأ روحه :

---

(١) ديوان السريّ الرفّاء ، ص ٢٥٤ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤ .
(٣) ديوان الشريف الرضي ، ج ١ ، ص ٣٣٦ . العُوّاد : زوّار المريض .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يا حبذا منكِ خيالٌ سـرى ... فدلّهُ الشوقُ على مضجعي
أنّى تسرّى من عقيقِ الحمى ... منازلَ الحيّ على " لعلعِ "
باتَ يعاطيني جنيَ ظلمِه ... وبتُّ ظمآن ولم أنقعِ
معانقًا كان عناقي له ... وراء أحشائي والأضلعِ
عاقرني يشربُ من مهجتي ... ربّا ويسقيني من أدمعي (١)

وهذه حبيبة أخرى نجدها تقطع الى حبيبها الأمكنة والمسافات البعيدة حتى تصله وتجود عليه وتعطيه من وصلها في المنام ما تحرمه منه في اليقظة وتمنحه ما شاء الا ما فيه الاثم والحرج :

قضى دينَ " سُعدى " طيفُها المتأوّبُ ... ونوّلَ الا ما أبى المتحوّبُ
سرى فأرانا على عهدِ ساعةٍ ... ومن دونها عرضُ "الغبوبر" "فغرّبُ" (٢)

وبصورة عامة فإنّ شعراء هذه الدراسة قد تناولوا طيف الحبيبة ، ففصل بعضهم ذكره وأجمله بعضهم الآخر لكنهم جميعا تواردوا معاني متشابهة دارت جميعها في فلك الألم والحرمان واليأس والأمل والرجاء ، وكان هذا الطيف ممثلا للحبيبة الغائبة الهاجرة التي منعت حبيبها الوصل فعاش أحلاما متقلّبة مختلفة عبّر فيها عن أمانيه بمستقبل باسم مع هذه الحبيبة .

---

(١) ديوان الشريف الرضي ، ج ١ ، ص ٥٩٩ . عاقرني : بادلني الشرب .
(٢) ديوان مهيار الديلمي ، ج ١ ، ص ٥١ . المتأوّب : الذي يعاود صاحبه دائما المتحوّب : كثير الاثم والحرج .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المـــــرأة الأم

عندما بحثتُ في صورة المرأة الأم في هذا الشعر لم أجد الا أربعَ قصائد تناولت المرأة أُمّا وهي في باب الرثاء ،اثنتان منها للرضي أولاهما في رثاء والدته والثانية في تعزية الوزير أبي منصور محمد بن الحسن بن صالح عن والدته ، واثنتان لمهيار يعزّي فيهما صديقين له عن والدتيهما .

أمّا لماذا لم تُذكر الأم الا في باب الرثاء ؟ فاني أرى الجواب عن هذا يكون في أنهم وجدوا في فقد الأم استمراراً وامتداداً لصور الفقد العامة التي أصابت حياتهم في جميع جوانبها ، فقد فقدوا سلطانهم وأخفقوا في حياتهم فعمّ اليأس والحزن نفوسهم ووجدوها حياة يعمها الدمار والخراب ، وكانت الأم هي الملجأ والملاذ الذي تمنوا أن يفرّوا اليه ويحتموا به لكنهم فقدوا الآن مكان الحماية وموضع الأمان والاستقرار فالأمّ هي الأُمّة هي قِوام الحياة وكيانها هي المنبت والخصب والنمو وهي زمن الإثمار والعطاء وهي موضع الاستقرار والاطمئنان .

وعند دراستي قصائد الرثاء هذه وجدتها في عمومها بكائية تفيض بمشاعر الحزن والحديث عن الحياة والموت وعن الدنيا والآخرة وأثر فقد الأمّ في نفوسهم وما أحدثه في حياتهم من ضروب الأسى وصنوف اللوعة والألم وكثرة الاحباطات التي تتوالى عليهم من هذه الدنيا التي ينقمون عليها اذ يرون في هذا الفقد تشفياً من أعدائهم بهم .

وعندما نظرت في صورة الأمّ وجدتها في هذه القصائد تتمثل في المعاني التالية :

لقد كانت هذه الأمّ طيبة محسنة صالحة معطاءة ، ولو شمل فضلها بني البشر جميعا لاكتفوا بها فقط واستغنوا عن آبائهم ، وقد عوّدت أبناءها فضلها وكرمها الذي ترتاح اليه نفوسهم وتطمئن اليه قلوبهم ، لكنهم الآن قد فقدوا كل ذلك وهذا ما يجعلهم يبكون بكثرة ويحزنون بشدة ويجعل نسيانهم إياها صعبا عليهم :

لو كان مثلُكِ كلُّ أمّ بـــــرةٍ ... غنيَ البنون بها عن الآبـــاءِ
كيف السلوُّ، وكلُّ موقع لحظـــةٍ ... أثرٌ لفضلك خالدٌ بازائـــي
فَعَلاتُ معروفٍ تقرّ نواظـــري ... فتكونُ أجلبَ جالبٍ لبكائـــي(١)

(١) ديوان الشريف الرضي ، ج ١ ، ص ٢٧ . البَرّة : الخيّرة الصالحة الصادقة .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولهذه الأم من الأعمال الجليلة الصالحة ما ترتاح له نفوس أبنائها وتجعل ألسنتهم تلهج دوما بذكرها بعد أن غيّبها الرّدى عن عيونهم وانّ لطيب خلقها وجليل سيرتها ومحاسن أعمالها وفضلها العميم أثرا باقيا في نفوسهم حيّا في ضمائرهم :

فَعَلاتُ معروفٍ تقرُّ نواظري ... فتكون أجلبَ جالبٍ لبكائي
- ما مات من نزعَ البقاءَ،وذكرُه ... بالصالحاتِ يُعدّ في الاحياءِ(١)

وكانت هذه الأم تحاول وقاية أبنائها شرَّ المصائب والنوائب بدعائها المستمرّ الى الله وإحاطتهم دوما بأياديها وأفعالها حماية لهم وإعانة اذا ما ضاقت أياديهم وأغلقت الأبواب في وجوههم فكانت بدعائها تسرّي عنهم أدواءهم وتُذهب همومهم وعللهم وتقيهم الشرور إن ألمّت بهم فتهبهم بذلك لَبوسا وسترا من البؤس والضّر ، واليها فقط يعود الفضل في تسربة همومهم بطيب أحاديثها وحلو مجلسها الذي يزيل غمّتهم وظلمة نفوسهم كلّما ألمّت بهم مصيبة أو نزلت بهم نازلة أو أصابهم خطب أو ضيق وبفقدها فقدوا كل ذلك فتوالت عليهم المصائب ويرون أعظمها ذهابها وبقاؤهم في هذه الدنيا دون معين ، فإلى من يلجأون وبمن يلوذون ويحتمون ؟ .

فبأي كفّ أستجنُّ وأتقي ... صِرَفَ النوائبِ أم بأيّ دعاءِ؟
ومَن المموِّل لي إذا ضاقت يدي ... ومَن المعلِّل لي من الأدواءِ؟
ومَن الذي إن ساورتني نكبةٌ ... كان المَوَقّي لي من الأسواءِ
أم من يلطّ عليّ سترَ دعائه ... حَرَماً من البأساءِ والضرّاءِ
رزآن يزدادان طولَ تجدّدٍ ... أبدَ الزمان : فناؤها وبقائي(٢)

وتبرز صورة هذه الأمّ بأصلها الطيب ومحتدها الكريم خلال حديثهم عن آبائها الغرّ الميامين الذين جرت النعماء من أياديهم على الناس جرى السيل في غير مكان واتجاه من مثل نصرتهم الحق ودعوتهم الى طريق الهدى والايمان وإزالتهم الغمّة وتفريجهم الكروب عن كثير من الناس وسيادتهم واحتلالهم مراكز الصدارة في العالمين متسابقين الى الجود والكرم مع سداد الآراء واصابة الأقوال .

* * *

(١) ديوان الشريف الرضي ، ج ١ ، ص ٢٨ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٨ . استجنّ : استتر . صِرَف النوائب : حدثانها . ساورتني : وثبت عليّ وأصابتني . يلطّ : يرخي . حَرَماً : منعا .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهم مخوفو الجانب في كل حالة من حالاتهم وقد ساروا بذلك على سنن آبائهم وأجدادهم وتركوا طرق الحق والخير والرحمة والشجاعة مرسومة واضحة كي يسير عليها أبناؤهم من بعدهم :

آباؤك الغرّ الذين تفجّرتْ ... بهم ينابيعٌ من النعماءِ
من ناصرٍ للحقِ أو داعٍ إلى ... سبل الهدى ، أو كاشفِ الغمّاءِ
نزلوا بعرعرةَ السنامِ من العُلى ... وعلوا على الأثباجِ والأمطاءِ
من كل مستبقِ اليدين الى الندى ... ومسدّد الأقوالِ والآراءِ
درجوا على أثرِ القرون وخلّفوا ... طرقا معبّدةً من العلياءِ (١)

ويبرز طيب هذه الأم وكرمها أيضا خلال حديثهم عن أبنائها الذين ولدتهم نجباء وأرضعتهم لبان العزّ والكرم ، فلقد أنجبت رجالا مما جعلها تقدم على الموت عن طيب خاطر ورضى بأنها قد تركت في الحياة الدنيا جبالا عالية لا تطال ونارا حامية لا تدانى ونفوسا أبيّة لا تذل وها هو الشريف الرضي يتحدث الى أحد الأبناء وقد فجع بأمه :

ما ضرّ راحلةً وأنت وراءها ... من أن يكونَ على المنونِ قدومُها
تركتكَ طَوْداً لا تُرام وجمرةً ... لا تُصطلى ويدا يذّل مضيمُها (١)

ومن تمام فخر الأبناء بآبائهم وأعمامهم أن يفخروا بهذه الأم التي كان لها من العظمة ما استطاعت به أن تباري عظمة الآباء والأعمام :

أُصبنا بأمّ تعجبُ الحالُ أنه ... بأمثالِها في الفخرِ يوفى على العمّ (٣)

ولقد استطاعت هذه الأم بكرم أصلها أن تعلّم أبناءها كيف يكون سعيهم دوما نحو العلى مثلما كان لها ولآبائها من قبل وهذا ما جعل مصابهم بفقدها فاجعا وكبيرا :

ومفجوعين من أبناءِ " سعدٍ " ... فروع علا يبكّون الأصولا (٤)

وتبقى نجابة أبنائها التي رضعوها من لبان هذه الوالدة خير شاهد ودليل على نجابتها هي لأنّ لبانها يفيض بما فيه :

شهدَ الخلائقُ أنها لنجيبةٌ ... بدليل من ولدت من النجباءِ (٥)

---

(١) ديوان الشريف الرضي ، ج١ ، ص ٢٨، ٢٩ . العُرْعُر: أعلى الشيء . الثَّبَج: وسط الشيء . الأمطاء: مفردها المطا وهو الظهر لامتداده .
(٢) المصدر السابق ، ج ٢، ص ٤٠٧ . الطَوْد : الجبل العالي .
(٣) ديوان مهيار الديلميّ ، ج ٣ ، ص ٣٥٣ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٥ .
(٥) ديوان الشريف الرضيّ ، ج ١ ، ص ٢٨ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وقد تركت هذه الأم لأبنائها في الدنيا معينا لا ينضب من الذكر الطيب ينهلون منه طويلا وهم يتحدثون عنها بعد موتها، ومن أعظمه رغبتها في الموت قبل أبنائها حتى لا تفجع بأحدهم في حياتها . هذا في الوقت الذي يفتقر كثير من الأبناء الى ما يذكرونه من طيب آبائهم وكرمهم :

ذخرتْ لنا الذكرَ الجميلَ اذا انقضى ... ما يذخرُ الآباءُ للأبناءِ
قد كنتُ أملُ أن يكون أمامها ... يومي وتُشفق أن تكون وراثي(١)

ولقد ادّخرت هذه الأم لنفسها من حسن الخلق ما كساها ثوبا حاكته من نزاهتها وقد كفاها الثوب وزاد عنها بحيث يشمل أبناءها أيضا وبذلك فان سيرتها الحسنة وأعمالها الصالحة الجليلة الكثيرة في الدنيا ستشفعان لأولادها في الآخرة ، وبفضل ما كسبته هذه الأم من ذخائر الأعمال الصالحة والسيرة العطرة فانهم يرجون لها منزلة كريمة عند ربّ العرش العظيم . وها هو مهيار الديلمي يعزي أبناء فجعوا بوالدتهم :

وما استغفرتمُ الا لشخصٍ ... أعدَّ ليومهِ الذخرَ الجزيلا
وحاكتْ أمُّكم للحشرِ ثوباً ... عريضاً من نزاهتِها طويلا
ستلبسُه غدا ويطولُ عنها ... فتلحقكم شفاعتُها الفضولا(٢)

ولهذا كله فان دموعهم عليها حارة غزيرة وهم يكابدون في سبيل سترها واخفاء حزنهم لأن هناك من أعدائهم من يتشفّى بمصيبتهم في فقدها ويفرح لحزنهم عليها وهذا دليل كبير واضح على عظمة هذه الأم وأثرها الطيب الجميل في حياة أبنائها :

كم عبرة موّهتها بأناملي ... وسترتها متجمّلا برداءي
أُبدي التجلّدَ ، للعدو، ولو درى ... بتململي لقد اشتفى أعدائي(٣)

---

(١) ديوان الشريف الرضي ، ج ١ ، ص ٢٨ .
(٢) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٣ ، ص ٥ .
(٣) ديوان الشريف الرضيّ ، ج ١ ، ص ٢٦ . موّهتُها : أخفيتها وأفسدتها.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

المرأة الزوجـــــــة

لم أعثر في دواوين شعراء هذا العصر على شعر يتناول المرأة زوجـــــة الا في ديواني الشريف الرضي والسريّ الرفّاء ، فقد وجدت في ديوان الرضـــيّ ثلاث قصائد يرثي فيها زوجته - كما أرى - حيث أن الديوان لم يشر صراحـــة أنها في زوجته اذ جاء في مقدمة قصيدتين منها : قال رحمه الله يرثي امـــرأ يخصه "وفي مقدمة الثالثة : قال قدّس الله روحه يرثي بعض أهله وفيها اشـــارة أكثر قربا - الى أنها في زوجته - من الاشارة الواردة في مقدمة القصيدتيـــن الأوليين .

ويؤكد كلامي هذا رأيُ الدكتور عبدالفتاح الحلو عند حديثه عن زوجـــة الرضيّ في تحقيقه لديوانه اذ يقول : والقصيدتان الأولى والثالثة تدلان بمـــا فيهما على أنهما في رثاء زوجه - أما القصيدة الثانية فبالاضافة الى هـــذا نصّ الخبريّ على أنها في رثاء زوجه (١) .

وعثرت كذلك في ديوان السريّ الرفّاء على قصيدة واحدة يعزي فيهـــا صديقا له بزوجته .

أما لماذا لم تذكر الزوجة الا في باب الرثاء فاني أرى ذلك امتـــدادا لمعاني الفقد والضياع والخراب التي عمّت شعر هذا العصر والتي تكاد تنسحـــب على كثير منه اذ أن هذه المعاني هي التي أوقدت أحاسيس الألم والحزن والحرمان في نفوس هؤلاء الشعراء وهي التي رأينا أشعارهم مشبعة بها مثلما عمّت تلـــك المعاني حياتهم فكستها بألوان القتام والظلمة ويبقى فقد الزوجة صورة للألـــم الكبير الذي يخيّم على حياة الزوج عامة .

وعندما استعرضت صورة المرأة في هذه القصائد وجدتها تتمثل في المعاني التالية :

لقد كانت هذه الزوجة الندى الطريّ العطر والخصب والنعمة والرخاء فـــي حياته ، وكانت كذلك غصن حياته الأخضر الذي ذوى قبل أوانه ، وقد رمته الأيـــام بهذا كله :

على أيّ غرسٍ آمنُ الدهرَ بعدمـــا ... رمى فادحُ الأيام في الغصنِ الرطبِ
ذوى قبل أن تذوي الغصون، وعهـده ... قريب بأيام الربيلة والخصـــبِ (٢)

---

(١) ديوان الشريف الرضي ، صنعة أبي حكيم الخبريّ ، ج ١ ، ص ٢٧ .
(٢) المصدر السابق ، دار صادر، ج١ ، ص ١٦٩ . الرّبيلة : السّمن والخفض والنعمة .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وكانت زوجته نور عينه وقد انطفأ هذا النور فلا خير في عيون بغير نور وكذلك كانت يده اليمنى التي قطع بنانها فلا خير في يد بغير بنان :

وما خيرُ عينٍ خبا نورُها ... ويمنى يد جذّ منها البنانُ(١)

وكذلك كانت زوجته شباب عمره وربيعه وحياته وزمانه وقد فقد كل ذلك بفقدها، لكن ذكرى هذه المعاني ستبقى خالدة في نفسه ولن يجدها عند غيرها فهي وحدها القادرة على اشاعتها في حياته :

فيا أثرَ الحبِّ انّي بقيتَ ... وقد بان ممن أحبّ العيانُ
وقالوا : تسلّ بأترابها ... فاين الشبابُ ،وأين الزمانُ؟(٢)

وكانت هذه الزوجة بلبل حياته الغرّيد الذي سكتت ألحانه الصادحة الى الأبد ولن يعود الى عشه مثلما تعودت البلابل أن تعود وهذه سوءة دنياه، مثلما يسوءه أيضا أن حياته بعدها أصبحت ركاما من العلل والأدواء المتعاقبة لذا فهو معذور في هذا الحزن الدائم الذي ران على قلبه :

لقد ساءني أن البلابلَ روّحتْ ... وأن مِطالَ الداءِ بعدكِ أقصرا
تضرعتُ في أعقابِ وجدٍ عليكمُ ... ومَن فاته الاعذارُ بالأمر عذّرا(٣)

وهي قلبه الأثير لديه وقد غاب تحت التراب ، لذا فانه لن يكون قادرا على حبس سيل الدموع الجاري من عينيه لما يحسّه من ألم في فؤاده المكلوم بموت زوجته :

قضى بك لا ضنّا عليك بمدمعي ... ولكنْ رسيلُ الدمعِ جادَ وأمطرا
ولم أزجرِ العينَ الدَّموعَ لتنتهي ... ولم أعذِلِ القلبَ اللجوجَ ليصبِرا
وقالوا أرِح مرحَ الفؤاد، وإنما ... أحبُّ فؤادي انطوى دونه الثرى(٤)

وغدا موت هذه الزوجة حزن قلبه المتراكم طيلة حياته ، ولن يصيبه حزن يمكن أن يوازي حزنه على فقدها وليست هناك من مصيبة تعدل مصيبته في فقد زوجته وقد رماه الزمان بها :

---

(١) ديوان الشريف الرضي ، ج ٢ ، ص ٤٧٣ . جُذَّ : قُطع وكُسر .
(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها . العيان : حلقة أو حديدة في السكة التي تحرث بها الأرض .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ،ص ٥٠٨. تضرّعَ : ضعف ونحل وذلّ.
(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها . الثرى : التراب .

©Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقلت لجفني ردّ دمعاً على دمٍ ... وللقلب عالجْ قرحَ ندبٍ على ندبِ
ألا لا جوى مسّ الفؤادَ كذا الجوى ... ولا ذنبَ عندي للزمانِ كذا الذنبِ(١)

وحزنه على فقد زوجته كبير شديد وصعب وليس سهلا عليه كتمان هذا الجوى وهذا الألم ، اذ كيف له أن يكتمه وهو يملأ قلبه فيفيض على لسانه الذي يلهج بذكرها متحسرا على فقدها ؟! :

عواطفُ من مقلقاتِ الغرا ... مِ يوم دموعي بها أرونانُ
وبابى الجوى أن أسرَّ الجوى ... اذا مُلىء القلبُ فاض اللسانُ(١)

وهو يرى هذه الزوجة الفقيدة قد انتقلت من هذه الدنيا الى دنيا أخرى في قلبه فهي ستبقى حية في خاطره ووجدانه :

خلا منكِ طرفي وامتلا منكِ خاطري ... كأنّك من عيني نُقلتِ إلى قلبي(٢)

ولذا فان حبّها باقٍ في نفسه بقاءً مذهلا بعد أن غاب شخصها وانقفرت الدار منها :

فيا أثرَ الحبّ أنّي بقيتَ ... وقد بان ممن أحبُّ العيانُ(٣)
وما ضرّ قلبي إذ غدا منك آهلا ... تأمّل عيني منزلا فيك مقفرا(٤)

وسيذكرها ويبقى ذاكرا لها ولن يذهل عن ذكرها ما دام فيه قلب وعقل حتى مع تباعد المسافات بين دنياها ودنياه ، وهذه الذكرى هي التي ستبقي جذوة الألم والوجد مشتعلة في قلبه :

ذكرتكِ ذكرةً لا ذاهلٍ ... ولا نازعٍ قلبه والجنان
أعاودُ منك عدادَ السليم ... فيا دِين قلبي ماذا يُدان(٥)
ذكرتُك والأرضُ العريضة بيننا ... وشرّ على ذي الوجد أن يتذكرا(٦)

وهي زوجة حانية عطوف رحيمة بزوجها ولذا فقد كان حزنه عليها داميا ولوعته مضنية :

فقدتَ أبا عمرانَ عرسا شفيقةً ... لها لوعةٌ يدمى عليك رسيسها(٧)

---

(١) ديوان الشريف الرضيّ ، ج ٢، ص ٤٧٣. أرونان : شديد الغمّ وبالغ الغاية في الحزن .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٩ .
(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٧٣ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٠٨ .
(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٧٣ . الوجد : اهتياج وجع اللديغ . السليم : الجريح المشفي على الهلكة . دين قلبي : عادة قلبي . يُدان : يُحمل على ما يكره
(٦) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٩ .
(٧) ديوان السريّ الرفّاء، ص ١٥٤. الرسيس : البقية والأثر والأصل الثابت .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهذه الزوجة صورة للأم الحانية الحريصة على رعاية أطفالها ، وقد فقد أطفالها هذه الرعاية وسيعيشون بعدها حياة ملؤها الخوف والشدائد والصعاب :

وأبقتْ فراخاً حين أعدمن زقّها تصرّم نعماها وعاود بؤسُها
فمن ذا يقيها السوءَ أم من ينجها دماءُ ذوات الذلِ أم من يسوسها (١)

وهي نفس لا بدّ أن تموت كأي نفس أخرى ، اذ لا فرق في الموت بين رجل وامرأة :

تعزَّ فانّ للحِمام نفوسَنا كذلك الغواني للحِمام نفوسُها (٢)

وبعد هذا الاستقصاء لصورة المرأة الزوجة في هذه القصائد أستطيع القول بأنني قد وجدتها في عمومها معنوية اذ أن طبيعة الغرض الشعري الذي ذكرت فيه هذه الزوجة وهو الرثاء قد فرضت على الشاعر هذا اللون فقط من الصور، فقد غاب الجسد وورِيَ التراب وغُيّب الوجه وكل ما في هذا الجسم من معالم جمالية ولم يبقَ الا المعنى والذكرى الأليمة والوجد المقيم . وكانت مصيبته بفقدها عظيمة عصرت قلبه وأذابت نفسه فجاءت معانيه بعضا من هذا الذوب .

ومع ذلك فلم تخلُ هذه الصورة من بعض الجوانب المادية التي وجدناها عند السريّ الرفّاء ، وأرى ذلك يعود الى أنّ وقع المصيبة في نفسه لا يدانيه وقعها وأثرها في نفس زوج الفقيدة فبرزت الصورة المادية في قصيدته حين وجد لها من نفسه وشعره متسعا .

---

(١) ديوان السريّ الرفّاء ، ص ١٥٤ . الزّق : إطعام الطائر فراخه بفيه تصرّم : تقطّع تقطيعا بائنا.
(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصـــــــــل الرابـــــع

الدراسة الفنيـــــــــــــــــــــــة

٠١ المرأة في الصورة المادية ودلالتها الموضعية
٠٢ المرأة في الصورة المعنوية ودلالتها الكليـة
٠٣ دراسة مقطع المرأة وأثره في بناء القصيـدة
٠٤ لغة الشعر عند شعـراء الدراســـــــــــة

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المرأة في الصورة الماديّة ودلالتها الموضعيـــة

بعد الوصف الجمالي المستقصي لأجزاء صورة المرأة المادية خلال شعـــر هؤلاء الشعراء يمكنني رسم صورة للمرأة الحبيبة في العهد البويهي أستجمـــع أجزاءها المتعددة من خلال وصف الشعراء لها ، ويمكنني كذلك رسم هذه الأجـــزاء بريشة أستوحي لها ألوانا وحركات من أقوال هؤلاء الشعراء أنفسهـــم .

واذا ما نظرنا في هذه الصورة نجد أنفسنا أمام تمثال حيّ متحرك يوحـــي بمقدار ما بذله هؤلاء الشعراء من جهود فنية وهم بصدد صياغته كي يصبح نموذجـــا فنيا جميلا يُجمعون على رسمه بشكل يجعله فريدا معجبا .

وتؤكد لنا الأوصاف الجمالية السابقة أن حديثهم عن المرأة بالصـــور التي فصّلتها سابقا قد جعل منها نموذجا مثاليا كامل الخلق والتكوين رائـــع الملامح متكامل الشكل ، فوجهها بدر تام مشرق منير أو بستان يفيض بفرحـــة الزهر المزهوّ بألوانه الجميلة عند استقبال حبّات المطر ، يشع نضارة ونعيمـــا وما يزال مدعاة للتفاؤل والاستبشار بهيّ الطلعة رائع الخلق مضيئا ضيـــاء الشمس أو أنه بضيائه قد أزرى بضياء الشمس وأنوار المصابيح ، اذا مـــا نفت البرقع الأسود عنه كان صباحا منبلجا يشق الظلمة الحالكة ويحولها الـــى نور يتخطف الأبصار ، وخدودها ناعمة رقيقة صقيلة من تنعّمها ودلالها لامعـــة صافية مشربة بلون الورد أو بلون زهر الرمّان ، وجبينها أبيض نقي واضـــح، وحاجباها سيفان مسلولان أو قسيّ رامية مصيبة ، ورموش عينيها سهام قاتلـــة جارحة تفتك بأولئك الشجعان من الرجال الذين اعتادوا تقتيل أعدائهم ، ولحاظهـــا لحاظ ريم بل أجمل ، أما عيناها فعينا ظبية ساحرة اذا جفلت تفزع الرجـــل القوي الصلب ، واذا أمنت فاترة ضعيفة بجلاء ساحرة سحر هاروت وفمها وضّـــاء مشـــرق جميـــل له نكهة المسك الفوّاح وطعم الخمرة المعتّقة عـــذب طيّب يجلّي الصبر الممرور ، يفتّر عن أسنان جميلة هي أقاحي بيضاء وحبـــات برد عذبة رطبة أو درّ براق يتلألأ خلال ريقها العذب الصافي ، وهي كذلك سمطـــا لؤلؤ مجلوّ ناعم محاطان بشفتين رقيقتين رقة كأس الخمرة حمراوين حمـــرة شقائق النعمان الجميلة ، ولثتها عسل أبيض قد خالط خمرة رطبة باردة معتّقة ، وأما لونها فأسمر أو أبيض وهو في الحالين جميل فاتن مضيء ضياء البـــدر مشرق اشراق الشمس ، وشعرها ليل أسود فاحم مظلم يحيط بجانبي وجهها الجميـــل المشرق ويغطي جبينها الأبيض النقي وينسدل على ظهرها حتى يلامس خاصرتهـــا وقد برقت خلال سواده أسنانها اللامعة وأقراطها المتلألئة فبدت لنا صورة ليـــل

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

داج مظلم قد زينت سماؤه بالنجوم اللامعة المضيئة وهو طويل كثيف مرجّل يزري بشكل الحيّات الملتوية ينوء بحمله جيدها الناعم الرخص الأبيض الشفّاف الذي يفوق جيد الغزالة جمالا ، وجماله هبة من الله لا من زخرفة بعقود أو تزيين بلآلىء يتناسق وينسجم مع صدر أبيض ناعم رقيق جميل يزيد من جماله درّ نظيم ورائحة مسك وكافور وعنبر تفوح منه ، وهو روض مزهر ملوّن قد احتفل باستقبال الوسميّ فنوّرت أزاهيره وتلامعت عليها حبّات الندى ا لتي بعثت عطر هذه الأزاهير طيّبا فوّاحا بأنفاسها الندّية ، وهذا الجمال العميم في الوجه والعنق والصدر يتلاءم مع خاصرة رقيقة وبطن ضامر وجسم أهيف يتثنى كالرمح أو كالنصل بل هو البان في دقته ولطفه مع مشية متمايلة تمايل الغصن اذا لاعبه نسيم الصّبا توقد شعلة الحب في قلب من يراها ، ولها قوام قد حلاّه خالقه بطول يزري بطول الغصن دقيق لطيف مستقيم نحيف هو الرمح والغصن والقضيب بل انه ليذهب بجمال الغصن واستقامة القضيب الرطيب اذا ما تثنّى ومال بتيه وكبرياء تحلّيه مشيتها المنسجمة مع هذا القدّ كأنها نشوى ثملة بفعل دلّها وتيهها ، ترفل بأثواب تجرر أذيالها الطويلة المصنوعة من الحرير والخزّ وتجمع اليها رداءها وخمارها ونطاقها ووشاحها ومئزرها العجمي الفاخر وهذه كلها محلاّة بما زان من الذهب اللامع الذي يكاد أن يشتعل اذا ما اجتمع ونور وجهها ، وظهرت عندها السيقان والسواعد ريّا مكتنزة مزيّنة بخلاخيل الذهب ودمالج النضار ، أما كفّاها فناعمتان يدميهما اللمس ، وأصابعها لدّنة رخصة عملت على تكامل أجزاء هذه الصورة الجميلة ، وقد خصّ جسمها الجميل في جميع أجزائه بالنعومة واللين والغيد والوضاءة ، فكان تمثالها هذا صنو الشمس وأخا الغزال يتضوع منه عطر وطيب يضفيان على الطبيعة من رائحتهما التي خالطت ورود الجنان والمسك والنّد ، وهذا العطر يدلّ على صاحبته حيثما سارت وهو يغنيها عن التطيّب بعطر آخر من صنع البشر لأن عطرها هبة من هبات السماء اليها ، وأما ردفاها وعطفاها فممتلئان مكتنزان يتناسبان مع خاصرتها الضامرة وهي بهذا تشترك مع الغزالة في ضمور جانبيها واكتناز ردفيها .

وهي تامة الخلق لم تغادر صغيرا ولا كبيرا من عناصر الجمال الاّ امتلكته وتحكمت به حتى أصبحت دمية بديعة الحسن والبهاء بل أصبحت مصدرا تستمد منه الظّباء حسنها وجمالها ، وأما صباها الذي نتبينه من صغر سنها ونعومتها واشراقها وجمال جسمها وحيويتها فيجعلها غزالة متميزة وسط سرب الغزلان مدلّلة منعّمة تفيض عذوبة وحلاوة .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وبذلك جعلوا هذه المرأة نموذجا مثلا تام التكوين كامل الخلق وعاشوا يسعون كي يكون هو الواقع الذي يطلبونه لا بل يحلمون به ، فانّ هذا التصوير لم يكن الا من ريشة فنان عاشت هذه الصور في خياله وظلت تتحرك في داخله لتتفجر كوامنه حتى تمخّض فنه الشعري الجميل عن هذه الصور التامة .

ومن طريف القول انّ هذا الفنّ البديع الذي أضفاه الشاعر على تمثاله وهذه الهالة الباهرة التي أحاطه بها قد جعلاه عزيز المنال يصعب على المحبّ أن يطاله أو يصل اليه حتى وهو الذي قام بتشكيل خطوطه واختار له ألوانه وأفرغ فيه جهده وبديع فنه فعاش شعراؤنا يرونه حلما يصعب عليهم تحقيقه على أرض واقعهم ، وكلما حاولوا ذلك فانهم لا يجدون منه الا الصدّ والمنع فأكثر شعراؤنا من شكوى المحبوب وتألموا لظلمه وبكوا حالهم معه وأحسوا الضنى والشحوب يأكل ألوانهم وأجسادهم وهم يتحرقون شوقا اليه وهو المتمنّع الذي يدلّ على من يحبه ويتعشّقه لجماله المتميز .

ومن هنا وقفت المرأة الحبيبة عند شعراء هذه الدراسة - بكل ما وضعوا فيها من رسوم وألوان وصور - دالة على حياتهم بكل ما فيها من عناصر الظلم والقهر والحرمان والألم .

وسأنطلق من هنا عبر الصفحات المقبلة لأتبيّن تبينا جزئيا دلالة الصورة المادية بكل ما حملته من ألوان وحركات .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الدلالة الموضعية لصورة المرأة المادية عند شعراء الدراسة :

ينظر الفنان عامة والشاعر خاصة في العادة الى المواد نظرة خاصة مختلفة عن نظرة الانسان العادي لها ، فالمادة عنده موضوع له وظيفة انسانية يشترك فيها الناس عامة احساسا وفعلا ، وهو ينظر الى الكون نظرة عامة واحدة مشتركة .

ومن هنا أخذ يستخدم المادة استخداما مختلفا تكون فيه هذه المادة معادلا للأحاسيس التي تنتابه لحظات الحزن أو الفرح ، أو الكره أو الحب، أو الامتعاض أو الاعجاب ، أو معادلا لروحه وذاته أو لتجربته عامة ، أي أنه يحوّل المادة من كونها شيئا جامدا ميتا الى موضوع حيّ مشحون بالفكر والشعور .

وان احساس الشاعر بالحزن أو الفرح أو بالرّضا أو بالكره نحو موضوع معين يبقى مختزنا في ذاكرته حتى اذا صادف موقفا انفعاليا مماثلا أو مخالفا قرع باب ذاكرته فولّد ذلك الاحساس في نفسه من جديد وتشكّل لديه أعداد هائلة من الصور الموحية ،ومن هنا تبدو لنا الصورة الفنية مؤلفة من حدين : الأول حاضر ماثل أمام الشاعر يريد وصفه والحديث عنه ، والثاني مختزن في ذاكرته يشبهه أو يخالفه.(١)

وانطلاقا من هذه الرؤية وجدت الشعراء في البلاط البويهي يتخذون من صورة المرأة موضوعا للحديث عن الحياة ، وكانت جوانب هذه الصورة كثيرة متنوّعة. وقد استخدموها استخداما خاصا دار في فلك المعنى الكبير للحياة عندهم منسجما مع أفكارهم ومواقفهم منها .

فلقد تمثّلت لهم الحياة في صورة امرأة ممتنعة تصدّ عنهم وتهجرهم وتؤلمهم لكنها تتمتع بصفات أنثوية جميلة فاتنة محببة الى نفوسهم وهذا ما جعلهم يصرّون على التمسّك بها ولا يملّون مسألتها مع اصرارها على عنادها ، وكأن صفاتها الحلوة الجميلة تدفعها الى هذا الصدّ والتمنع الاّ أنها تغريهم بلحظات قصيرة تجود عليهم فيها بابتسامة أو بنظرة حانية عجلى تنقع ظمأهم ولو لحين ، فان جودها القليل القصير يمدّهم بعزم يجدّد فيهم الاصرار على مواصلة السعي للحصول على نوالها ورضاها .

---

(١) عبد القادر الرّباعي ، الصورة الفنية في شعر أبي تمام ، اربد ، الاردن ١٩٨٠ ، ص ٢٩ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

اذن لقد كانت المرأة لدى هؤلاء الشعراء الحياة التي يعيشون، والجمال الذي عنه يبحثون ، والأمل الذي اليه يسعون ، والعطاء الذي فيه يطمعون والألم الذي منه يفرّون ، فكيف قام الشعراء بانتزاع الجوانب الكثيرة المتعددة لجمال المرأة حتى تكون موحية بالمنع والصد والحرمان أو بالاقبال والعطاء والبذل وهم بصدد حديثهم عن حياتهم الصعبة القاسية ؟.

فعندما نستقصي صورة شَعر المرأة نجد أن فكرة الليل تتكرر كثيرا في شعرهم ، فشَعرها يقابل الليل وهذا بدوره يوحي بالظلمة والغمّ والقلق،والليل يحيط بوجهها المنير كالصبح الذي يوحي بالنور والاشراق ، واذا ما جادت عليه الحبيبة بزورة أو بوصل فان هذا يوحي له بالحياة بعطائها واقبالها وكان ذلك بمثابة عقد الصلح مع الحياة الذي يوحي بالأمن والاطمئنان ، ومع زورتها تشعّ الحياة وتشرق وتقبل عليه بنورها وضيائها وبذلك تغدو الحياة آمنة مطمئنة يأنس اليها الشاعر ويطمئن لقربها .

لكن هذا الاطمئنان لم يكن تاما حين خفع لتذبذب الحبيبة في علاقتها مع المحبّ، والحياة ما زالت في أحد جانبيها الليل الذي يشعره بالظلمة والقلق والاضطراب :

قل للزمان صُلحنا قد عادَ ليلي صبحا
جادَ فزارَ قمرٌ كان لوى وشحا
يلبسُ جنحا من دجى الليل وينضو جنحا (١)

وهذا الليل - الذي أوحى له بالغمّ وبالظلمة النفسية - قد يغدو ناعما هانئا اذا ما شعر الحبيب بوصل الحبيبة التي تزيل بنورها واشراقها ظلمة هذا الليل في جانب فيقبل عليه الحبيب ويلبسه حتى يغيب فيه اذ يحسّ معه بالاطمئنان لأنه المنقذ الذي يشده نحو النور والضياء :

وليل لبسناه بقربك ناعم بطائن ما بين القلائد والوشح (٢)

وكذلك قد يكون هذا الليل الذي يجلب للشاعر الغمّ والحزن محببا لديه في لحظات يضاء فيها ويشرق بما يزيّنه من وضاءة أسنان الحبيبة وأقراطها ، وهي قد توحي هنا ببعض ما يمكن أن تجود الحياة به على أصحابها من عناصر الجمال والفرح :

جلونَ لنا لآلىء واضحاتٍ أضأنَ بها الذوائبَ والقرونا (٣)

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ، ج ١ ، ص ٢٠٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .
(٣) ديوان الشريف الرضي ،ج ٢ ، ص ٥٤٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وفي صورة الجبين أو الجبهة نجد الشاعر قد افتتن بوجه حبيبته كاملا وقابله بالروضة الغنّاء التي ترمز للجمال والعطاء وهذه الروضة تحفل بالزهر وتكتسي به وهذا يوحي بالخصب والأنوثة ، لكن هذا جميعه محجوب عنه بالبراقع التي توحي بالمنع والبخل وعندما تنزع البرقع وهو مما يوحي باقبالها وإزالة الموانع بينهما فإنّ الحياة تشرق بظهور جمال هذا الوجه ويعمّها الخصب بالحيا العميم الذي يوحي بالعطاء ويرمز لنماء العلاقة واستمرارها وتجددها ، ويشرق الفمّ بالاسنان اللجينة ويضيء ويظهر كل ماكان قد اختفى بظهور خدودها المذهّبة اللامعة ويكاد ليله الداجي أن ينتهي بظهور سنا الصبح الذي أوحى به ضوء جبهتها ، لكنّ الحياة لا تبقى دوما مشرقة وضيئة مقبلة فلا يلبث الشاعر أن ينظر الظلام محيطا بهذا الضياء وهو المتمثل بظلمة شعرها وسواده الذي يحيط بجانبي وجهها :

نفتِ البراقعَ عن محاسنِ روضةٍ ريضتْ بمحتفلِ الحيا أنوارُها
فمنِ الثغورِ المشرقاتِ لُجينُها ومَن الخدودِ المذهباتِ نضارُها
مصقولةٌ بسنا الصباحِ جباههـا مصبوغةٌ بدجى الظلام ظِرارُها (١)

وتكثر رؤية الشعراء للوجوه الفاتنة ويكثر تعدادهم لصورها وفي هذا رمز لخوفهم الدائم وايحاء بكثرة سعيهم وبحثهم في هذه الحياة لعلّهم يعثرون على مأمن يركنون اليه ويستقرّون عنده :

كم ليلةٍ قد أرتني حشوَها قمراً وجوهُها البيضُ في أبياتها السودِ

وفي صورة حاجبيها نرى العلاقة التي يشوبها المنع والصدّ بينه وبين الحياة ما زالت تلحّ عليه وتتمثل في الصور العديدة التي انتزعها من جوانبَ مختلفة من صورة الحبيبة وقد أوحت له بمعادلات كثيرة استمدها مما اختزنه في ذاكرته فالحبيبة متأهبة دوما لتكريس علاقة الصدود والادبار لذا فهي ترهف في جفنيها سيفين يشدّان من عزمها ويدفعان عنها الضعف والخوف كي تتمكن من الاستمرار في موقفها .

وللسيوف عناصر أخرى تنبثق من دائرة رمزها كالقسيّ والسهام وهي تكرّس الايحاء بالامعان في الطعن والرغبة المخلصة فيه :

رمينَ بعيداً والقسيُّ حواجبٌ فأخلصَ فينا والسهامُ عيونُ (٢)

---

(١) ديوان السريّ الرفّاء ، ص ١١٣.
(٢) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٤ ، ص ١٥٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ان عناصر الجمال القتالية تجتمع كلها وتظهر في صورة عيون هذه المرأة الحبيبة وعيونها تقابل عيون الحياة وتوحي بها وترمز لها ، هي النوافذ التي تطلّ الحياة منها على الشعراء وتعلهم وتعطيهم ، ولكن ماذا تحمل لهم هذه النوافذ اذا ما فتحت لهم؟انها تريهم سيوفاً مسهاماً وقسياً ورماحاً وكلها عناصر ترمز للطعن والجرح والقتل وهي لا ترحم من أحبها ولا تتوانى عن جرحه وايلامه ان لم تقتله ، وكذا الحياة فهي ما تزال تصيبه بمصائبها صغيرة كانت أم كبيرة :

ما كان سهماً غارَ بل ظبيٌ سنحْ ان لم يكن قتلَ الفؤادَ فقد جرحْ (١)

وما يؤلمهم كثيرا أنهم وهم المقاتلون الأشدّاء الذين اعتادوا مقاتلة الأعداء بأقوى عدة وأمضى سلاح ، يضعفون أمام الحبيبة وهي المقاتلة الضعيفة التي تحمل أسلحة كثيرة في وقت معا :

ورحنَ يرمينَ بالألحاظِ مقتنصا فما تصيدَن الا أنفسَ الصيدِ(٢)

وفي الوقت نفسه تشكّل عيون هذه المرأة الهادي الذي يرشدهم في حياتهم ويُنير لهم طريقهم في هذه الحياة :

ذبالُها تحت الدجى عيونُها لا تستشيرُ النجمَ في ارشادِها (٣)

لكنهم أصحاب مجد يعاركون هذه الحياة ويتصدون لها وتنطبع آثار هذا العراك بطوابع دموية حمراء تظهر في وجنات الحبيبة وخدودها ، وقد تنكر الحياة أحيانا ما يبذلونه من جهد في سبيل الوصول الى جانبها المتميز الذي لا ينال بسهولة :

يجحدنَ ما سفكت أجفانُهنّ دما وقد أقرَّ به خدٌّ وأطفورُ(٤)

وما يزال اللون الأحمر يشير الى قسوة الحدث الذي سببّه ، ومع ذلك فانه يظلّ معلَما جميلا يرمز الى عنصر جمالي في وجه الحبيبة وجانبا محببا في وجه الحياة يعادل سعي الانسان نحو المجد وما يلاقيه في سبيل الوصول الى مراده من هذه الحياة .

وقد تطلب الحبيبة الصفح من حبيبها الشاعر أحيانا وهذا يعادل عنده لين الحياة وسهولتها وتصالحها مع أصحابها ، لكنه يبقى يشعر بالألم والقسوة مما

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ، ج ١ ، ص ١٨٦.
(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٠.
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣١٦ .
(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ،ص ١٠٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يولّد في نفسه التصميم على مواصلة السعي نحوها :

رمتْ فجنتْ واستصفحتْ هي عامدٌ ألا أين جرمُ العامدين من الصفحِ(١)

لكنّ هذه النوافذ تبقى - على قسوة ما تحمل معها - لوحة جميلة ظل الشعراء يأملون فيها الخير والحبّ والعطف ، لذا فقد قرنوها بعيون الظباء لكنّهم التفتوا لهذه العيون والظبية نافرة جافلة شاردة وهذا عندهم يوحي بصدّ الحياة وادبارها عنهم وتوليها في وجوههم ، ومع ضعف هذه الغزالة الاّ أن صورتها نافرة ترمز للقوّة والقسوة في عينيها فأصبحت فاتكة تطيح به وتوهي من قواه وهو الرجل الصلب المتماسك :

رنتْ اليه بطرفٍ خاذلٍ ضعيفةِ الطرفِ تضعف الجَلِدا(٢)

فعالم الظبية في كلامهم عالم جميل توحي المرأة الحبيبة من خلاله بالحياة التي يودّ الاقبال عليها لكنها غزالة مذعورة جافلة وهذه درجة متميزة من الخوف تستطيع أن تصعد الى حد توليد القلق والاضطراب في نفس المحبّ وهو المقاتل العنيد الذي يوازي بقوته قوة ألف رجل ويحمي نفسه بأقوى أنواع الأسلحة :

ما عند سكانِ " مِنى " في رجلٍ سباه ظبيٌ وهو في ألف رجلْ
دافعَ عن صفحتِه شوكَ القنا وجرحته أعينُ السربِ النُجُلْ(٣)

فهو دوما يقابل قوته بنظرتها الضعيفة التي تستطيع أن تفتك به ، وهو اذن يقدّم لهذه الحياة ما يجب ويواجهها مستعداً لكنها تصد عنه وتنفر في وجهه .

واذا كان هو يستعد بما اعتاده الناس فان الحبيبة تستعين بقوى خارجية خارقة للعادة تفوق مقدرة الانسان ، وهذا يوحي بما يفعله اولئك الذين يرجعون سبب فشلهم في الحصول على بغيتهم الى الظروف وأحوال الزمن لذا يجد نفسه عاجزا عند مواجهتها :

وأحسبُ هاروتاً أطاف بطرفِه فعلّمه من سحرِه فتعلّما(٤)

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ، ج ١ ، ص ٢٠٠ .
(٢) ديوان السريّ الرفّاء ، ص ٨٢ .

(٣) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٣ ، ص ١٠٩.
(٤) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ من شعر تاج الدولة بن عضد الدولة .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لكنه يراها جميلة في جميع حالاتها وجملة أوضاعها فتبقى دوما مرغوبة عنده يسعى اليها كل حين ، وهو في مسيرته نحو هذا الجمال الذي يوحي ببهاء الحياة وروعتها يبقى خاضعا لفكرة تسيطر عليه وهي فكرة الظلم في هذه الحياة فهو يشعر دوما أنه جدير بها لكنه لم يعطَ حقه بل ظلم وأريقت دماؤه التي بدت في عينيها هذه المرة ، وبدت في خدودها أيضا ، فلا بدّ أن يكون لمكابدته في الحياة أثرٌ ظاهر في صفحتها :

أراقتْ دمي ظلماً محاسنُ وجهِه فاضحى وفي عينيه آثارُه تبدو(١)

ونتيجة لذلك يمكننا أن نقول أن موضوع الغزالة في شعرهم يعدّ جملة أفكار متغيرة بتغير الصور التي رسمها لها هؤلاء الشعراء .

وصورة خدود الحبيبة نراها حمراء حمرة شقائق النعمان ، وكأنه من المكابدة في سبيل الحياة الكريمة الجميلة قد طبع وجهها ببصمات حمراء جميلة تذكرنا بفورة الدم في خديها وان كان جمال الدم غريبا اذ تبقى فيه اشارة لأصل صورته المؤلمة والتي تعبّر عن مقدار ما يلاقيه وما يتكبده في سبيل الوصول للحبيبة والتمتع بجمال خديها المتوردين . وتتلامع على هذه الشقائق الحمراء بقايا ندى ، والندى يوحي بالعطاء والنماء والجمال لكنه لم يجد منه الاّ بقاياه وهذا يرمز الى أنه لم ينل حظه من جمال الحياة كما يريد وانما نال القليل من عطائها :

كأنّ خدودهنّ اذا استقلّت شقيقٌ فيه من طلّ بقايا(٢)

وتبقى هذه الخدود بعيدة عنه يصعب منالها الاّ أنه يلمح لمعانها ونعومتها ونقاءها وصفاءها ، وهذه المحسّات ترمز لأفكار تلحّ على الشاعر وهو يسعى لحياته الحرّة الكريمة ، لكنها تُحجب عنه بستر أو بسجف يمنعه من الاستمتاع بها ، والسجف يرمز للظلام الذي يولّد القلق والغمّ ويرمز للمنع والصدّ الذي يولّد الهمّ والألم .

لكن عندما يماط هذا السجف فان الظلام يزول ويتمكّن الشاعر المحب من أن يستمتع - بالنظر فقط - بما تجود به هذه الحياة وتبقى المسألة مسألة مشاهدة عن قرب أو عن بعد وهكذا هي الحياة لا يمكن أن تمنحهم ما يريدون كما يريدون :

---

(١) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ من شعر أبي الفرج الببغاء .
(٢) ديوان السريّ الرفّاء ، ص ٢٨١ .

©Arabic Digital Library-Yarmouk University

أمدلَ سجوفاً عن خدودٍ نقيـــــة صفا بشرٌ منها ورقَّ أديـــمُ (١)

وخلال هذه الصورة يتطلع الشاعر نحو العلا الذي رمز له بالكواكب ، فهو يطلـــب حياة سامية عالية لكنه يشعر بالقيد الآسر الذي نصبته عيناها له يقيّـــده ويشدّه ويحول دون صعوده للعلا ، فهو واقع تحت تأثير قوىً غريبة تنبعث مـــن عينيها وتسيطر عليه وتغلبه وتشد وثاقه بقيد لا يستطيع مغالبته وانّ هـــذا الشرك لا يصيد الاّ الذين يحلمون بحياة أخرى غير التي يحيونها :

خذاكِ للخنّس السبعِ العلا فلـــكٌ ومقلتاكِ لشرّادِ الهوى شَـرَكُ (٢)

ويقف الشاعر أيضا عند صورة دموع ذاك الغزال على خدّه ، والدمع رمز الألـــم الذي يعانيه الانسان في هذه الحياة ، وفيض الدمع يوحي بتدفّق الآلام فآلامهـــم في حياتهم كثيرة يرغبون في الخلاص منها ، وتبدو صورة فيضان الدمع عندهـــم مختلطة بصورة تدافع لآلىء العقد في نظام ، لكنه نظم ضعيف واهٍ سرعان مـــا انفرطت خيوطه ، وهذا ايحاء بضياع الجمال وفقده من حياة هؤلاء الشعراء :

أدمعُ ذاك الغزالِ فاض على الـــ خدين أم عِقْدُهُ وهتْ عُقَـــدُهُ (٣)

وتلحّ عليهم صورة الدموع على الخدود فيحاولون ايجاد وجه آخر لها يكون جميـــلا فتلمع في أذهانهم وتطوف بمخيلاتهم صورة النرجس متحدة مع صورة الورد واللؤلؤ الجميل الذي تنشره خيالاتهم على وجه هذه المرأة الحبيبة التي تمثل عندهـــم الحياة ، وتبقى صورة الورود واللآلىء توحي لهم بمعاني العطاء والخير والجمال:

وودّعني من نرجسٍ بجفونهـــا على وردِ خدٍ لؤلؤٌ متناثـرُ (٤)

لكنهم يجدون أنفسهم مضطرين - وهم واقعون تحت سيطرة الألم - الى العـــودة للنقطة التي بدأوا منها والمتمثلة في صورة اختلاط دموع الحبيبة مع دمهـــا في حمرة خديها . وتلح عليهم الحياة بعناصرها المختلفة ومنها عنصر الصـــراع

---

(١) ديوان الشريف الرضيّ ، ج ٢ ، ص ٣٣٢ .
(٢) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٣ ، ص ٤١٨ من شعر ابن العلاّف .
(٣) ديوان السريّ الرفّاء ، ص ٨١ .
(٤) الثعالبيّ ، يتيمة الدهر ، ج ٣ ، ص ٣٠٢ من شعر أبي سعيد الرستميّ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بين الحلال المتمثل في سعيهم نحو المجد والعلا وحقهم فيهما وبين الحرام الذي يتمثل في صورة جريان دموعها كجريان الخمر :

وعبرةٌ في احمرارِ الخدّ حائرةٌ كأنما مرُّ الصهباءِ جاريها (١)

ومن أجل كشف البعد الحقيقي لهذه الصورة نراهم يلملمون أطرافا من السواد الذي يظل عندهم يوحي بصور الهمّ والقلق وهي التي تبدو في اجتماع الخال الأسود في خدّها مع شعرها الفاحم مع الليل المظلم ، وتتكالب هذه الأطراف لتشيع حولهم جوا من السواد المتتابع الذي يغلّف حياتهم :

وخالُكِ في عِذارِكِ في الليالي سوادٌ في سوادٍ في سوادِ (٢)

وفي تصويرهم لشفتيّ المحبوبة تلحّ عليهم صورة اللون الأحمر التي ترتبط غالبا بلون الدماء وهذا يوحي بالثمن الذي يدفعه كل من يريد ولوج الحياة من بابها الذي يليق بالانسان الحرّ ، وكأني بهم يحاولون التنفير من العنف والقسوة في هذه الحياة :

وسودُ النواظرِ حمرُ الشفاه تحسبهنّ ولغنَ الدما (٣)

لكنهم سرعان ما يتجاوزون مثل هذه الصور المثيرة التي توحي بما يلاقون من آلام في سبيل الوصول الى الحياة المستقرة الهادئة الآمنة ، ويصورون أنفسهم وقد تمكنوا من الحصول على طلبتهم منها حين نراهم يتذوقون طعم العسل الأبيض اللذيذ من فم الحبيبة ، الاّ أن قضية تحريم ذلك عليهم ما زالت تتردد في أذهانهم حين نرى العسل اللذيذ يخالطه الخمرة المحرّمة وهذا يوحي بحرمانهم من جوانب الحياة الحلوة التي يحلمون بتذوقها وبالتمتع بحلاوتها وطيبها :

وكم فيه من خوّ اللثات كأنما جرى ضَرَبٌ ما بينها وشَمولُ (٤)

وفي تصويرهم ما يلاقون عند خوضهم غمرات الحياة من أجل الوصول الى معتركها والحصول على ما يريدون من مباهجها نراهم يعددون كثيرا من أجزاء الفم الجميلة التي تنبعث خلال وميض يبرق بألوان زاهية جميلة موشاة مزيّنة ، غير أن بريق هذه الصورة ما يلبث أن يخبو ويغيم وسط سحابة من دموع تنبعث

---

(١) ديوان السريّ الرفّاء ، ص ٢٧٨.

(٢) الثعالبي ، يتيمة الدهر ،ج ٢ ، ص ٢١٩ من شعر عزّ الدولة بن معز الدولة .

(٣) ديوان الشريف الرضيّ ، ج ٢ ، ص ٣٥٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٢١ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

داخل هذا الفم اذ ما زالت فكرة تغلب مرّ الحياة وقسوتها على حلوها ومباهجها وجمالها تلحّ عليهم ونجد الدموع عندهم توحي بمرارة الحياة وقد ظهرت في صورة بكاء الجوهر التي رمزوا بها لوميض أسنانها وسط ماء هذه الأسنان :

ونظامُ ثغرٍ ما تهلّلَ وشيُه الا بكى خَجَلا نظامُ الجوهرِ(١)

ولهذا فانهم لا يفرّقون بين ومضة البرق وتلألؤ الثغر ، اذ أنّ ومضة البرق تعينهم على رسم صورة للمطر الآتي الذي يرمز للعطاء وهو ما يأمله من هذه الحياة فهو برق يتلألأ ضوءه ، لكن هذا الضوء لا يلبث أن يحاط بالليل الداجي الذي يثير في نفوسهم الظلمة والغمّ مرة ومرات :

أبروقٌ تلألأت أم ثغورُ وليالٍ دجت لنا أم شعورُ ؟(٢)

ونرى صورة عطاء هذه الحياة " المطر " غير مكتملة فعندما أغرت هؤلاء ببرقها فان الرعد لم يصاحبه حتى تكتمل أجزاء صورة المطر فالرعد يرمز لهزّة عطاء عظيم لكنّ ذلك لم يكن :

عجبا أشيمُ لثغرِها برقا ولست أحسّ رعدا(٣)

وفي صورة شفاه الحبيبة نرى فكرة الصراع بين الحلال والحرام تتردد في هذه الصورة حين نراهم يحاولون لثم ثغر الحياة الجميلة وهذا يوحي برغباتهم المتكررة في الوصول اليها والحصول عليها ، لكنّ ثغر الحياة عندهم يشبه ثغر كأس الخمر الذي كلما حاولوا الشرب منه تذكروا أنه محرّم عليهم وهذا يوحي بعدم استطاعتهم ممارسة الحياة الحلوة الجميلة التي يسعون اليها وكأنهم محرومون منها :

فاعتنقُ الغصنَ القويمَ لقدّها والثمُ ثغرَ الكأسِ احسبْه فاها(٤)

ويتحد رمزا لمى الحبيبة وخمرة الكأس ليكرّسا فكرة التحريم والمنع عند هؤلاء الشعراء وحرمانهم من جمال الحياة عندما يبرز من يمنعهم من ممارستها وتذوق جمالها ، ويبدو الواشي هنا موحيا بما يسهم في حرمانهم هذا ويحول دون وصولهم لما يريدون :

---

(١) ديوان السريّ الرفّاء ، ص ١٥٠ .
(٢) الثعالبيّ ، يتيمة الدهر، ج ٣ ، ص ١٢٩ من شعر أحمد بن المغلّس .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٣٢ ، من شعر أبي محمد الخازن .
(٤) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٤ ، ص ١٨٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قال واشيها - وقد راودتُها رشفةٌ تبردُ قلبي من لماها
لا تَسُمْها فمها انّ الذي حرّم الخمرة قد حرّم فاها (١)

وفي صورة أسنانها نرى أنهم يرمزون لها بالعقيق والجواهر والدّر واللآلىء وهذه كلها موحية بكل غال وثمين في هذه الحياة ، كما يرمزون لها بالبرد والأقاح وهذه أيضا تشكّل عناصر خصب وعطاء ، ونرى هؤلاء الشعراء يحاولون الوصول الى هذه العناصر الثمينة الخيّرة لكن طريقهم اليها ليس سهلا بل يحتاج الى جهد وتعب يبدوان في استعمالهم فعل " فض " وهو يرمز لصعوبة وصولهم اليها لكنّ اجتيازهم هذه العقبة سيؤدي الى خير غامر من البرد وهو أحد عناصر المطر رمز الحياة والرخاء وسيؤدي هذا الخير العميم الى بروز صورة جميلة تبدو في تفتّح ورود الأقاح المرويّة بماءفمها وهذه صورة لعطاء كثير وخصب دائم ، كما سيؤدي اجتيازهم هذه العقبة الى وصولهم لنوع ثمين من نفائس الحياة وهو الذي رمزوا اليه بالعقيق :

بالله فضّ العقيقَ عن بَرَدٍ يروي أقاحيه من مدام فمِه (٢)

وهم لا يملّون ارتياد طرائق الحياة الصعبة وممارسة مرّها فهم يعهدونها ويعتادون تذوق مرّها وملحها لأنهم سيصلون بعد ذلك الى درّها الذي يبحثون عنه ، عندها تحلو حياتهم ويتحول مرّها وملحها عذوبة باردة وصفاء نقيا :

عهدنا الدّرّ مسكنه أُجاجٌ فكيف تبدّل الشغبَ المعينا (٣)

وفي صورة ريق المحبوبة تتردد عندهم فكرة الماء العذب والغدير الصافي والسحابة الممطرة ، وهي عناصر تخدم جميعها صورة المطر رمز الخصب والعطاء وهو ما يريدونه من هذه الحبيبة (الحياة) تلك التي حرموا عذوبتها وصفو عطائها ولا تستطيع الأشياء الصغيرة ذات القيمة القليلة تعويض ما فقد هؤلاء من فيض الحياة وعطائها العميم :

سنحتْ لنا دون الغديرِ فما سقى صفوُ الغدير وعذبُه من أعطشتْ (٤)

وتذوقهم حلو الحياة ان استطاعوه يكون قصيرا قليلا سريعا وكأنهم يخطفون من الحياة ما ليس لهم حق فيه ، وتكريسا لهذا المعنى فقد صوروا صورة لملموا

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٤ ، ص ١٨٣ .
(٢) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٤ ،ص ١٠ من شعر القاضي الجرجانيّ .
(٣) ديوان الشريف الرضيّ ، ج ٢ ، ص ٥٤٧ .
(٤) ديوان مهيار الديلمي ، ج ١ ، ص ١٧٥ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

أجزاءها من مخالستهم الوشاة في سبيل تنسّمهم عبق الحبيبة الطيب لكنهم لا يلبثوا أن يجدوا ذلك محرّما عليهم عندما يظهر لهم هذا العبق منبعثا من ريقها الذي يشبه طعمه طعم الخمرة البيضاء التي خالطت حمرة ، وما زال اللون الأحمر منتصبا في طريقهم اينما اتجهوا في هذه الحياة :

خالستُ قبلتَه الوشاةَ كما أدغمتُ الحرفَ دمجا
ففتحتُ عن غرٍّ تمج المسك والصهباء مجّا (١)

وتتوالى احباطات الحياة عليهم حتى لتدفعهم الى البكاء ألما لحرمانهم من كل عذب فيها وقد أوحت دموعهم لكثرتها بالمطر الذي يرجون أن يعمّ حياتهم فيخصبها .

ما على ساقي دمعي مُغدِقا في رضابٍ لو سقاه مبرضا (٢)

وهم ما زالوا يلحّون متسائلين آملين في أن تجود عليهم الحياة بما ينقع غلّتهم وقد وجدوا أنفسهم محرومين من كل عذب فاقدين كل جميل :

أفيروى عندكم ذو غلّة عدم الظّلم فما يشرب بردا (٣)

وهذا الطعم العذب الذي ينبعث من ثنايا هذه المرأة أي من عناصر الجمال في هذه الحياة هو الذي سيجعل مرّ حياته حلوا طيبا لو أصابه :

ولو نفضتْ تلك الثنايا بردَها على الصبرِ الممرورِ كاد يطيبُ (٤)

وفي حديثهم عن جيد المحبوبة نراهم قد صوروا استشرافه ومحاولاته المستمرة الوصول الى الركب ومسايرته ، والركب السائر رمزٌ لمسير الحياة نحو المجد والنور ورغبة الشعراء في ذلك ، لكنّ هذه الطّبية التي هي صورة للمرأة الحبيبة تظهر كثيرا من المطال والحياة التي تقابلها فيها خداع ومراوغة ومطال تتعب بها أبناءها العاشقين لها :

شهيُّ اللّمى عاطٍ الى الركب جيدُه ختولٌ لأيدي القانصين مطولُ (٥)

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ، ج ١ ، ص ١٨٠ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٣.
(٣) المصدر السابق ، ص ٣٣٣.
(٤) ديوان الشريف الرضيّ ، ج ٢ ، ص ٤٨٥ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٢٢١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وفي صورة أخرى تبدو هذه الظبية شديدة الحزن خشية فقد خشفين لهما ضاعا ، وهذه العلاقة الأزلية الوثيقة بين الأم وأبنائها ترمز للرابطة المتينة بين الحياة وأبنائها ، فالحياة على ما فيها من مصاعب وشدائد وآلام قد تحن الى هؤلاء الأبناء ويكاد الحزن يفطر قلبها خوف فقدهم ، وعندما نرى الظبية تحنّ الى القرب من أبنائها ، فهذا رمز لجمال الحياة وبهائها في عيونهم وظهور هذه الحياة في أبهى صورها التي يريدونها منها :

ويومَ الكثيبِ استشرفتْ لي ظبيةٌ مولّهة قد ضاع بالقاع خِشفاها
يدلّه خوفَ الثكل حبة قلبِها فيزداد حسناً مقلتاها وليتاها(١)

بل تحسن صورة الظبية عندهم وهي تدفع عن نفسها بيدها وهذا رمز لصدّ الحياة عند محاولتهم نيلها، وهم لا يريدون نيلها بسهولة وانما يريدونها بعد مدافعة وممانعة :

تصانعُ عن أجيادِها بأكفها فيحسن عند المستهام صنيعها(٢)

وفي معرض تصويرهم صدرها نجدهم يجعلون نجل العيون سببا يدفعهم لعشق هذه الحبيبة ويخصون من معالم جمالها صدرها الأبيض النقي . وقد قلت سابقا أنهم جعلوا العين رمزا للنافذة التي يطلّون منها على هذه الحياة وهي السبب الذي يقودهم لعشق نقائها وصفائها اللذين يوحي بهما لون صدرها الأبيض النقي وجبينها الصافي :

ولولا العيونُ النجلُ ما قادَنا الهوى لكلّ لبانٍ واضحٍ وجبينِ(٣)

هذا الصدر الأبيض الصافي النقي الذي يرمز به الى واجهة الحياة يزداد جمالا عندهم اذا كان مزيّنا ، والزينة ترمز لزخرف الحياة التي يتعلق بها الانسان، هذا الصدر يعشقه الشاعر ويسعى وراءه لأنه ينفحه عطرا طيبا ويزدان بطلع زهور رقيقة ناعمة وبخصب عميم يصيبه من عطاء السماء ، وهذه كلها رموز لجوانب الخير المختلفة التي يريدها الشاعر من هذه الحياة :

ومترفِ الترب مجّاجِ الندى عطرِ مفوّفِ النوْر موسومِ الثرى خضلِ(٤)

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٤ ، ص ١٨٣.
(٢) ديوان السريّ الرفّاء ، ص ١٦٤.
(٣) ديوان الشريف الرضيّ ، ج ٢ ، ص ٤٨٥ .
(٤) الثعالبيّ ، يتيمة الدهر ، ج ٣ ، ص ١٢٤ من شعر الحمدوني .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وعندما يثمر هذا الصدر ويطيب ثمـــــره فانه يحرم على الشاعر قطفه أو لمســه والتنعّم به ، وهنا يعود هؤلاء الشعراء الى فكرة المنع والتحريم لهـــــذه الطيبات من أن يقربها أحد منهم :

وعلت ثمار صدورها أجسادهـــا فحرمن مسّ مجاسد وربـــــاط(١)

وفي حديثهم عن صور كفيها وأصابعها وخاصرتها نرى أطرافا متعددة من الجمـــال الوضيء والنعومة والزينة ، لكنها جميعا محرّمة عليهم وهذا كلـه يرمـــــز لحرمانهم من مباهج الحياة وزينتها .

وفي تصويرهم جسم هذه المرأة نراهم يشكّلونه من رمح طاعن بل نصـــل جارح أصابهم منهما أشدّ الألم وهذا هو ما يجده هؤلاء الشعراء من هذه المـــرأة (الحياة) .

رمحٌ ونصلٌ لا كمـــــا سموهما هيفا وغنجـــــا(٢)

وقدّ هذه المرأة يثير في أذهانهم صورة المها النافرة وهي التي توحي بنفـــور الحياة وصدها عنهم وتوليها في وجوههم وهذا ما يزيدهم تمسكا بها ويجعلهـــم يكرّسون صورة نفور المها بدافع من نفور الحياة في وجوههم فيوالون المسيـــر نحوها ويزدادون عنادا في سبيل الامساك بها والحصول على مطلبهم منها:

فلقد عهدت بها كنافرة المهـا من كل ممشوق القوام قضيـف (٣)

وهذا القدّ اذن يجمع الى نفوره الطعن والجرح وهذه عناصر تتكالب معا لتكمـل صورة حياتهم المؤلمة . وهم يؤكدون تمسّكهم بها كلما أمعنت هي في اظهـــار جمال قوامها الجارح ليظفروا بما شاءوا من جمالها الممتنع عليهم :

قد أقام القوامُ حجة عشقـــي وأبانَ العِذارُ في الحب عذري(٤)

وفي صورة نعومتها وغيدها نرى هذه المرأة قد فتنت هؤلاء الشعـــراء بنعومتها وهم يوحون بذلك ببعض أشكال الحياة ومظاهرها الناعمة لكنهـــم وفي حقيقة الأمر عندما يكابدون أهوالها ويسبرون أغوارها يجدونها مؤلمـــة متعبة قاسية اذا ما طالبوها بتحقيق مآربهم منها :

---

(١) ديوان السريّ الرفّاء ، ص ١٥٨ .
(٢) ديوان مهيار الديلمي ، ج ١ ، ص ١٨٠ .
(٣) ديوان الشريف الرضي ، ج ٢ ، ص ١٢ .
(٤) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ من شعر أبي اسحق الصابـــي .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وذا هيفٍ من يابسِ الصخرِ قلبُـه وان كان من لينٍ يحلُ ويعقِدُ(١)

ويبدو التناسق في صورة باقي أعضاء جسم المرأة الحبيبة بحيث تصبح معالم جسمها مكملة بعضها في الحسن، وفي هذا رمزٌ للحياة التي اذا ما تمكنوا من أن يعيشوها بانسجام وتآلف وتكامل فانهم سيحصلون على بغيتهم منها :

مثقلات أردافهنَّ ولكن مرهفاتٌ من فوقهنّ الخصور(٢)

هذا التناسق والانسجام في مختلف معالم حياتهم يملك عليهم نفوسهم ويأسرهم بقيود من الحسن والجمال يروا سماتها بارزة واضحة في هذه المرأة التي تمثل الحياة :

حكمتْ في الحسن حتى ختمتْ سمةَ الرق على عنق الجمالِ (٣)

وقد أخذوا بهذا الجمال وأحبوه أشدّ الحب حتى ليروا أنفسهم عازمين على التضحية بأنفسهم من أجله ، وهذه هي الحياة السامية المجيدة تريد أنفسا وأرواحا تباع وتشترى فداء لها ومن أجلها :

جلبَ الجمالَ يريدُ أنفسَنا به ثمنا فتاجرناه فيه كما اقترحْ(٤)

وهذا ما يجعل نيل الحياة الشريفة الماجدة غاليا مكلفا يتعب صاحبه ويكلّفه ثمنا باهظا . وفي صورة لباس هذه المرأة نرى الشعراء قد تعلّقوا بها وبزخرفها وهم يرمزون الى عشقهم لهذه الحياة باطنا وظاهرا ، فقد أحبوا مضامينها وأشكالها الخارجية ، وافتتنوا بها نقية عفيفة نظيفة خالية من الدنس ، ويتكامل هذا المضمون النقي الطاهر مع شكلها الجميل الأخّاذ في اطار صورة بهية تريح النفس وتبهج الخاطر وتسر العين :

عفّاتُ ما تحت الحُبى والخمرِ الا المُثّلا(٥)

هذه الحياة التي أخذ بها هؤلاء الشعراء هي بحاجة الى أناس متوثبين متأهبين دوما لاقتحام أهوالها وخوض ميادينها ، أما من يترهب ويعفّ عنها وينكمش في وجهها - والذي رمزوا اليه بالناسك المترهّب الهارب من مواجهة الحياة -

---

(١) ديوان ابن نباتة السعدي ، ج ١ ، ص ٥٤٢ .
(٢) الثعالبيّ ، يتيمة الدهر ، ج ٣ ، ص ١٢٩ ، من شعر أحمد بن المغلّس .
(٣) ديوان الشريف الرضيّ ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .
(٤) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٣ ، ص ١٣٤.
(٥) المصدر السابق ، ص ١٤١ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فانه لن يكون قادرا على الاستمرار في نسكه هذا اذا ما أراد لنفسه الحياة الماجدة النبيلة . ولا بدّ له من الاقدام اذ أن نور الحياة الذي رمزوا اليه بوجه هذا المرأة يكمن تحت الخمار الذي تشرأب نفوسهم اليه وتتطلع أرواحهم الى مصدر هذا النور تحته ، فلا بد اذن من أن يزيح هذا الحجاب ليصل الى النور الذي تتطلع روحه اليه وتهفو نفسه لملامسته في هذه الحياة :

قلْ للمليحةِ في الخمارِ المذهَبِ أفسدتِ نسكَ أخي التُقي المترهبِ
نورُ الخمارِ ونورُ وجهِك تحتَه عجباً لوجهك كيف لم يتلهّبِ(١)

هذه الحياة التي يريدونها قوية نشطة فائرة جعلتهم يصورونها بصورة امرأة شابة صبية تتميز بصباها وبصفر سنها وبنعومتها واشراقة الجمال في وجهها ونشاط جسمها وحيويتها .

لذلك عشقوها وتعلقوا بها تعلقا لا يستطيعون معه نسيانها أو السلوّ عنها .

---

(١) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٢ ، ص ٣٤٦ ، من شعر المحسّن ابن القاضي التنوخي .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المرأة في الصورة المعنوية ودلالتها الكليّة

بعد دراسة هذه النصوص والأبيات الشعرية التي تتناول الصورة المعنوية للمرأة الحبيبة يمكنني رسم صورة لهذه المرأة تتشكّل من مزيج من الحرمان والصدّ والهجر والايلام وتمسي مصدر الهمّ والقلق وسبب المرارة والنحول والنصب ومع هذا فما تزال الحبيبة في نفس الشاعر المحبّ معنى البهجة والفرح وزينة الحياة وعرس الأيام ، فإن فارقته ففي فراقها غياب الفرح وحلول اليأس والشقاء ، وهي الجمال الذي يشرق فيضيء حياته ، فان غاب فالى ظلمة موحشة وديجور قاتل ويأس الى حد الموت ، لكنها ما تزال تؤلمه بفراقها وبعدها ومنعها الوصل .

وتمثّل هذه الحبيبة بعثا رئيسا من بواعث آلامه اذ ما تزال تعمل على تكريس هذه الآلام بمخالفته والصدّ عنه ومناكفته . وهو ممعن في التمسّك بها . ومدفوع لذلك بحكم تقلّبها الذي يلوّح له أحيانا بندمها على فراقه وهجره ، فيمنحه هذا أملا ويحيي في نفسه رجاء بوصل قادم وود منتظر وهو متعطش دوما له حتى ان قربها منه يزيده سقما وطمعا في المزيد ، لكن هذا القرب ما يلبث أن ينتهي بمثل ما اعتادت عليه الحبيبة من البعد والهجر فتصبح أيضا سبب شحوبه ونحوله ، ومما يزيد مزيج صورتها جفافا ويفقدها رونقها وبهاءها مماطلتها وظلمها وتقلبها وبخلها وتأرجحها في علاقتها مع حبيبها مع أن قلبه لا يمكن أن يطاوعه في ظلمها وهجرها .

ويزيد ألوانها قتاما تلذذها بألمه الذي لم يكن يوما لولا ظلمها وهجرها وتجاهلها سبب نحوله وهي سببه ، واطاعتها الوشاة الحاسدين ونفورها من شيبه عندما أحست بأوان توديعه للشباب .

لكنّ ربيع الآمال ما زال يعاوده ويلحّ عليه فيورق في نفسه نضرة ورجاء يجعلانه يذهب بعيدا في تصوراته فيرى نفسه ساكنة مطمئنة الى حبيبة واصلة ، الا أن الربيع لا يدوم بل لا بدّ من حلول جفافه ويباسه فتعود الحياة معه قاحلة جافة وتمّحي الآمال والصور الجميلة وينطفىء مصباح الرجاء والأمل وهو ما زال ما ضياً في حبها متمسكا بها يتعشقها ويطلبها مهما اشتطت في ظلمها وقسوتها وصدّها .

هذه هي صورتها ليس فيها غير عذابات دائمة للشاعر وحرمان وألم وقسوة قد خلت من كل فرحة حقيقية بلقاء دائم وود واصل غير مقطوع مع تعلق

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

شديد من الحبيب بها وبقيدها الذي فرضته حول عنقه والذي لا يستطيع منه فكاكا، وقد يكون ما عرضتُ من صور مختلفة للمرأة عند شعراء هذه الدراسة نابعا من تجارب حب حقيقية لهؤلاء الشعراء أو منقولا عن تجارب غيرهم في مجتمعهم أو في مجتمعات أخرى قد وصل اليهم كما وصلت ثقافات هذه المجتمعات .

ويؤكد" الدكتور عبدالقادر الرباعي " أنه ليس من الضروري أن يكون وراء آراء الشاعر في الحب فعل واقعيّ جرّبه حقيقة ، وانما يكفي أن يكون صادقا في التعبير عن آراء استخلصها من تجارب الآخرين سواء بالاطلاع المباشر عليها أو بتحصيلها من الثقافة ، فهو يعبّر عنها بصفته انسانا ينقل تجربة انسانية عامة تمس فكر كل انسان في الوجود " (١)

ويقول الدكتور " مصطفى ناصف " في هذا الصدد " سواء لدينا أكان الشاعر ذا ودّ خالص أم لم يكن ، ان لدينا أفكارا تتردد بوضوح ومن حق هذا التردد أن يكون له معنى ولو كان غامضا " (٢)

ويقول في موقف آخر له " حقا ان الشعر قد ينبع من تجربة حقيقية ، ولكن الشاعر يحرّف هذه التجربة ويعدّلها " (٣)

وأيا كان مصدر تجارب شعراء هذه الدراسة فإنني أراهم قد حققوا نجاحا فنيا كبيرا حين تمكنوا من نقل هذه التجارب من حدودها الشخصية الضيقة المنحصرة في ذواتهم لتتسع فتشمل تجارب أبناء مجتمعهم عامة ، فقد عبروا عن همومهم الذاتية في الحب مندغمة ومنصهرة في الهمّ الجماعي الذي شاركوا مجتمعهم عامة فيه ، وربما شاركهم هذا الهمّ غيرهم من أبناء المجتمعات الأخرى خلال تجربتهم الانسانية عامة .

ولقد كان أولئك الشعراء نفرا صنعتهم الحياة فعرفوها مأخذا يتناولونه كل حين ، وكانت الحياة في عصرهم قلقة لا تعرف الاستقرار ، ثائرة لا تعرف الهدوء مضطربة لا تقف عند حال ولا تركن الى جانب قاسية ليّنة ،

---

(١) عبدالقادر الرباعي . الصورة الفنية في شعر أبي تمام ، ص ٧٢ .

(٢) مصطفى ناصف . قراءة ثانية لشعرنا القديم ، ط ٢ ، دار الأندلس ١٩٨١ ، ص ٦٨ .

(٣) مصطفى ناصف ،دراسة الأدب العربي ، ط ٢ ، دار الأندلس ١٩٨١، ص ٣١٩.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

مرّة حلوة ، ملأت نفوسهم فوجدوا قسوتها تفوق لينها ،ومرارتها أكبر من حلاوتها وكثيرا ما صدّت في وجوههم ونكصت عنهم مولية ، فأخذوا يبحثون عن علاج لقضية الحياة التي ملأت نفوسهم وأرادوا امتلاكها ماجدة شريفة نقية تليق بانسانيتهم فوجدوا أنّ دواءها القوة وعلاجها التصدي والثبات والسبيل اليها أخذها بالاقتدار .

وساعدهم في ذلك أنهم كشفوا وجوه الحياة المختلفة فرأوها تخذل أهلها وتصدّ عنهم حين يقبلون عليها وعرفوها مديرة مقبلة ، مرة حلوة ، مانعة معطية ، فحاروا في أمرها لكن حيرتهم هذه كانت تخلق في ذواتهم توثبا يبدو في سعيهم المستمر نحو هذه الحياة نابذين اليأس والملل ، يستثيرون فيها المجد والوفاء حينا،والرحمة والعدل أحيانا اذ أنهم ما زالوا متعلقين بالأمل تعلقا كبيرا انتظارا لمجيء لحظة يصلون فيها الى ما يريدون ، وهذا ما يعطي شعرهم قيمة وتجددا .

فهم في تغنيهم بهذه الحياة يبرهنون أنهم أصحاب مواقف ثابتين على مواقفهم تحمل ذواتهم بصبر واصرار ما جرّعتهم هذه الحياة من كؤوس العذاب والحرمان .

وقد رددوا هذه الأفكار والمواقف وهم في معرض حديثهم عن صور المرأة التي اتخذوا منها ستارا نستشف من خلاله آراءهم في الحياة التي اتخذوا شعرهم أداة لها عندما عرفوا ماذا يريدون منها ، هذه الحياة التي ولّدت في نفوسهم نداء داخليا عميقا سبّب لهم توترا عاشوا بسببه مكروبين يعانون أزمات حياتهم الصعبة وزمنهم القاسي ، فكانت المرأة بصورها المختلفة دلالة عليها ومتنفسا استطاعوا من خلاله نفث همومهم وأحزانهم وأسقطوا عليها معاناتهم وآلامهم المختلفة .

وأقول أيضا إن هؤلاء الشعراء قد عاشوا حياة قلقة لكن قلقهم كان من نوع آخر ، فقد كانت نفوس العرب منهم خاصة تعجّ بصنوف شتى من الخوف ، الخوف من فقدان وضياع الماضي العربي التليد بكل ما يحمله من صور الزهو والفخار وعلى رأسها صورة التراث الأدبي الذي مضى بجودته في الوقت الذي بدأت ألوان من الشعر الرديء تطلّ برأسها وتتخذ لها موقعا ويصبح لها كيان وأخذت تهدّد الشعر العربي الأصيل في حياته وكيانه [1].

---

(١) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ط ٩ (دار المعارف ، مصر) ١٩٧٦ ، ص ٣٥٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وكانت نفوس هؤلاء العرب ومن سار على سننهم وتبع خطاهم من الفرس قلقة لتوقها الدائم الى حياة جديدة يقطفون منها ثمار آمالهم ويدفنون في أرضها يأسهم وأحزانهم ، ولذلك أشاعوا في شعرهم نسيبا رقيقا تتردد في ثناياه نغمات الأسى واللوعة واليأس والأمل متزامنة مع ما رأوا في تلك المرأة الممتعة الممتنعة التي تعثّر هؤلاء في شباك هواها .

وقد نعثر على مثل هذه المعاني عند غيرهم من الشعراء لكننا نجدهم يستخدمونها استخداما مختلفا ، ذلك أن المرأة عند شعراء هذه الدراسة قد اقترنت بدلالة خاصة حينما رأوا فيها همّهم الذي يعنّيهم ، فجاء تصويرهم لها منسجما مع أفكارهم ومواقفهم إزاء هذا الهمّ الكبير الذي صدروا عنه .

وفي ضوء ما تقدّم من معان سلبية بدت في الصورة المعنوية للمرأة الحبيبة أرى أنه لا يعقل أن تكون هذه هي جوانب لصورة امرأة حقيقية أحبها شعراء هذه الدراسة وأرى لزاما عليّ اعادة النظر في صورتها هذه من زاوية أخرى تكون أقرب لما يريد هذا الشعر قوله ، زاوية أرى المرأة فيها رمزا للحياة الفاسية ، حياة الحرمان والألم التي عاشها شعراء هذه الدراسة في ذلك المجتمع الذي اقتضت ظروفه أن تسوده حياة الفساد والتهتك .

وليس اتخاذهم المرأة رمزا لتلك الحياة بالأمر البعيد ، فقد اعتاد الشعراء كثيرا أن يتخذوا من صورتها رموزا لرؤى كثيرة في الحياة يمتاحونها من أجل التعبير عما في نفوسهم من معان مع أنه قد يخيل الينا من القراءة الأولى أن الشعراء يخاطبون نساء حقيقيات في مواقف مختلفة ومن زوايا متعددة .

ولقد وجدتني بعد تعمّق هذا الشعر مدفوعة بل ومندفعة نحو هذا الرأي بعد أن تبينت ما يلي :

١. ورود صور الغزل هذه في مقدمات قصائد هؤلاء الشعراء أمام الحاكم البويهي الذي يخشون التصريح أمامه بما يلاقون ويلاقي غيرهم من بلاء وعنت فاتخذوا من صورة المرأة مشجبا علّقوا عليه هذه المعاني التي تتردد في نفوسهم والتي لا يستطيعون التعبير المباشر المريح عنها .

٢. بُعد هؤلاء الشعراء واغترابهم وشططهم في تصوير مواقف المرأة في هذا العصر تصويرا سلبيا يفوق كثيرا مواقف قريناتها من النساء في غيره من العصور وتهالك الرجل عليها واغراقه في التمسّك بها مع أنه لم يجد منها ما يشير الى رغبتها في الاقبال عليه أو منحه بارقة أمل في ودّ مرجوّ ووصل مأمول .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

٠٣ ان هذه المواقف السلبية للمرأة والتي تبينها في هذا الشعر تناقض ما عرف عن ذلك المجتمع وعن مواقع المرأة فيه وما تمتعت به نساؤه من حرية ، ومع الاشارة الى أن النساء العربيات يبقين دوما يشكّلن طبقة بعيدة عن حياة غيرهنّ من نساء العصر ، فانه لن يكون بمقدورهن الانعزال وعدم الانفتاح على تلك الحياة ولو بقدر وكان لا بدّ من ظهور أثر لهذا الانفتاح في تصوير هؤلاء الشعراء لمواقف النساء الحبيبات في ذلك العصر .

٠٤ ما قدّمتُ عن غياب دور المرأة العربية غيابا كبيرا على الصعيدين الاجتماعي والسياسي فقد كادت الساحة أن تخلو منها الاّ في هذه الصور التي عرفناها والتي كانت رموزا موازية لوعي الشعراء بما يعانون وسبيلا للتعبير عن أحاسيسهم وحالاتهم النفسية التي كانت المرأة دلالة عليها .

ولو افترضنا جدلا أن الشعر الذي مرّ بنا قد تناول امرأة حقيقية ، فأي امرأة تلك التي لا يرى فيها حبيبها سوى الحرمان والشكوى والألم ، ولم يجد منها غير الصدّ والسقام والظلم ، ولم تكن الاّ مصدر الهمّ والقلق وسبب النحول والشحوب والرهق ؟! وهو مع هذا شديد التمسك بها دائم الاقبال عليها ، أيّ امرأة تلك ؟! وأيّ رجل هذا ؟! نموذجان يستحيل وجودهما معا الاّ اذا كان أحدهما رمزا اتخذ من أجل اعادة صياغة أمر من أمور الحياة .

وكثيرا ما وجدنا الشعراء عبر العصور المختلفة ينظرون للحياة من خلال مرايا كثيرة قد تكون امرأة أو راحلة أو صحراء أو أي شريحة طبيعية أخرى ، فليس غريبا اذن أن يعمد شعراء هذه الدراسة الى الاتكاء على صورة المرأة وهم في موقع نظرة وتصوير للحياة التي يعيشون بل الغريب أن يشذوا عن النهج الذي اعتاده الشعراء في كثير من مواقفهم .

لذا فانني أرى أن كل ما مرّ بنا من صور معنوية للمرأة الحبيبة في هذا العصر وعند شعراء هذه الدراسة ما هو الاّ رموز لحياة القسوة والهمّ والقلق والوشاية ودلالة على الألم والفزع وحياة الظلم والحرمان حتى الهلاك . وحيث أنهم لم يقدموا صورا مضادة في هذا المجال فان ذلك يدفعني الى التمسك بهذا الرأي وهو أنني وجدتهم قد رأوا الحياة بكافة صورها ممثلة في عيون النساء اللائي عرفوا فأرادوا أن يعيدوا صياغة نظراتهم ومواقفهم من تلك الحياة في صور غزل متعددة مختلفة حيث أن الغزل كان وما يزال هو المعبّر الصادق عما يجيش في صدورهم وهو الفن الذي تجلّت فيه عبقرياتهم وصدروا فيه عن ميولهم ونوازعهم .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فقد تمثلت صور هذه الحياة في حبيبة مفارقة حبيبها مولية عنه تحرمه فتؤلمه وتوجر قلبه :

كأنّ قلبي يوم البين طارَ به من الرّفاع نجيبُ الساق عدّاءُ(١)

وهو حبيبها الذي عشقها وتعلّق بها وتحمّل آلامها ومتاعبها راضيا يريد منها أن تحبه وتصله ولا يريد أن يفقدها أو يفارقها اذ ان فقدها يعني زوال كل جمال وبهجة من حياته :

يا دارُ جاذبها الفراقُ جمالها فغدا وراحَ على ظهورِ جمالِه(٢)

وما هذا الا دلالة على ما كانت عليه حياة هؤلاء الشعراء في ظل المجتمع القاسي الذي ساده الظلم والقهر على أيدي حكّامه .

فهي حياة آلام ومتاعب وخراب وتدمير يتمنى الشاعر دوما أن تصبح حياة مفادة لما هي عليه فتكون مصدرا للبهجة وبعثا لكل مظهر لطيف طيب حي فاعل وهو يسعى جهده لكي يراها كذلك ، لكن فقد هذا يعني زوال الجمال من دنياه وفي نفسه فان صدت هذه المرأة " الحياة " عنه وقطعته فانها بصدودها وقطيعتها تمثل بعثا من بواعث آلامه حين يحاول هو وصلها وتصفية الودّ لها :

أقربُ بالودّ وبنأى به ويلي على بعدكِ من قربِ(٣)

وان وصلته هذه المرأة الحبيبة فان ذلك دلالة على رضى الحياة عنه ممثّلة في رضى الحكام ، لكنّ سنّة الحياة السياسية في ذلك المجتمع القاسي كانت تقضي بأن من يحوز رضى الحاكم اليوم يكون مهددا بالفتك والظلم والبطش غدا ، لذا كان الوصل أحيانا يمثل موضع ألم يورث الشاعر السقام فيصبح دواؤه داءه :

أشكو الى اللهِ قلباً لا قرارَ له قامت قيامتُه والناسُ أحياءُ
ان نالَ منكم وصالاً زادَه سقَماً كأنّ كلّ دواءٍ عنده داءُ(٤)

---

(١) ديوان الشريف الرضيّ ، ج ١ ، ص ٤٨ .
(٢) ديوان السريّ الرفّاء ، ص ٢٧٥ .
(٣) ديوان الشريف الرضي ، ج ١ ، ص ١٧٦ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٤٨ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أما لحظة الوصل فانها قد تؤنسهم وتبعث السرور في نفوسهم الا أنها لا تطول مع توالي زحف الآلام وتقلّب الحبيبة والحياة :

واني لأهوى أن أكون بأرضكم على أنني منها استفدتُ سَقامي (١)

لذا غدت المرأة " الحياة " مصدر همّ الشاعر وقلقه وسبب ألمه وشحوبه بظلمها له مع ادراكها حاله فيها ومع هذا فان أمله فيها يبقى خيرا ، وفي كل أمل يلاقي خيبة ومماطلة وتسويفا .

يماطلني عنها الخليُّ وقد درى على غدرهِ أن العهودَ دبونُ (٢)

وبتذبذب المرأة وتأرجحها يدل على تقلب الحياة في اقبالها على كثير من الناس ثم توليها وادبارها في وجوههم ، فالحبيبة لا تثبت على حال في حين نرى الحبيب مقبلا عليها مندفعا اليها وهي لا تتوانى عن هجره والصدّ عنه وايلامه غير معيرة تمسكه بها وتطلعه اليها قيمة واعتبارا .

فلله ما أصفى وأكدرَ حبَّها وأبعدَها مني الغداةَ وأدناها (٣)

وليس هناك من مبالاة ، منها بما يلقى من بلاء في حبها ، وكثيرا ما بكى ألمه وعظمت مصيبته في الوقت الذي يرى الأيام والدهر ينظران اليه ساخرين ضاحكين لأنهما والحبيبة قد تعاونا على ابتلائه وايلامه .

أنتِ والأيامُ ما أنكرتِهُ وبلاءُ المرءِ يومٌ أو خليلُ (٤)

وقد يحاول التداوي من آلامه وشحوبه ونحوله لكنّ الطب لا يفيده لأن دواءه في دائه ، فالحياة منها مرضه وفيها شفاؤه وهو لا يريد خلاصا لا منها ولا من الحبيبة :

دعوا لي أطباءَ العراقِ لينظروا سقامي وما يغني الأطباءُ في الحبِّ
يطيلون جسّ النابضيْن ضلالةً ولو علموا جسّوا النوابضَ من قلبي (٥)

ومع امعان المرأة " الحياة " في تجريحه تبقى بارقة الأمل تتراقص أمام عينيه يرجو وراءها صفاء الأيام ونقاء الودّ فينسى هذه الآلام وتلك الجراح وذاك

---

(١) دمية القصر وعصرة أهل العصر، من شعر الشريف المرتضي . ج١ ،ص ٢٩٩.
(٢) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٤ ، ص ١٥٨ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٨٣.
(٤) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٧٩.
(٥) ديوان الشريف الرضي ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

البكاء ويواصل سعيه وتطلّعه لتحقيق آماله وأحلامه ، وهو - من واقع حاله - يرى أن كلّ ما يرجو لن يطلع عليه فجر ولن يأتي به غد لكنه غير يائس من امكان تحقق الرجاء والأمل بعد الألم والبكاء :

فراقٌ شربنا الماءَ صِرفاً بكأسِه فيا طيبُه لو كان صابا وعلقما (١)

ولا ينسى شعراؤنا دور الوشاة الذين شغلوا في الحياة زمن البويهيين حيّزا كبيرا اذ كان الحكام يفسحون لهم في مجالسهم ويشجعونهم على القيام بهذا الدور وكثيرا ما ضاعت أرواح وأموال جرّاء عملهم الشائن وقد كان دورهم بين الأحبة في هذا الشعر دلالة على ذلك فمهمتهم هي هي تتمثل دوما في السعي لافساد العلاقات وتخريب العامر بين المحبين وتضييع الحب بجماله وروعته فسخط عليهم شعراؤنا المحبّون وتمنوا لو لم يجد هؤلاء آذانا صاغية سواء عند الحكام المتسلطين على الحياة أو عند الحبيبات اللواتي يزينّ الحياة ويعطينها البهجة والرونق والروعة :

لعمرُ الواشياتِ " بأم عمرو" لقد أغرينَ والتأنيبُ يغري
حسدنَ مودةً فحملنَ إفكا وعبنَ وعائبُ الحسناء يغري
يُردنَ على الوفاءِ نزوعَ خلقي وما ساومنني شططاً كغدري (٢)

ولأن الحياة تتطلع دوما الى البراعم المزهرة رأينا الحبيبة تهفو الى حبيبها في شبابه وتصدّ عنه في مشيبه فهي ترى الأمل في الشباب ، لكن هذا الأمل يخبو كلّما تقدم العمر واقترب زمن المشيب ، وهي تريد الأصلح والأصلح هو الأقوى والقوة لا تكون الاّ زمن الشباب ومقتبل العمر فنراهم يحاولون جاهدين اقناع الحبيبة " الحياة " بدوام قوتهم ونشاطهم وفاعليتهم حتى في مشيبهم لكنها ترفض ذلك وتصد عنهم .

أحينَ فشا الشيبُ في شعره وكتمَ أوضاحَه بالخضابِ
تروعين أوقاتَه بالصدودِ وترمين أيامَه بالسّبابِ
تخطّ المشيب الى رأسِه وقد كان أعلى قبابِ الشبابِ (٣)

فيؤلمهم ذلك منها وينكرون عليها هذا الموقف ويتهمونها بالغدر والخيانة بل تنعكس مواقفهم وتنقلب الى كره الشباب الذي تحبّه هي وتفضّله لأنهم أخذوا يرونه زمن الذلّ والعبودية للهوى والغرام :

---

(١) ديوان السريّ الرفّاء ، ج ٢ ، ص ٦٨٢ .
(٢) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٢ ، ص ٦٧ .
(٣) ديوان الشريف الرضيّ ، ج ١ ، ص ١٢١ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

دع للمشيب ذمـــــــــــــــــة انّ له عندي يـــــــــــدا
أعتق من رقّ الهـــــــــــوى مذللا مقيّـــــــــــــدا (١)

مع أنها بمواقفها السلبية المتكررة هي التي أدت الى ظهور الشيب في رأس المحبّ مثلما كانت سبب نحوله ومرضه .

وإزاء عنادها واصرارها على موقفها يحاول أن يأتيها من زاوية أخـــرى لعلّه يلقى عندها قبولا واستحسانا ، زاوية يرقى فيها للمجد والعلى ويتطلـــع منها الى نيل الشرف في ميادين المعارك ومقارعة الخطوب ، وهو في وقفتـــه هذه يرى نفسه جديرا بالحبيبة وبالحياة الحرّة الكريمة .

هذا النصَب والتعب الذي يعانيه مع الحبيبة جعله يلجأ الى لحظـــات يركن فيها الى نفسه ويسبح مع خياله فيرى حياته وحبيبته في أطيـــباف ورؤى وأمان عذاب يحلم بها فتصدقه هذه الاحلام أمانيه أحيانا وتلحّ عليه فكـــرة الصدّ والهجر والمنع أحيانا أخرى عندها يتواصل واقعه وحلمه وتكرّس المواقف السلبية فيهما معا .

---

(١) ديوان الشريف الرضيّ ، ج ١ ، ص ١٢١ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مقطع المرأة وأثره في هذا الشعر

عند دراستي مقطع المرأة في شعر أصحاب هذه الدراسة وجدت أن ذكرها قد ورد في مقدمات قصائد مدح الحكام والوزراء وذوي الشأن من البويهيين وغيرهم وأرى أن مجيئها في مقدمات هذه القصائد أمام هؤلاء الحكام انما قصد به جلب انتباههم الى الماضي العربي ممثلا في بعض جوانبه مثل ترديدهم لأسماء الأماكن الحجازية والنجدية التي كثر ترديدها على ألسنة الشعراء العرب في السابق :

أحبُّكِ ما أقام " منىً " و " جمعٌ " وما أرسى " بمكةَ " أخشباها
وما رفعَ الحجيجُ الى " المصلى " يجرّونَ المطيّ على وَجاها
وما نحروا "بخيفٍ وكبّوا على الأذقانِ مشعرةً ذراها
نظرتك نظرةً "بالخيف" كانت جلاءَ العين مني بل قذاها
فواها كيف تجمعنا الليالي وآها من تفرقنا وآها (١)

أو اكثارهم من ترداد أسماء الفتيات العربيات مثل " سلمى " و"الخنساء" و " لميساء " وغيرها أو وقوفهم بديار الحبيبة التي يشيرون دوما الى أنها قد دثرت وأصبحت خالية صماء لا تسمع من يناديها بكماء لا تجيب اذا حادثها وذلك بعد أن هجرها الأحبة، إنْ هو الا تعلق شديد بالماضي وأمل كبير في عودته حياً من جديد، وأحلام وروى يتمنون تحقيقها على أرض واقعهم، وأراهم جميعا راغبين في إثارة هذه المعاني أمام الحكام البويهيين .

وقد كانوا محزونين متألمين لمزايلة الأحبة وفراقهم هذه الديار وما الأحبة الا كل جانب أو مظهر جميل وجد في حياة العرب سابقا وافتقدته الآن بخرابها واندثارها .

---

(١) ديوان الشريف الرضيّ ، ج ١ ، ص ١٢١ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وكانوا كذلك متأملين اذ لم يدعوا مجالا لليأس ينفذ به الى نفوسهم، وتمسّكوا بالحبيبة كثيرا رغم صدها وهجرها وجفائها ومفارقتها آملين في عودة كل ما فقدوا من هذه المظاهر العربية .

أمّا الحبيبة فقد اتسع دورها ونما في مقدمات تلك القصائد وفي نفوس الأحبة حتى أصبحت دالة جديدة غير التي يعرفون وزمنا آخر غير الذي يعيشون ، ولقد نحوا بها منحى جديدا جعلوها به رمزا لكل جانب من زمنهم الصعب الذي يشير الى عقم الحياة وقسوتها . فالحبيبة مفارقة هاجرة ممتنعة بخيلة والديار خالية دارسة مهجورة موحشة .

اذن لم تعد صورة المرأة الحبيبة عندهم تعبيرا عن أوضاع عاشتها المرأة في ذلك العصر وانما اتخذت هذه الصورة سجلا لحالات عربية من الألم والضياع والقلق والخراب والحلم والأمل برجعة ماض ساد ثم باد .

ولهذا كثرت تشبيهاتهم ورموزهم كثرة هذه الحالات وتقلبها وتطبيقا لهذا فاني سأقوم بدراسة مقطع المرأة في أربع قصائد مدحية لشعراء من هذه الدراسة، من شعر الشريف الرضي ومهيار الديلمي وابن نباتة السعدي والسريّ الرفّاء ، ولأبدأ بأولهم، والمقطع الذي سأدرسه للشريف هو بداية قصيدته التي يمدح فيها الملك البويهي بهاء الدولة ويعتذر اليه عن أمر من الأمور (١) وقد وسمها بعنوان " لا أطلب غير الرّضا " وألمح في هذا العنوان اشارة الى محاولة ترضية الحاكم البويهي .

ومطلعها :

كيف أضاءَ البرقُ ، اذ أومضا ... منابتَ الرّمثِ بوادي الغضا
عهدُ الحمى ، لا أينَ عهدالحمى ... قضى على الصبّ جوىً وانقضى(١)

---

(١) ديوان الشريف الرضيّ ، ج ١ ، ص ٥٧٤ .

(٢) الرّمث : شجر يشبه الغضا . والغضا شجر من الأثل ، وكلاهما ينبتان في أرض نجد وترعاهما الابل .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ونازل بالقلب أوطانه بين حمى الرمل وبين الأضا

أول ما نلمحه على هذه القصيدة أنها تبدأ بسؤال المتعجب المستغرب : كيف تمكن هذا البرق اللامع من أن يضيء تلك الديار في بلاد نجد حيث منابت الرّمث في ذلك الوادي الذي يكثر فيه الغضا والأثل ، لقد أضاء البرق لعينيه وهو مقيم في بغداد فتمكن من مشاهدة ديار نجد حيث مراعي الابل ومنابت الشجر الصحراوي في ديار العرب من أرض الجزيرة ، فهل هو برق حقيقي ذلك الذي لمع في العراق فأضاء نجدا ؟! .

اني أرى الرضيّ وفي أول بيت من قصيدته يعبّر عن مزيج من الاحساسات التي تتماوج داخله وهو يمثل أمام الملك البويهي ، احساس بالزهو والفخار يبرق من عينيه ليضيء أرض نجد ، واحساس بالأمل في أن يبرق ذلك النور الساطع مرة أخرى في مدّ واحد ليربط ما بين العراق والحجاز فتعود أرضا واحدة ينيرها ضوء العرب الذي يبرق بنور الاسلام ، واحساس بالفرح لأن في ومضة هذا البرق تنويراً على تلك الديار فتعود منابتها حية ومراعيها خضراء تشع بالحياة وبحركة الابل ترعى الرمث والغضا ، واحساس كبير بالألم لأنّ تلك الديار أصبحت تمثّل عهدا ماضيا خاليا مفقودا انتهى فأنهى معه حياة ذلك المحبّ الذي يحسّ الآن بفقد الحياة لغيابه عن تلك الديار ولبعد الديار وغيابها عنه .

ان الشاعر يعرض أمام الحاكم البويهي حال العرب ممثلة فيما بقي من ديارها وآثارها وسكانها الذين رحلوا وغادروها وهذا جانب ما زال يحتلّ شطرا كبيرا من التراث العربي الذي توارده الشعراء عبر عصور عربية زاهية يريد الشاعر أن يكرّس احساسه به واعظامه له ورغبته في احيائه من جديد.

أما الحبيبة ساكنة تلك الديار فهي التي تحتلّ سويداء القلب من الشاعر والشاعر يودّ تأكيد هذا الأمر للملك البويهي .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

اذن من هذه الحبيبة يا ترى ؟ أتراها امرأة حقيقية فعلا أم انها رمزٌ للأهل والعشيرة الذين يسكنون نجدا والذين يحنّ الشاعر اليهم ؟
بلى انّها هم وها هو الشاعر يخاطبهم قائلا :

لا ناله الداءُ الذي نالني منه ، وان شفّ وان أمرضا
ولا يكابدُ ليلَ ذي غُلّة لو طلع البدرُ به ما أضا
هان على الواجدِ طعمُ الكرى ان الفتى الساهر ما غمضا

يقول لهم : ان ديار نجد التي بها تقيمون محفورة في قلبي ولذا فانكم لا تنزلون هذه الديار فقط بل تنزلون قلبي أيضا ولذا فقد عذّب بعدكم فؤادي وأمرضني ونالني منه الوَصَب والدّاء الذي أدعو لكم بالاّ يمسكم منه ضرّ فيرفع يديه الى السماء داعيا لها بالاّ يصيبها ما أصابه ومن معه من ضرّ الفرس وأذاهم ، وهي الرمز والبناء الذي يجب أن يبقى شامخا واقفا أبدا ويجب أن تحفظ دوما مما أصابهم حتى تكون الدفء الذي يحميهم القرّ وتكون الظلال الوارفة التي تقيهم الحرّ ، وتكون الملاذ والملجأ والمشفى الذي اليه يفرون حين تصيبهم الأدواء .

ولا يكابدُ ليلَ ذي غُلة لو طلعَ البدرُ به ما أضا
هانَ على الواجدِ طعمُ الكرى إنّ الفتى الساهرَ ما غمضا

وأنظر الى صورة الليل الداجي الذي يكابده الشاعر وقومه . وما هذا الليل؟ انه القيد الذي يجثم على الصدور والذي فرض عليهم ابّان الحكم البويهي والذي يحسّونضرورة الخلاص منه ولكنّ الأمر يحتاج الصبر والجلد وتحمّل الصعاب ورؤياها هينة سهلة حتى يستطيع الحصول على فجر مضيء ومشرق ، هذا الليل المظلم الظالم يراه الشاعر موحشا ثقيلا حتى ان البدر أحيانا لو طلع به ما أزال ظلمته ووحشته ، والشاعر يدعو لديار نجد وساكنيها بالا يخيّم عليها هذا الليل الثقيل .

ان الشاعر مهموم محزون يعيش عالما مظلما وزمنا أسود في واقع حاله لكنه في تلك الديار النجدية يمكن أن يعيش ويحس ويرى عالما منيرا مشرقا بايماضة البرق اللامع الذي يسري وينبعث من أنوار العرب في جزيرة الاسلام .

هاتان صورتان متقابلتان نلمحهما بوضوح لأرض الجزيرة واشراقة نفوس ساكنيها والأرض التي يعيش عليها الشاعر وظلمة نفسه ونفوس أصحابه جراء ما يكابدون وما يحسّون من خراب ودمار وظلام قد سادها وعمّ أصحابها .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ونقف مع الرضي في شرفة أخرى نطل منها على هذه الحبيبة وما يرى فيها:

ما آن للممطول أن يُقتضى ولا لذا المماطلِ أن يُقتضى
ان غريمي بديون الهوى أدان قلبي وأساء القضا

انه مثل بقية شعراء هذه الدراسة يرون الحبيبة دنياهم وحياتهم بكل ما فيها من منع وصد وبخل وهم أهلها الذين يرون أنفسهم جديرين بعطائها ووصلها لكنها لا تراعي فيهم البرّ ، فهم يسألونها العطاء والوصل وهو بمثابة الدين لهم عليها وقد آن لها قضاؤه لكنها المماطلة المسوّفة دوما فتكاثرت ديونهم دونما قضاء لها وهم يريدون عودة الوصل المنبتّ والعطاء المنقطع .

وفي القسم الثاني من القصيدة يتوجه الرضيّ نحو الممدوح ويبدأ قائلا :

يا راكباً تحمله جسرة كالهقل ناش البلد الأعرضا
أنحلة الخوف ، وخوف الفتى سيف على مفرقه منتضى

ان الرضيّ وهو أحد أبناء ذلك الزمان الذين أحسوا ظلم الدهر يولي وجهه شطرا آخر لعله يجد عنده العون ، وقد يكون الحاكم البويهي هو الخصم والحكم فيجد عنده الوسيلة المعينة التي قد تجتمع والحبيبة فتعيناه في زمانه ، ولكن بأيّ وسيلة يرحل الى الحاكم البويهي ؟ ان وسيلته اليه ناقة قوية من الصحراء العربية ، وانظر معي صورتها وشكلها انها تشبه فتى النعام القوي الذي يهيمن على منطقة تنقّله ، وما أجمل المعنى الذي يريد الشاعر التعبير عنه ، انه يريد نوال طلبته في غير ضعف فاستعان على هذا بالفعل " ناش " وفيه من دلالة نيل الشيء بالقوة ما فيه ، أما البلد التي يطلبها فانه يريدها أرضا واسعة يسير فيها حرا وينال منها ما يشاء . وهو لا يخاف زمانه ولا يخشاه الاّ من زاوية واحدة وهي أن يأتيه الخوف من قبل الحاكم البويهي فانّ خوفه بمثابة الحكم بالموت وهو كالسيف المصلت على هامات الرجال والذي لا يملكون الاّ الخضوع له والقبول بحكمه حتى يضعفهم همه وتنحل جسومهم من عقباه وهو ما يخيف الشاعر .

أمّا القسم الثالث من القصيدة ففيه يعرض الشاعر للملك البويهي مادحا :

قل لبهاءِ المُلك ، ان جئته سوّدَ دهري بك ما بيضا
سخطٌ لو أنّ الطودَ يُرمى به ساخَ عن الأطوادِ ، أو خضّضا
ومرُّ قولٍ ذلّ عزّي له لو مُزج الماءُ به عرمضا (١)
أعوذ بالعفو ، وهل آمن نذيرة الصلّ اذا نضنضا (٢)

(١) عرمضا : تطحلب . الصّلّ : الحية التي تقتل اذا نهشت من ساعتها .
(٢) النذيرة : ما يعطى من أشياء . نضنضا : حركت الحية لسانها .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لقد رأيت الحبيبة في القسم الأول من القصيدة حلما ضائعا وأملا مرجّوا وزمنا ماضيا يتمنى الشاعر عودته بكل أشيائه ، وكذلك فقد كان لها مدّ آخر من نفسه في القسم الثاني ينسحب حتى يلفّ هذا الممدوح الذي أصبح يشكّل مع الحبيبة عالما من الرؤى والأحلام والأماني لو أسعده زمانه لكانت حقائق حيّة متحركة تزيّن حياته وتنير زمانه المعتم ، لذلك فدا سخطه على الشاعر ديجور زمانه الذي كان في الماضي أبيض مشرقا ، وسخطه ثقيل مريع لو نزل بجبل كبير عال لتصدّع وتفتت ، وكذلك نجده حالا باسة من الكلام المرير الذي يطامن من عزة الشاعر والذي هو بمثابة القدر الذي يصيب الماء الزلال فيتطحلب،عندها يضطر الشاعر مرغما الى اللجوء لطلب الرحمة والخلاص مما أحاط به لأنه غير آمن على نفسه من غدر زمن الغدر والعذاب وهل يعقل أن نجد انسانا يأمن على نفسه لسعة الحية الخبيثة اذا أخرجت لسانها وحركته أمامه وكذلك هي حال هذا الممدوح .

أيا غِياثَ الخلقِ إنّ أجدبوا ... ويا قِوامَ الدينِ إن فُوّضا
ويا ضياءً إن نأى نورُه ... لم نرَ يوما بعدَه أبيضا
لا تُعدلنّ الزهرَ الذي نبتُّه ... بصوبِ إنعامِك قد روّضا
وارعَ لغرسٍ أنت أنهضته ... لولاك ما قارب أن ينهضا
ولا يكنْ عهدُك بَعدَ الهوى ... غيماً تجلّى وخضابا نضا

لكن الشاعر يعود فيستدرك أنه قد يرتكب خطأ لو صرّح بحقيقة ممدوحه جهارا فيعدل عن طريقته خوفا مما سيلحق به ويأخذ في رسم صورة لممدوحه يشكّلها خياله من ألوان عديدة يتمنى على زمانه لو جاد بها فيراه خصبا مغيثا زمن الجدب واليباس ويتمناه مقيما للدين بعد ما تقوض في زمن الفساد والانحلال ويتمناه ضياء ونورا يملأ على الرعية أجواءها وان غاب وابتعد فان الحياة بعده مظلمة عابسة ، ويتمناه صيّبا يغمر الحياة بوابل من عطائه فتخضر وتزهر وتصبح روضا من الجمال وكل الجوانب الحلوة الملونة الزاهية ، وراعيا لهذه الرعية جابرا لها من عثرتها ومنهضا لها من كبوتها ، ويتمنى الشاعر ألا يكون هذا الممدوح زمنا زائلا فيكون عندها سحابة صيف سرعان ما تتقشع وتزول أو خضابا أصاب اليد بمسحة من الجمال لوقت ثم انمحت آثاره الجميلة .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يا راميًا لا درعَ من سهمه ... أقصدني من قبل أن يُنتضى
قضى على قلبي بأفلاقه ... ما أنا بالجلد على ما قضى
وكيف لا أبكي لاعراض من ... يُعرض عنّي الدهران أعرضا
قد كنتُ أرجوه لنيل المنى ... فاليوم لا أطلب غير الرّضا

لكنّ فكرة الاحساس بالألم ما تزال تتردد بين ثنايا الأبيات ، ألم مما أصاب الناس جرّاء هذا الحكم ولا موقي لهم من سهامه التي يتمنى الشاعر الا تصيب أحدا منهم ، ويصرّح الشاعر بأنه يعيش حياته قلقا مضطربا - مثل بقية أبناء عصره - وهذا القلق والاضطراب سيقضيان عليه لأنه لا يقدر على تحمّل كل ما نزل به وبالناس حوله ، وكل ما لحقهم من عذابات تدفعه للبكاء من هذا الزمن الذي أعرض عن أصحابه وصدّ في وجوههم حتى أنهم لا يطلبون منه سوى رضاه عنهم ورضاه غاية ما يتمنى المرء حين عزّت المنى وصعبت الاحلام .

وهكذا فاني أرى الرضيّ قد استطاع بعث جزء من التراث العربيّ التليد متمثل في أسماء الأماكن النجدية أو في بعض من عناصر الحياة العربية في القديم بعثه حيّا متحركا فاعلا قد عمره الناس وقد تحرّكت الابل على أرضه كما هي عادتها ، وهو يدعو له بالسلامة والسقيا ويبدي تحرّقه اليه وتطلعه الى الحياة في جنباته حتى وهو في العراق وفي حضرة الملك البويهي .

فكان مقطع المرأة في هذه القصيدة عاملا رئيسا استطاع الشاعر من خلاله الكشف عن مكنونات نفسه وتمكّن من النفاذ الى القضية الرئيسة التي تشغله وتعنيه والتي يريد الافصاح عنها أمام الحاكم البويهي وهو ذلك الرّجل الذي يستطيع الأخذ بيد رعيته أو تخليصها مما تعاني بسببه .

ونمضي مع سهيل الديلمي ذلك الشاعر الفارسي الذي أحبّ الفتيات العربيات ورآهنّ في حبيبته التي كثيرا ما كنى عنها " بأم سعد " وغير " أم سعد" مثل سلمى وخنساء وظمياء وفاطمة وزينب وغيرها ." أم سعد هذه التي خلبت لبّه وجرحت قلبه والتي لم يكن يرضيها نسبه الفارسي وأصله غير العربي مما عاقه عن اقتناص قلبها وهي بنت العرب الخلّص ، فاضطره ذلك الى الفخر بنسبه وأجداده والتوسّل بفضائله العريقة أمامها :

أعجبتْ بي بين نادي قومِها ... "أمُ سعدٍ" فمضتْ تسألُ بي
سرّها ما علمتْ من خُلُقي ... فأرادتْ علمَها ما حَسَبي
لا تخالي نسبا يخفضُني ... أنا من يرضيكِ عندَ النسبِ
قومَيَ استولوا على الدهرِ فتىً ... ومشوْا فوق رؤوسِ الحِقَبِ

عمّموا بالشمس هاماتهم ... وبنوْا أبياتَهم بالشُهُبِ
قد لبستُ المجدَ من خيرِ أبٍ ... ولبستُ الدينَ من خيرِ نبي
وضممتُ الفخرَ من أطرافِه ... سؤددَ الفرس ودينَ العربِ(١)

وقد دفع مهيار بمثل هذا الشعر بعضَ الدارسين الى اتهامه بالشعوبية(٢) وأنا أرى أنه إنما قصد التعبير عن رفعة نفسه وحسبه حين رأى المرأة العربية تغمزه في أصله ونسبه خاصة اذا عرفنا أنّ معانيه هذه انما ظهرت خلال شعره الغزليّ ونحن نراه هنا يحاول التوفيق ما بين عظمة الفرس المندثرة وعظمة الدين الاسلاميّ الذي انضوى تحت لوائه بنسبه الفارسي .

أقول ان هذا الشاعر رغم فارسيته فانه قد رأى الشعراء حوله يستنطقون الماضي ويحاولون احياءه بعد أن رأوا زمنهم الحاضر قد ذلّ أصحابه بعضهم بعضا فلاذوا بالماضي يتفيأون ظلاله ويستنشقون هواءه بنفوس محزونة وقلوب مكلومة عبر قصائد حاولوا أن تكون صورة لقصائد الأمس العزيز الضائع عساهم يجدونه خلالها هاربين من ذلّ زمانهم وتقلباته ضد أصحابه ، وما كان مهيار ليشذّ عن السنن وهو واحد من أبناء ذلك العصر وتلميذ حقيق لرأس شعرائه وعلم أعلامه وهو الشريف الرضي وما أخاله الا فاعلا كذلك حين ألحت الحياة عليه وعلى أضرابه من شعراء عصره .

وهذه قصيدة له في نقيب النقباء أبي القاسم بن عبد الرحمن يمدحه ويهنئه بالنيروز .(٣)

أول ما يلفت النظر في هذه القصيدة طول مقدمتها التي بلغت ثلاثة وعشرين بيتا من مجموع أبيات القصيدة البالغة واحدا وخمسين بيتا ، وقد تناول مهيار فيها الأطلال والمرأة والشيب ، وأرى في وقوفه بهذه الأمور الثلاثة تذكيرَ الممدوح بما يحيط بالشاعر من صعاب ، وتعبيرا عن مدى تعلّق الشاعر بما فات وانقضى وعن أهمية ذاك الزمان المتصرّم ورغبة الشاعر الأكيدة في أن تعود به الحياة الى الزمان الغائب ، حيث استغرقت هذه المعاني

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ، ج ١ ، ص ٦٤ .
(٢) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص ٣٥٥ وعلي الفلال ، دراسة تحليلية لشعر مهيار الديلمي ، ص ١٤٨ .
(٣) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أبياتا تكاد توازي في عددها الأبيات التي أورد فيها ذكر الممدوح . وهذه اشارة ذكية من الشاعر يوجّه فيها نظر الممدوح الى تلك الصور والمعاني التي ذكرها في مقدمة قصيدته .

أمرتجعٌ لي فارطَ العيش بالحمى ... غرامي بتذكار الهوى وولوعي
وكرّي المطايا أشتكي غيرَ ضامنٍ ... وأدعو من الأطلال غيرَ سميعِ
نعم ! يُقنعُ المشتاقَ ما ليس طائلا ... وان لم يكن قبل النوى بقنوعِ
وقفنا بها أشباحَ وجد ولوعةٍ ... وأشباهَ ذلّ للهوى وخشوعِ
نحولُ رَكابٍ ضامها السير فوقه ... نحولُ جسومٍ في نحولِ ربوعِ
لعمرُ البِلى ما اقتاد من ضوء "ضارج" ... سوى مسمحٍ لُلنائبات تبيعِ (١)

يبدأ الشاعر قصيدته بتساؤل محزون وندم كبير على ضياع تلك الفسحة من العيش وهل في شدة وجده وغرامه وولعه اعادة لما ضاع واندثر ؟! والى جانب هذا فانه يكثر من القدوم اليها على مطيته المتعبة من تكرار الرحلة يقف الشاعر على تلك الديار ويناديها لكنه لا يضمن اجابتها نداءه فهي ديار صمّاء لا تقوى على السمع ولا تردّ لهفة أو تشفي غلة وهو الملهوف المحزون المشوق الذي يلحّ في طلب عودة الماضي بكل أشيائه مهما صغرت ، وقد أضناه زمانه ووقوفه على تلك الديار حتى لحق النحول براحلته التي شاركته حزنه وألمه وتعبه فداء للديار الناحلة ، وما نحول الديار ؟ انه يعني أن تبيد بعد أن تسود ، أو يهجرها كل من أقام بها فتصبح خلاء بلا حياة أو يموت كل من كان يحيا فيها .

ويعود الشاعر ليؤكد أن هذا النحول والبلى الذي أصاب تلك الديار لم يطل منها الا ما تتكرر عليه النوائب والخطوب وتلاحقه تباعا حتى ترغمه على الاستسلام للبلى .

وقد كُسيتْ أطلالُ قومٍ وعُرّيتْ ... فما مُنعت دارٌ "كأم منيع"
رحيبةُ باعِ الحسنِ طاولتِ الدّمى ... فزادتْ بمعنىً في الجمالِ بديعِ
خطتْ في الثرى خطوَ البطيءِ وقاسمت ... لحاظاً لها في القلبِ مشيَ سريعِ
كأنّ مطيبّا قال للعنترة (٢) افتقي ... يقول لها : جرّي الذيولَ وضوعي
وأعهدها والدمعُ يجري بلونه ... فتصبغه من خدّها بنجيعِ
كأنّ شعاعَ النارِ في وجناتها ... يُطير شرارَ النارِ بين ضلوعي

---

(١) الضامن : المكفّل بالاجابة . الرّكّاب : الناقة كثيرة الركوب . ضارج : اسم أرض قرب الكوفة . المَسمَح : الذي ينقاد ويذل بعد استصعاب . التبيع : التابع .

(٢) العِنترة : القطعة من المسك الخالص .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومع هذا البلى الذي أصاب تلك الديار الا أن هناك الأرض التي تسكنها صاحبته " أم منيع " فانها ما زالت مكسّوة ببهائها وحسنها وقوتها وزهو الحياة فيها وأرى في اختياره هذا الاسم لصاحبته ذكاء منه وفطنة اذ أنه قد أراد ابراز القوة في جوانب الحياة الماضية التي ضاعت منه .

وقد يسأل بعضنا لم أورد الشاعر صورتين متناقضتين للديار فهي مرة خالية صماء وأخرى قوية منيعة مكسّوة بما يبهج ويسرّ ؟! لعلي أجيب عن هذا التساؤل اذا قلت بأن الشاعر يود ابراز حالين متناقضين مرّ به فهو قد كان راضيا لا يشكو زمنا وأصبح الآن برما ساخطا شاكيا .

وأرى في اختياره اسم صاحبته وذكر حالين للديار ربطا ذكيا ما بين هذين الأمرين من جهة وبين الحال التي هو عليها من جهة ثانية وهو قويّ رغم المحن والنوائب ويريد من كل مظاهر الحياة حوله أن تكون كذلك .

ثم يمضي الشاعر يرسم صورة " لأم منيع " الغالية التي يحبها ويتمناها في لوحة جميلة تشير الى قدرته في رسم الصورة التي تليق بها ، فهي تمثال من الحسن يبذّ غيره من التماثيل الرائعة ويفوقها جمالا ، وهي حين تسير فان سيرها متهاد بطيء ناعم لكنّ سير لحاظها في قلب محبها سريع قوي يدفعه جمال تلك اللحاظ الرائع ، ولم يكتف الشاعر بهذه الصورة وانما سار الى صورة شميّة ليكمل بها معاني الحسن في " أم منيع " فهي عندما تجر الذيول كأن قطعة من المسك الخالص تتفتّق وتنشر عبيرها في المكان الذي تجول فيه هذه الحبيبة ويمضي مهيار في اسباغ الألوان والأوصاف الجميلة على محبوبته ولا غرو في ذلك فهو انما يسبغها عليها لأنها حياته التي يريد .

لكنني أرى إلحاح الحزن والألم ما يزال يتردد في نفس الشاعر حين أجده يسرع إلى صورة دموعها على وجنتها فهو لا يستطيع نسيان الصور المؤلمة التي تنبت في مظاهر الحياة الجميلة حوله وهذه الدموع قد اكتسبت لونا أحمر بعد أن خالطت خدي الحبيبة ، بل انه ليتجاوز هذا الاحساس المفرط بالألم الذي يلسعه به وهج النيران المنبعثة من وجناتها الى قلبه لتسكن بين ضلوعه وتمعن فيها حرقا وإيلاما وهذا هو دأب الحياة عنده .

وعصرُ الحمى عصري وضلعُ طبائه ظلمعي وربيع العيش فيه ربيعي

ثم ان احساسه بالألم ليزداد عندما يتذكر شطرا من حياته كان فيه يملك جانبا من الزمن وهو عصر شبابه وربيع عمره حين كانت الحسناوات يتهافتن عليه

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويطلبنه وكانت كل منهنّ طوع أمره وملك يمينه . وما هذه المعاني الاّ من صور هذه الحياة التي لا تحب الا الشاب القوي ولا تقبل من أبنائها الاّ أولئك الذين يملكون جوانبها ويستطيعون قيادها :

تعيب عليّ الشيب " خنساء " أن رأتْ تطلّعَ ضوءِ الفجرِ تحتَ هزيعِ
وما شبتُ لكن ضاع فيما بكيتُكم سوادُ عذاري في بياض دموعي

أمّا الآن وقد أسرع الشيب الى رأسه فانه يرى الحياة تُدبر في وجهه وتحاول الابتعاد عنه مع انه يرى شيبه " غبار وقائع الدهر " أو " رغوة الشباب "

وانظر الى جمال الصورة في قوله :

وفحمةُ ليلٍ كالشعورِ اهتديتهـا بقدحةِ برقٍ كالثغور لموع

فما أجمل تصويره شعر رأسه كأنه ليل فاحم مظلم قدح وسطه برق لامع لمعان ثغر الحبيبة .

وشيبه هو الذي دفعها الى ان تولي ظهرها دونما أمل في رجوعها أو عودتها ومع هذا فانها ما تنفك تعيب عليه هذا الشيب الذي لم يكن ليظهر لولا شدة غمّه وحزنه وألمه ، أما هو فانه ينظر لشيبه على أنه الفجر المشرق المضيء في عتمة الليل الأسود .

وجوه تولّت من زماني وما أرى بأظهرِها امارةً لرجوعِ

وكما فقد مهيار حبيبته التي تمثل معاني الجمال والطيبة وكل شيء خيّر فانه قد فقد كذلك وجوها طيبة يرى زمانه قد خلا عنها وافتقر اليها ليلتقي المعنيان ويرفدان نهراً من الألم والحسرة يجري في نفسه فيغذي روحه ووجدانه ويبقي على أحاسيسه وأشواقه حية متحركة لاعجة .

سأركبُها خرقاءَ تذرعُ بوعَهـا فضا كلّ خَرقٍ في البلادِ وسيعِ
اذا قطعتْ أرضاً أعدّت لأختِها ظنابيبَ لم تُقرع بمرّ قطيعِ (١)
ضوامنَ في الحاجاتِ كلّ بعيدةٍ وصائلَ في الآمالِ كلّ قطوعِ

ويستعين مهيار على الخلاص من أحاسيس الأسى والجوى بالهروب الى جهة أخرى يلجأ اليها ويلوذ بها لعلّه يجد عندها شفاء من سقمه فيركب اليها ناقة وأي ناقة ، انها ناقة خرقاء شائرة وليس سواها منقذا مما ألمّ به ، انها نشيطة فائرة تذرع الأرض وتقطع المسافات البعيدة لا تلوي على شيء مما قد يعترضها حتى اذا ما انتهت من بلد تعد نفسها وتجدد نشاطها لقطع بلد أخرى

---

(١) ظنابيب : مفردها ظُنبوب وهو حافة خف الناقة .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وكأنّ ساقيها لم يركضا بأرض أبدا بل انهما تسهّلان كل أمر صعب وهذه الناقة تبحث دوما مع صاحبها عن بلد يجد فيه طلبته وما يريد تحقيقه في زمانه .

بتمثل هذه الوسيلة يريد الشاعر أن يأخذ الدنيا ويحقق لنفسه ما تريد ، وسيلة لا تنطق الاّ بالقوة وبالقوة فقط يضمن الوصول لحاجته مهما كانت بعيدة ويحيي في نفسه الآمال وان كانت متقطّعة .

تزورُ بني " عبدالرحيم " فتعتلي ... بأخفافها خضراءَ كلِ ربيعِ
تحطّ بماءٍ للندى مترقرقٍ ... معينٍ ووادٍ للسماحِ مريعِ
وكائن لديهم من قراعٍ لنكبةٍ ... وللمجدِ فيهم من أخٍ وقريعِ
حموا بالندى اعراضهم فوقاهمُ ... من العارِ ما لا يُتقى بدروعِ
بنوكلّ مفطومٍ من اللوم والخنا ... وليدٍ وترب للسماحِ رضيعِ
أخو الحربأنّى ربها كان ربّها ... وأبطالها من سجّد وركوعِ
وكالراحِ أخلاقا اذا امتزجت به ... ولكنه للكأس غيرُ صريعِ

والى من توصله هذه الناقة ؟ انها تصل به الى الممدوح حيث معقد الأمل ومحطّ الرجاء ليكون هذا الممدوح الحلم الذي يتمنى الشاعر تحقيقه والرجاء الذي يأمل نوال خيره ، وما هي صور الخير التي يتمناها الشاعر انّها مزيج من الخصب في زمن الجدب ، والعطاء زمن المنع والبخل ، والشجاعة وقت الضعف والانهزام ، انها الشرف زمن العار والفساد ، والطيبة والشهامة زمن اللوم والذلّ والانكسار ، انها العزة والمجد زمن الذلّ والخضوع انها النبل والعفة زمن الخسّة والعار ، يريد الشاعر حالا من النبل المفرط والعطاء غير المتقطع في زمن تنكّرت أخلاقه وهان أصحابه وامتنع هو على أبنائه ، يريد الشاعر زمنا طيبا رفيعا بأبنائه حريصا عليهم حاميا لهم من كل سوء :

أمدُّ بها كفاً صَناعاكأنني ... أهيبُ بسيفٍ في الصباحِ صنيعِ
على كل يومٍ طارفٍ الحسنِ طارفٍ ... لها غير مكرورٍ ولا برجيعِ
هدايا لكم نفسي بها نفسٌ باذلٍ ... وضنّي بها في الناس ضنّ منوعِ

بمثل هذا الممدوح الحلم والزمن الأمنية يشتد أزر الشاعر ويقوى عوده ويستطيع الوقوف على قدميه بل والامساك بسيف العدل والحق الذي يمكنه به مواجهة زمانه الواقع وأهل زمانه وقد خبره وخبرهم وأيقن أنّ لا مناص من الوقفة الباسلة تجاههم ، بهذا يتغير وجه زمانه ويتجه باصحابه وجهة طيبة يتمنى الشاعر لو أنه لا يعود منها أبدا وهكذا فان مهيار يشارك الرضيّ في الكشف عما يعتمل في صدره من الأحاسيس والأوجاع جرّاء بعده عن تلك الديار التي ما زال يكثر من التردد عليها لأن فيها تذكارا وأثرا من أحبابه ، وهو

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يؤكد لهذا الحاكم البويهي أنها ستبقى حية على الرغم من تكرار الحوادث ومثلها في زمنه كثير ، وقد استطاع خلال تصويره لجوانب من جمال حبيبته أن يشير لبعض المعالم الجميلة في حياته والتي يظهر أنه محروم منها مع أن في بعض هذه العناصر الجمالية نارا تحرق بين ضلوعه ، ومع ذلك يصّر على الحنين اليها ويشتاق الى زمانها المتصرّم الذي أضناه وأنبت الشيب في رأسه وقد قال هذا وهو يقف أمام الحاكم البويهي مشاركا الرضيّ في عرض القضية الرئيسة التي أتعبت شعراء هذا الزمان ولم يستطيعوا البوح بها الاّ عن طريق بعض ما يوحي بها وما يشير اليها ، وقد جروا وراءها ما وجدوا اليها سبيلا .

وهذه قصيدة لابن نباتة السعدي[1] والغرض الرئيس منها مدح أبي العلاء صاعد بن ثابت خليفة الوزير المهلبي على الوزارة ومطلعها :

سقى الله أيامَ الصبابةِ والخَبْلِ ودهراً رُمينا فيه بالحُدقِ النجلِ

فالشاعر يبدأ قصيدته بتذكر زمن الصبابة والحب والافتتان بالحبيبة لكنه تذكر اليائس المحزون الذي يملؤه الشعور بالألم الثقيل لفقد المعالم الجميلة من حياته وهو يتطلع حوله ويتلمّس أيا من معالم الخير فلا يجد ولا بدّ أنه أراد ابراز هذا الهمّ الذي يشغله مثلما شغل غيره من شعراء هذه الدراسة الذين أحسوا بسياط الدهر القاسية تأكل من أجسادهم ، همه ذم هذا الزمان الذي استحال شرا وألما وفقدا ، فهو مهموم محزون ، وليس قصده ذكر الحبيبة على سبيل الوصف والغزل بل من أجل جعلها رمزا لهم عريض يسيطر على حياته :

ويمكنني تقسيم القصيدة الى الشرائح التالية :

أولا ، الأبيات من ١ - ٩ تذكر للحبيبة والرفاق وكلهم قد نأى وابتعد ، والتعريض بالزمن الذي فرّق بينه وبينهم والذي قلبت موازينه حتى استعدى فيه الجهال على أصحاب العقول ، والأسى لضياع العيش الحرّ الرغد فلم يبق الاّ تذكاراته الجميلة تزيّن وجه الزمن الصعب العابس :

---

(١) ديوان ابن نباتة السعدي ، ج ١ ، ص ٣٠٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

سقى الله أيام الصبابة والخبل ... ودهراً رُمينا فيه بالحُدَق النجل
وصحبة فتيان كأنّ وجوههم ... وأخلاقهم صبحٌ تنفّسَ عن وَبْل
فزعتُ الى يأسي فلم أسلُ عنهم ... اذا اليأسُ لم يسلِ المحبّ فما يسلي
وحيّا تحيات الوداع ووقفة ... وجدت بها مالم يجد أحدٌ قبلي
تلافيتُ فيها قسوةَ الهجر بالبكا ... وداويتُ فيها عزة الحبّ بالذلّ
عشيةَ استعدي على البين مُسعدا ... فينصرني دمعي ويخذلني أهلي
كأنّ غداةَ الرمل كانت دموعُنا ... تكاثرُ في أرشائها عددَ الرمل
فيابين حل بيني وبين عواذلي ... اذا لم تَحُلْ بين المطية والرّحل
ويا دمع لا تهتك عليّ سرائري ... فلو شئت يوم البين كذبتُ ما تملي

فهو يستعتب الدهر على التفريق بينه وبين زمن هواه وافتتانه بالمحبوبة ، هذا الزمن الذي يتحسر لفقده ويدعو له بالسقيا لعلّ فيها عودة مجددة وحياة جديدة هذا التمني ينسحب على شعوره بالألم لما أصابته به عيون حبيبته الجميلة ، وهو يرجو لو أبقت الأيام له هذا التجريح فهو محبب لأنه من تلك الانسانة التي تمثل له جمال الحياة وخيرها وحلاوتها ، كما أن فقدها يعتبر امتدادا لسلسلة الفقد والخراب التي عمّت حياته وحياة غيره في ذلك الزمن .

أمّا الصحبة ورفاق الصّبا فقد غادروه أيضا وكان قبلا آنسا بإشراق وجوههم التي كانت تنير له ظلمة الزمن الموحش ، أما أخلاقهم فهي لينة خيّرة معطاءة انظر اليها انها صبح جميل صحا وأشرق غبّ المطر ، وما أحلاها من صورة تعبّر عن عطاء الحياة الدنيا ونماشها الأخضر وسط عطاء آخر سكوب مسير من السماء ولا بدّ أن صورة الحياة التي يعيشها الشاعر وما فيها من حرمان وفقد جعلت خاطره يسرح في بحر من احلامه التي انطلقت الى عالم آخر مشرق معطاء يتطلع اليه الشاعر ويتمناه وسط آلام حرمانه ومقاساته جرّاء ذاك الزمن الصعب وتقلباته التي أطاحت بأصحابه ولكم حاول أن يلوذ بسلوّه ونسيانه عسى فيهما خلاصا لما يجد ، لكنه عندما لجأ اليهما لم يجد فيهما ما يسليه عن الصحبة الخيّرة التي يطلبها من هذا الزمن وقد عزّ منالها وصعب ومع ذلك فما تزال نفسه تلجّ في طلبها وتلحّ عليه مرارا في الفرار من عذاباته الى حيث الأصحاب والأحباب ولكن أين هو منهم وأين همو منه ؟ انهم يناون عنه بعيدا في زوايا الزمن الغادر فيحاول التخفيف من شعوره بقسوة الدهر بالبكاء حيث خضعت نفسه وذلّت ولكن للحبيب فقط وهو البصيص الذي يرجو من نواله خير الدنيا وعطاءها وانارة ظلماتها واين هو الحبيب الواصل ؟ انه بعيد أيضا لا يجد الشاعر منه الا ما يبكي وبكاؤه هذا هو سرّ تعاسته وهو عين على ما تخفي جوانحه .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وانظر الى هذه الصورة التي يبدو فيها الشاعر متوسلا الى دموعه التي قد خرجت عن طوعه وارادته يرجوها كي لا تفضح أسراره وتمزّق حجب سترها فتظهر وتبدي جواه وألمه من حبه في زمن القهر الذي يعيش .. وما أشدّ حزنه وهو ينادي البين والدمع اذ لم يجد حوله من يناديه ويتوسل اليه غيرهما .

ولننظر الى الطباقات في بعض هذه الأبيات وكيف استطاع الشاعر توظيفها ببراعة للتعبير عما في نفسه فالعزة عكس الذلّ وقد كانت للحب وانتهت وحلّ محلها الذلّ في ذلك الزمن والنصر عكس الخذلان وقد نصره دمعه وهو جانب الألم في حياته وخذله أهله وأحبته وهم رجاؤه في ذلك الزمن .

ثانيا : الأبيات من ١٠ - ١٧ وفيها يكرس الشاعر احساسه بالحرمان والألم وهو الكيّس الفطن ذو النباهة واللبّ لكنه دهر قد قلبت موازينه فأعطى الجهال والسفهاء ومنع ذوي الألباب والحجا ولا غرو فهو زمان هازل متذبذب لا يدوم له وصل أو ودّ :

أتحرمُنا يا ربّ بالحلم والنُهى ... وترزقُ قوماً بالسفاهةِ والجهلِ
فلا تبتلينا بالحياةِ فإننا ... خُلقنا رجالَ الجدّ في زمنِ الهزلِ
نفرّ الى حرّ الغرام من القِلى ... ونهربُ من روح الفراغِ الى الشغلِ
وركبٍ على الأكوارِ عللت والدّجى ... تروّح أردافُ النجومِ على رجلِ
لتعلق في الدنيا علائق حاجة ... مكابرة أوبالترفّق والختلِ
ألا من لعيشٍ لا يعود اذا مضى ... ودهر ملول لا يدوم على وصلِ
يجود ليثني ناظري نحو جوده ... أكلّ عطاء يمنح الناسَ من أجلي
فيا دهر قد حاولت عندك مطمعا ... فحقك أن تعطي وتسرف في البذلِ

انهم يرون حياتهم في هذا الزمان القاسي محنة قد ابتلوا بها وهم يفرون منها ولكن الى أين ؟ انهم كمن وقع بين فكي كمّاشة فما يفرون من حتف الا الى حتف ولا ترحمهم الأنياب الا بالمخالب فنجدهم يفرون من بغضاء زمنهم وقسوة حياتهم الى صورتها الأخرى التي يتوسمون فيها اللين والرحمة وهو غرامهم الذي يصورونه أيضا كأنه مرجل يغلي بصنوف شتى من الصدّ والقسوة والهجر ومع ذلك فهم يرجون اشتغالهم به فرارا من ذلك الزمن اللاهي .

وشاعرنا يحاول مع صحبه جاهدين في هذا الزمن لعلّ في محاولاتهم قضاء لبعض من حاجاتهم حتى لو أتت عن طريق خداع هذا الزمن أو ملاينته أو ركوب صعابه وهم في زحمة مشاغلتهم هذا الزمن يتطلعون فاذا بهم يسندون ظهورهم الى

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الجدار وليس لهم من سبيل الى اجتذاب الزمن الماضي الخيّر وهو الذي يرجون عودته اذ فيه عزّهم وعزتهم فقد مضى ولن يعود وأصحابه على تلك الشاكلة ولم يبق لهم الاّ هذه الأيام السوداء التي لا رجاء لخير فيها وهي مخادعة مخاتلة لا تصحب ابناءها صحبة الصديق الصدوق وان اعطتهم أحيانا فانما هو عطاء المتمنن الذي لا يمد يده الاّ من أجل لفت النظر اليه كي يقال عنه بأنه كريم وحق أصحابه عليه أن يأخذوا دون منّ منه عليهم .

وهكذا ومن خلال هذه الصورة فان الشاعر يقدّم لنا الحياة والمرأة الحرّة في زمنه واللتين اتحدنا لتكريس الظلم في ذلك الزمن وما أخال الحبيبة التي ليس لها من عمل سوى الصدّ والهجر والمنع والظلم الاّ صورة لمعاناة الناس ومقاساتهم وحرمانهم في زمن صعبت أموره وقلبت موازينه ، انه احساس يعتمل في نفوس الناس وينقلب من داخلها ليكشف عن الحقيقة التي يريدها الشعراء من حديثهم عن المرأة وتصويرها على هذه الشاكلة .

وانظر اليه كيف عبّر بطباقاته الجميلة عما يريد قوله فهناك حرمان ورزق وهناك حلم وسفاهة ونُهى وجهل فالحرمان للحلم والنهى والرزق للسفاهة والجهل وهناك جدّ وهزل ، فالجد لهؤلاء الرجال والهزل لذاك الزمان الذي يعيشون وهناك فراغ يفرون منه وشغل يلجأون اليه .

ثالثا : الأبيات من ١٨ - نهاية القصيدة ، وفيها يبسط الشاعر الحديث عن الغرض من القصيدة وهو مدح هذا الوزير الحاكم لعلّ في مدحه خلاصا من بعض ما يعاني :

ظفرتُ ولولا ساعدٌ ما رأيتني ... أمدُّ الى الآمال كفا بلا نصل
لما طالتِ البيداءُ حين قصدتُه ... هوى لمسيرٍ أو ضرارٍ على ابلي
كسوت لُغام العيسِ لمعَ سرابِها ... فماج كموجِ البحرِ يزبد أو يغلي (١)
تنكّبُنا هوجُ الرياحِ كأنها ... تحاذرُ أنفاسَ المخزّمة البُزلِ
بنات قُسيّ للحداة وراءها ... ترنم أوتارِ القسي على النبلِ
تراها على طولِ الفلاة كأنها ... تدبّ دبيبَ الكاسياتِ من النملِ
وإن نجومَ الليلِ تمرُق في الدجى ... وتحسبها تنصاعُ فيه على مهلِ
تخطّت أكفّ الباخلين فعرّستْ ... بأروعِ معشوقِ الشمائلِ والفعلِ

فاذا كانت الحبيبة والحياة مانعة فليكن الممدوح واصلا ، واذا كانت بخيلة فليكن معطاء لكن الوصول الى جوده وعطائه ونوال ما يرجى منه لا يتحقق

(١) اللغام : زبد أفواه الابل .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بيسر وسهولة فلا بدّ من مكابدة وعناء تحيطان بمحاولاته العديدة للوصول الى موضع رجائه حيث طلبته ومبتغاه من دنياه فأشرك ناقته وابله في تسخّطه وتشكيه من هذا الزمن ، ولقد بدت سائرة في بيداء متسعة جدا حارة جدا .

انه مشهد يزخر بالحركة الشائرة الفائرة كزبد افواه الابل الذي طفى وغطى سراب تلك البيداء والمفازة القفر مما زاده هيجانا وغليانا وأنفاسا حامية دفعت بالرياح العاصفة الهوجاء الى الابتعاد عن دروب تردد أنفاس تلك الا بل العظيمة لأنها ستخمد أمامها . ان كل ما في هذه الصحراء ينبىء بالقسوة حتى غناء الحادي للابل فان رنينه يخترق اسماعها حديدا صلبا قاسيا كما هو الصوت الصادر عن القوس عند انطلاقته مع النبل ، وفي هذا التصوير تغلغل من الشاعر الى أعماق هذا الحيوان الذي شارك صاحبه وأشركه صاحبه همومه وآلامه فكان حيوانا شائرا هائجا يعكس ما في نفس صاحبه بعد أن أضفى عليها الشاعر مما في نفسه .

فالشاعر قد عبّر عما يضطرب في نفس بعيره حين استعار له صورة انسان كما يقول البلاغيون فهو يحسّ ويضطرب ويثور لكنه لا يملك من أمره شيئا وكذلك فانه يحس اليأس الذي بدا له في ذلك المسير البطيء الثقيل كدبيب النملة المثقلة يحملها على وجه الأرض .

وليس البعير وحده بل هناك من مظاهر الطبيعة ما شارك الشاعر احساسه بثقل هذا الزمن فهذه النجوم :

وان نجوم الليل تمرُقُ في الدجى وتحسبها تنصاعُ فيه على مهلِ

انها تدبّ في ظلمة الدجى وكأنها محملة بأثقال أو مقيّدة بسلاسل تمسك بها في جوف الليل فتمنعها الحركة وهذا مظهر آخر من مظاهر الطبيعة يشارك الشاعر أحاسيسه وملله وبرمه بما يحيط به فالليل ظلمة وفي تقييد النجوم وبطء سيرها استمرار لهذا الليل الثقيل ، لقد تكالبت على الشاعر هذه الأمور الصعبة التي فرضتها ظروف تلك الحياة ، فمن حبيبة هاجرة مانعة الى صحبة نائية الى زمن غادر الى مشقات حياتية برزت في صور البيداء والبعير والنجوم الى بخل هذه الحياة عامة وهو مع هذا ثابت صابر اذ ما زال في الحياة متسع يمكّنه من تجنّب اليأس ويبدو هذا الأمل في تلك البارقة المنبعثة مما يحيط به ويتكاثف حوله من أثقال وآلام وصعوبات ، بارقة تتمثل في صورة ذلك الممدوح :

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تخطّتْ أكفَّ الباخلين فعرّستْ ... بأروعَ معشوقِ الشجاعةِ والعقلِ
هو الماءُ للظمآن والنار للقرى ... وحدّ الظّبى في الحرب والغيث في المحلِ
حباني ولم أستَحْبِهِ متطوّلا ... يرى جوده بعد السؤال من البخلِ
وأنّى اهتدت جدوى يديك لخلّةٍ ... سترتْ أذاها عن عدوي والخللِ
سرت كانقضاضِ النجم في غلس الدجى ... الى مضجعي حتى وصلت بها حبلي

على تلك النوق القوية النشيطة يقطع الشاعر البيداء حتى يصل الى ممدوحه فيحط رحاله ، وهو عنده أمنية يحلم كثيرا بتحقيقها وأمل يسعى حياته للوصول اليه ، فالشاعر عطشان صاد وعند ممدوحه سيروي عطشه ويطفىء غلّة ظمأه والشاعر ينشد النار وقد وجدها في ممدوحه وفي النار معاني الحرارة والدفء والنور ومعاني الاشتعال والتوهج فهي المغيث وقت الشدة والظلمة والبأساء بل هو حدّ السيف الذي يحتاج لمثله ذاك الزمان اذ فيه القوة والفاعلية والقطع وهو الوبل المنهمر الذي يغمر الناس والأرض وقت اشتداد المحل والقحط يغمرهم عطاء دون من أو استكثار أو تطاول بل انه يعطي دون مساءلة لأن العطاء - في نظره - بعد السؤال ضرب من البخل ويستمر شاعرنا حالما متأملا بحاكم ذي بصيرة نفّاذة يستطيع بها الوصول الى خبايا قومه حتى يتمكن من معرفة أحوالهم التي يخفونها على أصدقائهم وأعدائهم ، فيبادر الممدوح الحلم الى تخليصهم مما يعانون مبادرة تنفض عنهم الغمّة وتمّحي بها بأساءهم وضراءهم بل انها تنقضّ انقضاض النجم الذي يهوي على الظلام فيشق دجوره وينشر الفجر الذي يغمر الكون بضيائه .

ويكفرك النعماءَ قومٌ غرستَهم ... فلم يثمروا غيرَ الضغينةِ والغلّ
عيالٌ على الأعداء والجدبُ جامحٌ ... وخيل تغادي بالقنا من النقلِ
ولم تكِ لما أحدث الدهر نكبةً ... بمغترسٍ للحادثات ولا أكلِ
كشفتَ لها ثغراً نقيا وساعداً ... حميّا وعيناً لا تنام على ذَحْلِ
كأنّ حزون العيش عندك سهلةٌ ... وشتانِ ما بين الحزونةِ والسهلِ
تركتَ لهم صحنَ الرّهانِ ونقعَه ... وفزتَ بغاياتِ السوابقِ والخصلِ
كما تركَ الظبيُ المنفّرُ ظلّه ... لقانصه لو كان يقنع بالظلّ

ان الحاح الزمن المعتم بالضغينة والحقد ما زال يلحّ عليه فيتكاثف سواده لحظة محاولة الشاعر العيش في فجر مشرق منير بالطيبة والمحبة وتتسارع الى ذهنه صور الواقع المؤلم الذي لا يثمر الا اولادا للكره والغلّ الناكصين وقت اشتداد الحروب على أعقابهم ، والشاعر لا يريد هؤلاء بل انه يريد أقواما غيرهم يحملون ما يحمله الممدوح الذي يسكن ضمير الشاعر حلما ورؤيا

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

صامدا في الأزمان لا تفترسه الحادثات ولا تأكله النكبات بل انه يبدي لها نيوب الليث التي تظهر لا عن تبسّم بل استعدادا للهجوم والغلبة وله أيضا ساعد قوي وعين تبيت ساهرة لا تغفل عن طلب صاحبها بمثل هذا يذلل أبناء الزمان صعوبات زمانهم ويجدونها سهلة شرط ابتعادهم عن الخيانة والغدر كما ابتعد ذلك الممدوح صاحب المبادرة والمبادأة الذي لا يعتمد على أمر مظنون بل على أمر مقطوع بجدواه وعاقبته .

وما أجملها من صورة يوردها الشاعر لهذا الممدوح الذي يتقي عاديات الزمن ويفوز دوما ولا يبادر الاّ الى الأعمال التي يضمن نفعها وفائدتها ويترك سواها لغيره تتمثل في ظبي نجا من القانصين وترك لهم ظله وآثاره يعللون أنفسهم بها لو كان ذلك يقنعهم أو ينفعهم .

ولو شئتَ لما أثقبَ الكيدُ نارَهم ... سددتَ فروجَ النارِ بالحطبِ الجزلِ
لبلّتْ أنابيبُ الرماحِ فوارسٌ ... يفرون من ذلّ الحياة الى القتلِ
خفافٌ الى الهيجاء خرسٌ عن الخنا ... وأسيافهم في الهام تنطق بالفعلِ

وليس الممدوح وحده حلما يتمنى الشاعر تحقيقه لكنه يتمنى أن تشاركه مجموعات كثيرة من أبناء عصره في مبادرته وسبقه واقتحامه الصعاب وتخطيه الأهوال

ولكن شنيتَ الجهلَ بالحلمِ فانثنى ... ومثلُك من قادَ الجموحَ على رسلِ
تتبّعْ بنيّاتِ الضغائنِ بالأذى ... فقد أفسد الأعداءُ أخذُك بالفضلِ
عن الحلمِ في بعضِ الامور مهانةٌ ... اذا كان لا ينهى عدوّك عن جهلِ
وكنت حساماً غيّرَ الدهر لونَه ... فحادثته من جود كفّك بالصقلِ
ووفد كدفّاع السحابة زارني ... بلا عدة من راحتيك ولا مطلِ
حظيتَ به عند المكارم والعلا ... وغيرُك يحظى بالملامةِ والعذلِ

ومع هذا فانه قادر على تقليم أظفار الجهالة والحقد وكبح جماح الشر والعدوان وذلك بالأخذ بمبدأ الحلم أمام الجاهل حتى يرجع عن جهله والسماحة مع الغويّ حتى يعود عن غيّه ، فقد يكون سلوك هذا الطريق رادعا لكثير من الضالين وممكّننا من السيطرة عليهم لكن لا بدّ من أن يكون في ذلك الزمان أناس لا ينهي شرّهم الا شرّ مثله لأن المعروف لا يثمر معهم ولأنهم ينظرون الى حلم الحليم فيرونه ضربا من المهانة والضعف والاستكانة والشاعر يريد رجالا يصلحون في كل الظروف والأوقات ، رجال كالسيوف وان أصابها الزمن .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهكذا فان ابن نباتة السعدي يشارك أبناء عصره من الشعراء في اظهار كرههم لهذه الحياة المتعبة ولزمنهم الصعب والفرار الى الحياة العربية الماضية حيث الزمن العادل الرحيم والصحبة الأوفياء ، وهو يؤكد شعوره بالامتعاض من زمنه الحاضر ورغبته الشديدة في الفرار منه على أقوى النوق وأنشطها وهي نوق بعثها أيضا من الصحراء العربية لتنقله الى زمانه المنشود .

ويظهر خلال مدحه الحاكم البويهي عناصر الفساد والضغينة والحقد والعداوة التي استشرت في ذلك العصر وأنهكت المجتمع وأبناءه الشرفاء لعل في اظهاره الشكوى منها تنبيها للحاكم الذي يتمنى أن يلقى عنده الاستجابة فيعمل جاهدا على تخليص القوم مما ألمّ بهم .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهذه احدى قصائد السريّ الرفّاء[1] والغرض الرئيس منها مـــــــدح الوزير أبي محمد المهلبي ومطلعها :

يأبى اذا خطر العقيق ببالـــه الاّ . اطراح العذل من عذّالـــه

فالشاعر يفجأ الممدوح من أول بيت في القصيدة باثارة صورة من صورة الحيـــاة العربية تكرر ذكرها كثيرا عند الشعراء السابقين ألا وهي الأمكنة الحجازيـــة التي ما انفك هؤلاء الشعراء يتعلقون بها رمزا دالا على جانب من جوانب الماضـي العالق بالروح والنفس .

ويمكنني تقسيم القصيدة الى ما يلي :

أولا : الأبيات من ١ - ٨ تذكر لديار الحبيبة ووقوف بها وبكاء لرحيلهـــا عنها ودعاء لها بالسقيا :

يأبى اذا خطر العقيق ببالـــه الاّ اطراح العذل من عذّالـــه
قسم الدموع على المنازل عالمـا أن الجوى فيهنّ من أنذالـــه
وهو الكثيب تلاعبت أيدي النـوى بكثيبه وقضيبه وهلالـــه
راحوا به واللحظ يقدح جـــرأة فيكر بين حجوله وحجالـــه
والشوق ينشر دمعه في خـــده فيقرّ أو يجري على جريالـــه
يا دار جاد بها الفراق جمالهـا فغدا وراح على ظهور جمالـــه
ما بال ربعك لا يتاح لقـــاؤه لمحبه الاّ غداة زيالـــه
فسقيت رجع حدوجه وسقى الحيـــا محتلة وسقيت عود وصالـــه

فالشاعر يبدأ قصيدته بفعل يدل على النفور والاباء هو قوله "يأبى " ولعـــل في استعماله فعلا مثل يأبى وما يرادفه تعبيرا عن شدة علوقه بالحجـــاز وعقيقه ورفضه الشديد نسيان تلك الديار وما جاورهـــا حتى لينسى عذل العـــذال ولوم اللاشمين الذين يؤاخذونه على كثرة ذكره هذه الديار وليس في نفســـه أي أي اعتبار أو قيمة لشأن آخر غير شأنها بل انه ليمضي في حبها والعلـــوق بها الى حد البكاء حرقة من أجلها وما أهون دموعه لسبب منها وليســـت تهون لأمر آخر مهما بلغت قيمته ، وفي بكائه لذكر العقيق دلالة علـــى حجم الألم والحزن الذي تشكّل في نفسه لضياعه وبعده عن هذا المكان .

---

(١) ديوان السريّ الرفّاء ، ص ٢٣٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهو يبكي أيضا لبعد شيء آخر قد حفر في قلبه ألا وهو الحبيب الذي شطّ به الفراق مع انه الآخر متعلق بحبيبه ، انظر اليه وقد راحلا لكن عينيه ما تزالان متعلقتين بالحبيب وبدوان في حيرة شديدة ترددان النظر ما بين الحبيب وصاحبتهما التي ملك الشوق عليها نفسها فبكت وانحدرت اللآلىء متناثرة من عينيها الجميلتين الى ضحن وجنتيها لتستقر فيه أو تمضي منحدرة .

في هذا الجوّ المشحون الذي تملؤه الحسرة لرحيل الحبيبة والشوق لرؤيتها والألم والبكاء لفراقها تضطرب محسنات الشاعر وزخارفه اللفظية فيأتي بالجناس الناقص في قوله : حجوله التي قصد بها الخلاخيل وحجاله وهي الستور التي تضرب على الفتيات بالهوادج ، وفي قوله : يجري وجريانه ولعل فقد الشاعر للمعالم الجميلة دفعه الى الاتيان بالجناس الناقص المضطرب .

ثم ينادي السريّ الرقاء تلك الديار التي فارقها الحبيب ففرقها جمالها وكأن الفراق قد انتزع الجمال من الديار نزعا ببعد الحبيب عنها وكأن هذا الجمال قد حمل على ظهور الجمال الرواحل مثلما حمل الحبيب عليها لأن وجود الحبيب هو الذي يضفي الجمال والبهاء على تلك الديار.

والشاعر ينادي الديار بأداة نداء البعيد النائي ويسألها متألما : مالي لا أرى الحبيب الذي يشبه الغزال الاّ راحلا مبتعدا ، واستعارة الشاعر لصورة الغزال لتشبيه الحبيبة بها جاء من الموروثات التي يحرص عليها ويتمسك بها ونجده لا يحير جوابا منها فهي خالية بائسة خربة قد فقدت أنيسها فيرتد محزونا ويلوذ بالدعاء لهذه الديار بأن تعود أحمال الحبيب اليها وأن تجلل أرضها بالمطر وتسقى بعودة وصل الحبيبة لتعود اليها الحياة ، وهو في كل ذلك يعبّر عما يتمناه من عودة كل ما مضى وسلف من الزمان .

ثم يعيش الشاعر حلما طويلا يمتد من البيت التاسع الى نهاية القصيدة يرى فيه ممدوحه بطلا شجاعا كاملا مكملا في صفاته وأفعاله ، لكن صحوته على واقعه المرير تغالبه أحيانا فيكون حلمه هذا متساوقا مع أحلامه وأمانيه بالحبيبة وديارها الزائلة .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ورقيقةٍ كالآلِ نادمني بهـــا ... كسرى فرحتُ كأنني من آلـــهِ
ألقاه اما حاسراً لصبوحـــهِ ... فيها واما دارعا لقتالـــهِ
وأداةُ ساقٍ أداةَ شمولـــهِ ... مجموعة بيمينه وشمالـــهِ
أو نابلٍ لما تكامل نزعُـــهِ ... لم تتصل أغراضُه بنبالـــهِ
أترِاه صانَ عن الرمية سهمـــه ... أم رأفةً منعتْه عن ارسالـــهِ
عصر مزجتُ شمائلي بشمولـــهِ ... وظلاله ممزوجةٌ بشمالـــهِ
حتى حبستُ الورد من أشجـــارهِ ... عبَقا أو الريحان من آصالـــهِ

يعيش الشاعر حلما يمتد من البيت التاسع الى نهاية القصيدة وفي هذا القسم نجده يكرّس حلمه بالممدوح البطل . الا أن صحوته على واقعه المرير تغالبه أحيانا ، فممدوحه حاكم ملائم لعصره في جميع صفاته ويبدو لي الشاعر مسايرا الممدوح وقومه لأن الخوف من السلطان الباطش قد انقلب في نفسه فاستحال رقة ونعومة خلعها على أرض الممدوح فنراه يمرّ بأرضه وممدوحه في الحلم هو كسرى أو صورة منه وهي صورة من الماضي الفارسي لحاكم جبار ما زال التاريخ يذكره ، وأرض الممدوح رقيقة لامعة تشبه بلمعانها السراب ولعلّ في اختياره كلمة " الآل " ليشبه بها أرض الممدوح دلالة على أنها في قرارته وهمٌ زائل لا محالة .

على هذه الأرض السراب التقى الشاعر الممدوح البويهي الذي يرى الشاعر نفسه " كأنه قد أصبح من آله " ألا ترى معي ان احساسه بالغربة والبعد عن الممدوح ما يزال يلحّ عليه فيكرّس في نفسه الشعور بأنّ من يمدحه ليس من قومه أو أهله ؟

لكنه - في نظر الشاعر - بطل قادر على أن يكون لكل وقت فهو يشرب وقت الشرب ويقاتل وقت القتال وقد أخذ نفسه بالحزم فأعدّ لكلّ شيء عدته بحيث يستطيع ضرب عدوّه وقت يشاء ويكفّ عنه وقت يشاء .

الواترُ الأموالَ يوم عطائـــهِ ... والنافضُ الأوتارِ يوم نزالـــهِ
ان كنتَ تشتاقُ الجِمام فعـــادهِ ... أو كنتَ تختارُ الحياةَ فوالـــهِ
يعطيك ما يعطيه كرّ جيـــادهِ ... وشبا أسنتهِ وحدّ نصالـــهِ
أما السماحُ فقد تبسّم نـــورُه ... بعدَ الذبولِ وعاد نورُ ذُبالـــهِ

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وما زال الشاعر يحلم ويتمنى فاذا بممدوحه جواد معطاء وعطاؤه متتابع سواء من المال للمحتاجين أو من النبال للأعداء :

وفي صحوته على واقعه نرى الشاعر يعبّر صراحة عن أنه يمدح هذا الحاكم خشية منه وخوفا من بطشه وقتله الناس فهو غير مأمون الجانب وعلى من يريد الحياة من رعيته أن يكون مواليا له وان اختار عداءه فقد اختار لنفسه الهلاك على يدي هذا الحاكم الذي يملك من العدة والعتاد ما يمكّنه من غلبة أعدائه .

والشاعر يكرّر حلمه بالعطاء ولعلّ أحوال زمانه وما فيها من منع وبخل وحاجة هي التي تجبره على تكرار هذا الأمر ، وانظر معي صورة السماحة عند هذا الممدوح انه انسان يبسم بثغر مشرق منير فيعيد الحياة والتفتح والاشراق لكلّ ما ذبل وخبا .

أقول للساعي ليدرك شأوَه أنت الجوادُ ولستَ من أشكاله

ان الممدوح الحلم والأمنية فرد زمانه وهو البطل المميز الذي بذّ الناس جميعا وفاقهم جودا وعطاء بحيث أصبح صفاؤه يخالط القول فيه فيسبغ عليه من صفائه وزلاله .

وغدتْ خلائقُه أحقُ بمنطقي فمزجتُ صفوَ زلالها بزلاله

وهكذا فاننا نجد السريّ قد أشار قضية بعث الماضي العربي ممثلا في الأماكن الحجازية والنجدية التي جاءت ايحاءات ورموز الى هذا الماضي الذي ما زال عالقا بنفوسهم وأرواحهم يملؤها أملا يبشر بعودة حياة من مثل تلك التي كانت بها في الماضي ، أما الآن فان في نفوسهم - الى جانب الأمل - شوقا لا يبل وحسرة تبعث البكاء وحرقة مضنية ، فينادي تلك الديار التي يرى أنها قد فقدت رونقها وبهاءها بعد أن فارقها أصحابها ، وبوجه نداء استغاثة عميق يتمنى خلاله عودة الحياة العربية الماضية وبعثها من مراقدها ليبعث معها رجالها الذين حلم بهم وهو في معرض حديثه الى ذلك الممدوح .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ونجد من هنا أن مقطع المرأة في هذه النصوص الأربعة كان لبنة أساسية في بناء قصائد هؤلاء الشعراء اذ ان حديثهم عنها جاء متفقا مع غرضهم الى ممدوحيهم في ربط متقن رائع قوّى من العلاقة ما بين جزئي القصيدة وشدها بعضها الى بعض .

فلقد جاء حديثهم عن المرأة وما يدور في فلكها رموزا تدل على ما في نفوسهم من معان أرادوا ابرازها وقضايا تمكنوا من طرحها عن طريق مقدماتهم أمام هؤلاء الممدوحين .

فجاءت رموزهم جزئية مرة وكلية مرة أخرى تدل دلالة كافية على معاناة هؤلاء في عصرهم وآلامهم في زمنهم الذي فقدوا فيه الأمن والأمان والاستقرار والحياة الهانئة ففروا من زمنهم الى الزمان الماضي حيث الحبيبة العربية في ديار نجد والحجاز ورحلوا اليها في تلك الديار يملأ نفوسهم الشوق ويحدوهم الأمل في لقائها حيث سيتمتعون معها بحياة هانئة ملؤها الكرامة والعزة والودّ الصادق .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

لغة شعر المرأة عند شعراء الدراسة

لا بدّ من أن أشير أولا الى أنه حينما انقسمت الدولة الاسلامية الواسعة الأرجاء في أوائل القرن الرابع الهجري الى دويلات وامارات صغيرة مستقلة بنفسها ظهر نتيجة هذا الانقسام والاستقلال آداب خاصة بكل امارة ، فيها ما في هذه الامارات من طوابع وخصائص بحيث يكون هذا الأدب خاصا بذلك الاقليم دون سواه اذ يمكننا تسمية هذه الآداب بالآداب الاقليمية ،[1] أو كما اصطلح على تسميتها بأدب الدول المتتابعة أو أدب الممالك والأمصار مع التأكيد على أنّ الخصائص الفنية العامة للأدب العربي قد انتقلت أيضا الى هذه الأقاليم حينما انتقل اليها الأدب من جزيرة العرب ، وأن هذا الأدب قد تأثر بالحياة الحضارية والعلمية والفنية والثقافية في البلاد المفتوحة .

ولا بدّ من أن أشير ثانيا الى أنّ لغة الشعر عامة والغزليّ خاصة في بلاد فارس والعراق وفي ظل بني بويه ، قد ظهرت بشكلين : أولهما رفيع وهو الذي ظهر في شعر شعراء هذه الدراسة والذي درستُ نماذج منه ، وثانيهما شعبيّ وهو الذي أعرضت عن دراسة صور المرأة فيه لأسباب أوضحتها في مقدمة الفصل الثاني من هذه الدراسة .[2]

وقد ظهر هذا اللون من الشعر على ألسنة شعراء كثيرين مثل ابن سكّرة وابن الحجاج والسّلامي وابن بابك ونصر الخبز أرزيّ والصابيّ وابن لنكك وابن جلبات وغيرهم ... فقد كان هؤلاء وأمثالهم يعيشون حياة مليئة باللهو وكان مثلهم الذي يعيشون من أجله ويسعون اليه خمرا وغناء وقصفا وخلاعة مع الغلمان والجواري ، فانظر معي الأبيات التالية لأبي الحسن السلاميّ لترى الحياة التي يعيشون :

عدل الحبيب فمن يجور ... ودنا فأين بنا يسيرْ
عوّضتُ من عيس تدور ... بي الفلاة كأسا تدورْ
نُوارُ روضتنا خُدودٌ ... والغصونُ بها خصورْ
والعيش أستر ما يكون ... اذا تهتّكت الستورْ[3]

---

(١) محمود غناوي الزهيري ، الأدب في ظل بني بويه . ص ٢٩١
(٢) أنظر ص ٢٦.
(٣) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٢ ، ص ٤١٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وتتجّه صور الغزل عند هؤلاء وجهة أخرى حين نراهم يولعون بالغزل بالغلمان والجواري ونذهل عندما نقرأ قصصهم الغرامية معهم ، ويرى متز أن توجههم نحو هوى الغلمان يعادل توجههم نحو هوى النساء .(١)

حتى أن الدارس ليحار في صور الغزل عندهم حينما تلتبس عليه شخصية المعشوق ولا يدر أهو امرأة حقيقية أم غلام خالع مستهتر ، وقد تستغرب حين ترى شاعرا مثل أبي الحسن السلاميّ يكاد أن يقصر غزله على الغلمان دون النساء ، فقد أكثر من التفنّن في تشبيهه بغلمان البدو والعيّارين والأتراك ، كما كان يتفنن في الوسائل التي تمكّنه من اغوائهم ، فانظر معي قوله في غلام تركيّ يصف كيف استطاع أن يخدعه :

علقتُ مفترسَ الضراغمِ فارساً ... رحبَ المدى والصدرِ والميدانِ
قمرٌ من الأتراكِ تشهدُ أنّه ... الخوْدُ الحَصانُ على أغَبّ حصانِ
ألفتُ طرّتَه وغرّته وما ... كان الدّجى والصبحُ يأتلفانِ
ورمى بلحظيه القلوبَ وسهمه ... فعجبت كيف تشابَه السهمانِ
بطل حمائله كعارضه وحا ... جبه الأزجّ كقوسه المرنانِ
حييته فدنا وأمطرَ راحتي ... قُبَلا فلبيت فمي مكان بناني
وخدعته بالكأس حتى ارتاض لي ... ودرأت عني الحدَّ بالكتمانِ(٢)

وقد شاع هذا الغزل عند كثير من الشعراء في المجتمع البويهي ، ولم يترفع عنه ذوو المناصب الكبرى في الدولة ولم يتحرّجوا من الغزل بالغلمان واظهار الولع بهم والعشق لهم كالصاحب بن عبّاد والوزير المهلبيّ ، فالصاحب بن عبّاد كان يهوى من الغلمان من كان أغنّ الصوت ، غنّاجا ، ألثغ السين ليقول فيه :

وشادنٍ قلتُ له ما اسمكا ... فقال لي بالفنج عبّاثُ
فصرتُ من لثغته ألثغا ... فقلت أين الكاث والطاثُ(٣)

ولم يتحرج بعض ذوي المناصب الدينية من الفقهاء والقضاة من مشاركة أهل عصرهم ولعهم بالغلمان وميلهم اليهم ، وفي كتاب يتيمة الدهر أمثلة كثيرة لغزلهم .

(١) آدم متز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ج ١ ، ص ١٣٥ .
(٢) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٦٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فأقرأ معي هذه الأبيات لابن سكّرة لترى أنّ الغلمان في هذا العصر كانوا يعملون بأجر فلا يصلون عشاقهم الاّ اذا قدّموا لهم حاجتهم من الدراهم ولنعلم بعد ذلك الى أي مدى كان هذا الأمر منتشرا وشائعا بينهم :

أحببتُ بدراً ماله مشبّهٌ ... في الحسن لولا أنه جافي
أحورُ في مقلته حجةٌ ... للعين والشين مع القافِ
سألته الوصلَ فلم يحتشمْ ... وقال قدّم نقدك الوافي (١)

وبعد قراءة النماذج القليلة المتقدّمة من هذا الشعر الذي شاع وانتشر على ألسنة الكثيرين في هذا العصر ، والتي توخيت انتقاءها خالية من الفحش وذكر العورات بأسمائها ، أستطيع القول انّ حب الغلمان في هذا العصر قد شاع بين الناس بحيث أننا لا نكاد نعثر في هذا المجتمع على رجل أحبّ امرأة حرّة حبا أفضى به الى الهيام أو التلف كما كان يحدث لمن أحبّوا الفتيات والجواري حتى أن الغزل بالغلمان قد حلّ محلّ الغزل بالنساء الحرائر . (٢)

وكما أشرت سابقا فانّ صور الغزل بالغلمان لا تعنيني دراستها هنا الاّ أنه لا مانع من أن أقول ان لغة هذا الشعر بألفاظه وتراكيبه وصورة تخلو من الصنعة اللفظية والزخرفة والعبارات التي تجري مجرى الأمثال أو الحكم ، كما أنه شعر بسيط في معانيه يخلو من العمق والخيال الواسع المجنّح ، وليس في هذا الشعر مبالغات وتهويلات كثيرة أو رموز ودلالات بعيدة فهو بسيط سطحي في معانيه وأساليبه ذلك أنه كان في معظمه يصدر عن حياة أصحابه ومن أقصر طريق حتى أنّ من يقرأ شعر ابن سكّرة وابن الحجّاج يرى فيه كثيرا من الألفاظ والمعاني العاميّة .

وأرى أن وجود هذه الظواهر في بعض الشعر البويهيّ جاء نتيجة تأثره بالحياة الاجتماعية الفارسية التي شاعت في ذلك المجتمع وطبعته بطوابع يختلف فيها عن غيره من الآداب العربية في الدول الأخرى .

---

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر ، ج ٣ ، ص ٦ .
(٢) محمود غناوي الزهيري ، الأدب في ظل بني بويه ، ص ٢٧٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وأجد الأمر مختلفا تماما عند شعراء هذه الدراسة فقد جاء شعرهم بلغة رفيعة - كما رأينا - تعبّر عن أنهم فئة من الشعراء غير أولئك الشعراء اللاهين، فلقد تطلّعوا الى حياتهم ، القلقة المضطربة التي أتعبت أصحابها في الوقت الذي كانوا يرجون منها أن تصبح على صورة غير التي يجدون ولما لم يتحقق مطلبهم من الحياة - كما رأينا في الفصلين الثاني والثالث من هذه الدراسة ، فرّوا منها الى لون حياة كان الانسان العربيّ يعيش ماجدا في ظلالها يتنفس الحرية ويطاول الكرامة والعزّة وتتحقق انسانيته في أسمى معانيها ، فرّوا الى هذه الحياة ولاذوا بها يحلمون بتبديل حاضرهم وتوجيهه وجهة يجدون فيها رفعة الانسان وكرامته وسموّه .

وكان التراث الشعري على رأس الأشياء التي خافوا عليها الضياع وسط زحام تلك الحياة التي اضطربت أركانها وبين ذلك الجمّ الكثير من الشعر الذي كاد أن ينهي وجود القصيدة العربية القديمة بكل فنونها ونظمها والذي جاء على ألسنة أولئك الشعراء الذين اندغموا في الحياة الفارسية وخرجوا على مألوفات الحياة العربية .

وانطلاقا من هذا فرّ شعراؤنا ولاذوا بلون القصيدة العربية القديمة التي حملت لهم الماضي بصوره التي بها يحلمون ، لاذوا بالماضي العربي حين أحسّوا ضرورة الانتماء اليه تخلصا من الحاضر ولعلّ الماضي يصبح في ظلّ هذه الصور حاضرا مرغوبا ، لذلك وقفوا على الأطلال التي انبتّت وكانت من قبلمعمورة بالحياة والناس زمن وجود الأحبة الراحلين والذين مثّلوا الماضي العربي الذي ذهب ، وكانوا يرمزون بالأطلال الى الماضي أيضا ، الى جذور الحياة العربية يبحثون فيها عن عناصر تلك الحياة يبكونها حينا ويدعون لها بالسقيا والتجدّد حينا آخر ، وكذلك ذكروا الظعن والركب المرتحل والذي يؤكدون بذكره فكرة الحياة الماضية الذاهبة ورغبتهم في حياة جديدة تسعى الى الماضي فتأخذ منه زادا لحاضرها .

ولعلّ من الخير لهذه الدراسة أن أعرض بعض النماذج لهؤلاء الشعراء تؤكد ما قلته .

فها هو الشريف الرضيّ يقف على أطلال الحبيبة البالية والتي شهدت لقاءاته معها ، يبكي بقايا هذه الديار ويدعو لها بالسقيا ويذكر رحيل الحبيبة عنها وتحولّها الى بقايا يعرفها من آثار علامات وبصمات ثابتة تبقى على الدهر تشير الى نفسها وأهلها الذين عمروها بالحياة من قبل :

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قفت المنازلُ يوم كاظمةٍ ... أنّ المطيَّ يطول موقفُها
لمعٌ من الأطلال يحزننا ... محتلّها البالي ومالفُها
سبقت مدامعُها برشتها ... من قبل أن يُومي مكفكفُها
وتكلّفتْ من صوب ماطرها ... فوق الذي يرجو مكلّفها
ان كنتُ أنفذتُ الدموعَ بها ... فالوجدُ بعد اليوم يخلفُها
لا منّةٌ مني على طللٍ ... ديمٌ طلاع العين أدرفُها
طعنوا فللأحشاء مذ طعنوا ... حرق تعسّفها وتعسفها
لا تنشدنّ الدارَ بعدهم ... اني على الإقواء أعرفها (١)

وهذا مهيار الديلمي يدعو للأطلال بالسقيا ويتمنى على المزن لو تجود عليها بما حملته من أمطار ، وكأني بديار حبيبته قد وجدت وسط صحراء قاحلة تقطعت الأسباب بينها وبين الخصب بمفارقة الأحبة لها ، وكأنه في غمرة آلامه يستدرك ويتساءل ما فائدة السقيا لديار استحالت آثارا وبقايا ويباسا بعد مفارقتها الأحبة والحياة والحركة :

أجتدي المزنَ وماذا أربي ... أن تجودَ المزنُ أطلالاً رماما
أين سكانُك الا أين همُ ... أحجازا أقبلوها أم شآما؟

ومع أن هذه الديار قد دثرت وتحوّلت أطلالا وخلت من أهلها الا أننا نرى ابن نباتة ما زال عالقا بها يدعو لها بأن تعمّها السحب المحمّلة بالأمطار فتحييها :

لمن بقايا طللٍ ماثلٍ ... خالي الثرى من أهلِه عاطلِ
تداركتْهُ كلُّ خوّارة ... تغذوه بالطلّ وبالوابلِ (٣)

أما بعد أن هجرها الأحبة فان حسن هذه الديار وجمالها قد فارقاها فأضحى مشهدها مؤلما لكن نجوم الليل بما تحمله من ضياء واشراق ما زالت تتردد عليها فتنيرها لعلّ في انارتها بعثا للحياة فيها :

كأنّ نجومَ الليلِ بعد فراقهم ... أقامتْ على آثارهم تتردّدُ
ودارٍ لهم لما نأوا بادَ حسنُها ... تمرّ بها عينُ الصحيح فترمدُ (٤)

---

(١) ديوان الشريف الرضيّ ، ج ٢ ، ص ٣٠ .
(٢) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٣ ، ص ٣٢٧ .
(٣) ديوان ابن نباتة السعدي ، ج ١ ، ص ٤٦٦ . الخوّارة : السحابة المحمّلة بالأمطار .
(٤) المصدر السابق ، ص ٥٤٢ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

والسريّ الرفّاء يرى أن هذه الديار على عادتها فانها وبعد فراق الأحبة لها وتحولها آثارا وأطلالا لم تعد تقوى على النطق واجابة السائلين وردّ لهفتهم ، وهم مع ذلك متمسّكون بها لا يتحولون عن حبها بل انهم على استعداد لاعادة الحياة لها ولو بدمهم ودموعهم :

تأبى المنازلُ أن تجيبَ مسائلا ... حالتْ ولبست عن الصبابة حائلا
خلفت مدامعنا الحيا في ربعها ... فتناثرت طلاً عليه ووابلا (١)

ولم ينتهِ الأمر بهم عند الوقوف على الاطلال ، بل انهم أكثروا من تعداد أسماء أماكن في الحجاز ونجد ترمز الى شدة علوقهم بتلك الأرض منبت الحياة التي اليها يتوقون وها هو الشريف الرضي يقول مناديا عن بعد تلك الأماكن :

تحمّلَ جيرانُنا عن " منىً " ... وقالوا : النقا بيننا موعدُ
وهل نافعٌ قولُ ذي عُلّةٍ ... وقد بعد الركبُ : لا يبعدوا
تنادوْا بأن التنائي غدا ... لك السوُ من طالعٍ يا غدُ
فلله ما جمع " المأزمان " ... وجمع " لقلبي والمسجدُ (٢)

وما زال الرضيّ يردّد ذكر تلك الأماكن بأسماء أصحابها من قبائل العرب الخلّص الذين يرى في موطنهم العزة والشموخ باقيين ما بقيت الحياة :

ذكرت على بعدها من منالي ... منازل بين قبأ والمطال
ومبنى قباب " بني عامر " ... على الغور أطنابهنّ العوالي (٣)

وأرى ابن نباتة السعدي شديد العلوق بتلك المنازل في " عنيزة " التي وان استحالت أطلالا وبقايا الاّ آن في زواياها بذورا من حياة وان كانت متفتتة :

هلاّ سألتَ منازلا " بعنيزة " ... دثرتْ وتالدُ حبها لم يدثر
وفصائمُ الجدعاءِ يوم حملنها ... كالدّومِ أو سحق الفسيل الموقرِ (٤)

---

(١) ديوان السريّ الرفّاء ، ص ٦٠١ .
(٢) ديوان الشريف الرضيّ ، ج ١ ، ص ٣٩٢ .
(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .
(٤) ديوان ابن نباتة السعدي ، ج ١ ، ص ٥١٧ ، ٥١٨ . الفصائم : الأشياء المتكسّرة . الجدعاء : المنقطعة .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وابن نباتة السعدي يتألم لبعده من " سفط اللّوى " فيعبّر بهذا النداء البعيد ويدعو بالفراق على أولئك الذين كانوا السبب في بعده عنه مؤكداً أن " سفط اللوى " سيبقى معمورا بأهله ولن تقوى الحادثات على محوه وازالته :

يا منزل الحيّ" بسفط اللّوى " لادلّ من دلّ عليك النوى
عهدي بأوطانك مأهولةً تقضي العواديّ ولا تُقتضى (١)

وهذا السريّ الرفّاء يبكي فراقه " وادي العقيق " ذلك الوادي الأثير المحبب الى كل نفس والذي تفدي له أغلى الأشياء :

مررنا " بالعقيق " فكم عقيق نرفرق في محاجرنا فذابا
ومن مغنى جعلنا الشوق فيه سؤالا والدموعَ له جوابا (٢)

وأما مهيار الديلميّ ذلك الشاعر الفارسي الذي خطا مع استاذه الرضيّ خطواته نحو نشدان الحياة الفضلى ، فاني أراه يبلغ شأوا بعيدا في ذكر الأماكن الحجازية والنجدية والاكثار من تعداد أسمائها فهو يرى " جمعا " و " منى" موطنا لشبابه وهواه :

راش نبالا في جفنه ورمى طبي " بجمع " ما راقب الحرما
بأي دين لم تلو يوم " منى" وأي دين عليك قد سلما (٣)

وكذلك كان " المصلّى " و " خيف " شاهدين على هذا الهوى :

لا وليالٍ على " المصلّى" تسرق في نسكها الذنوب
وما رأي" الخيف " من هنات يغفرها المالك الوهوب (٤)

وكذلك الحبيبات دوما حجازيات أو نجديات وأسماؤهن من أولئك العربيات اللواتي برزن في الحياة الشعرية السابقة للعرب فهنّ اما ليلى أو فاطمة أو سليمى أو خنساء أو نعم أو غيرهنّ :

---

(١) ديوان ابن نباتة السعدي ، ج ١ ، ص ٢٩٦.
(٢) ديوان السريّ الرفّاء ، ص ١٤ .
(٣) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٣ ، ص ٢٤٢ .
(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فهذا مهيار الديلمي يطربه ويسحره ويبهج حياته رد " خنساء " بقبول وصاله وكأنّ وصلها واقبالها عليه بداية لحياة مطربة ساحرة وبعثا للمسرة في مظاهر الحياة الحيّة :

مالَك لا تطربُ يا حادي النّعم ... أما سمعتَ قولَ " خنساء" نعمْ
وقد تحدثنا على " كاظمة" ... بنافث السحر حديث "ذي سلم"(١)

وصاحبة ابن نباتة السعدي هي " ليلى " التي يتوق لرؤيتها ولا يبرح ذكرها نفسه ، لكنها فارقت الديار ، وبفراقها عمّ القحط والجدب ، وهو يحلم بعودة الحياة لها بعد أن عمّها المطر هي وما جاورها :

الام اذا ذكرتُ ديارَ " ليلى " ... وهمَّ الصبّ شوقٌ واذكارُ
وأطلالٌ تجاور دارَ " ليلى " ... سُقينَ لها فقد نفعَ الجوارُ(٢)

ولم ينسَ هؤلاء الشعراء ركب الحبيبة السائر وظعنها الراحل ، فهذا ابن نباتة السعديّ ينظر ركب الحبيبة المرتحل ويطلب الوقوف والتبصّر في تلك الحياة التي اجتمعت فيها النوق والغزلان والحبيبات وكلها عوالم جميلة خصبة تغني الحياة وتحافظ على استمرارها ونمائها ، لكنها ذاهبة مودّعة لذلك غنّى لها الحادي غناء فيه بحّة أليمة ورنة حزينة ، وكأن الحياة قد سكنت بعد أن فارقتها هذه المعالم الحيّة وبعدت عنها فجاءت قافية الأبيات الساكنة دالة على ذلك :

من أبصرَ الابلَ الرواسمْ ... ترمي المهامهَ بالمناسمْ
لا يملكُ الحادي على ... آثارها الاّ الهماهمْ
يحملنَ أمثال الجآ ... در أسلمتهنّ الصرائمْ
أضحتْ تراعي بالفلا ... فرِ خواذلَ الخنسِ الروائمْ(٣)

والشريف الرضيّ يبصر ظعن الحبيبة مرتحلا فيتعلّق به ويسير وراءه ويتتبعه في غير مكان لأن في رحيله استمراراً لعطشه وظمأه ، كما أن بعد الحبيبة وفراقها

---

(١) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٣ ، ص ٢٤٩ .
(٢) ديوان ابن نباتة السعدي ، ج ١ ، ص ٢٣٩.
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٢٠. الرواسم : السائرة ، المهامة : المفازات المقفرة. المناسم : أطراف خفّ البعير . الهماهم : أصوات فيها بحّة . الروائم : التي تحن وتعطف .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فيه معنى الانبتات والانقطاع من حياة جميلة يتوق الشاعر دوما لها والعيش في ظلال حياة وأناس لا يرغب فيهم :

انّ الظعائنَ يوم " جوّ سويقة " عاودتْ قلبي عند يوم الحاجرِ
سارتْ بهم ذُللُ الرِّكاب فبلا روىً للظامياتِ ولا لعا للعاشرِ
كم في سراها من سروبِ مدامعٍ تقفو سروبَ ربارب وجآذرِ
حبستْ ذخائرَها المدامعَ بعدكم في أربع قبلَ العقيق دواثرِ
يبكين حيّا خفَّ غيرَ مقايضٍ بهوى وحيّا مرَّ غيرَ مزاورِ (١)

وهذا مهيار ينظر ركب حبيبته مرتحلا ويبصر ظعنها مبتعدا فيتألم لعدم استطاعته رؤيتها والوصول اليها وهو متوكد أن رؤيته لها ستفتح له عالما مشرقا وحياة منيرة ما زال يحلم بها ، وان تحققت فان هذه الحياة ستطاول الشمس علوا وضياء وقد تسبق الظلام فتحط قبل وصوله ، وكذلك نبصر مسير الابل السريع فنراه يوحي باندفاع الى الحياة المنشودة التي تشارك الحبيبة فيها لكنها الآن مختفية في هودجها :

أمامكَ الظعنُ رائحاتٌ فكيف ترتاحُ للنزولِ
أنظر فانّ الدموعَ حالتْ جفني عن ناظرٍ كليلِ
أبارقٌ ما تشيمُ عيني أم المصابيحُ في الحمولِ
تسابقُ الشمسَ جنب " سلعٍ " حتى سبقن الدجى بميلِ
ينقلن وخداً بيضاتٍ كنّ نحضن بالشدّ والذميلِ (٢)

ثم انظر معي السريّ الرفّاء لنراه يبصر العقيق وقد خلا من أناسه فيحلم بغيث عميم ويطلب سقيا دائمة تحرّك فيه الحياة التي ركدت بعد أن رحلت الحبيبة وبعودة الحياة والحبيبة تعمر الديار بالظباء والربائب التي توحي باستمرار الحياة وتجددها ونمائها :

تحيةُ الغيثِ منهلا سحائبُه على العقيق وان أقوتْ ملاعبُه
لا بل على الحيّ مشدوداً هوادجُه على الشموسِ ومذموماً ركائبُه
حتى تردَّ عليه آية سلكت ظباؤها الفيدُ أوحلّت ربائبُه (٣)

---

(١) ديوان الشريف الرضيّ ، ج ١ ، ص ٤٧٩ . لعا : دعاء بالانتعاش والخلاص من الشدة .

(٢) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٣ ، ص ٩٨ . الكليل : التعب . الوخد : اسراع البعير في سيره ورميه بقوائمه كالنعام ، الكنّ : المستترات . نُحضن : ضعفن وخف لحمهنّ . الذميل : السير السريع .

(٣) ديوان السريّ الرفّاء ، ص ٢٩ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولو أردت متابعتهم في جريهم وراء عناصر الماضي ورموزه وبعثها في حياتهم الحاضرة لاحتجت صفحات كثيرة . وأرى أن ما سقته من شواهد على شدة تمسّكهم بماضيهم القديم ورغبتهم الأكيدة في احيائه مجددا كاف لاقامة الدليل على أنهم قد اتخذوا من هذه العناصر الموروثة في الشعر رموزا لحياة ظلوا يحلمون بها ويسعون اليها وظلوا كذلك يشعرون بارتباطهم بها ، فاتخذوا من جوانبها الشعرية المختلفة موحيات بمعان ودلائل على ما أرادوا قوله والتعبير عنه .

فبعثوا الأطلال والظعائن ومشاهد الرحيل من مراقدها وأحيوها لتتحرك من جديد في مقدمات قصائدهم وهذا هو أول ما نلمحه على هذا الشعر .

وربّ قائل يقول : كان من المفروض أن يلفّ التفات هؤلاء الشعراء الى تلك الجوانب المألوفة من مثل احتفالهم بالأطلال ووصف المطيّة والرحلة وقد أصبحوا مستقرين في أمصار تحفل بالحضارة والقصور والرياض وكل مظاهر الترف ، وكان المفروض أن يبتدع هؤلاء صورا جديدة تناسب روح عصرهم وطبيعته وأسلوبه .

وقد يسأل سائل : أين حق عصرهم عليهم ؟ أليس من المفروض أن يسجّلوا لعصرهم معانيه وصوره ولغته وأن يستقوا تعابيرهم من معجمه ؟! .

وقد سبق لي الاجابة عن هذه التساؤلات في مواضع عديدة من هذه الدراسة حين لم أقف عند حدود التفسرات الظاهرية لتلك الصور المألوفة في الشعر والتي كررها شعراء هذه الدراسة ، وانما التمست لها تفسيرات فرضتها ظروف حياة أولئك الشعراء وطبيعة المجتمع الذي عانوا منه كثيرا وطرائقهم الشعرية التي ساروا فيها .

وأرى أنه لا ضير على هذا الشعر لو ابتعدنا به عن الحدود الظاهرية لصوره ومعانيه ولو التمسنا له تفسيرا ينفذ الى داخله ويسبر أعماقه بل ان ذلك يكون أقرب الى الصحة دون أن نعمد الى لوي أعناق النصوص أو الذهاب بها بعيدا أو اعطائها تفسيرات ودلالات مغرقة في الرمزية .

وقد تمكنت بسهولة - ودون اعنات الصور الشعرية السابقة التي أوردتها في ثنايا هذه الدراسة - من ردّها الى دلالاتها وايحاءاتها التي رمى اليها الشعراء والتي كانت أقرب لما أرادوا قوله حين تناولوا الصور العديدة المختلفة للمرأة في ذلك العصر.وايفاء لحق هذا الموضوع من

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

البحث أورد رأي الدكتور شوقي ضيف حول شيوع العناصر القديمة عند شعراء الدراسة والتي فصّلها وبسط الحديث عنها في كتابه " الفن ومذاهبه في الشعر العربي " ، فهو يرجع ذلك الى أسباب عديدة منها : ميلهم الى التصنّع وضعفهم وعجزهم عن التجديد فاندفعوا بذلك الى تلفيق نماذجهم الشعرية ممن سبقهم .(١) وخصّ في هذا الشريف الرضيّ ومهيار الديلمي .

وأردّ على الدكتور شوقي ضيف بما رآه هو نفسه في موضع آخر من كتابه حين قال عن الشريف الرضيّ انه شاعر بارع عني بصفاء تعبيره (٢).

وحين قال من شيوع العناصر القديمة في غزل مهيار أنها قد أعطت لغزل مهيار ولغيره من شعراء ذلك العصر ضربا من الاتساع في التعبير عن الوجدان والعاطفة وهذا ما يطلب في الغزل كما يقول شوقي ضيف ، بل انه يذهب الى قوله : ان تعبيرهم ليس من الضروري له أن يرتبط بحياة الشعراء الحاضرة انما هي العاطفة ينوّع الشعراء في التعبير عنها وهم قد يعبرون بعناصر حاضرة وقد يرجعون الى عناصر قديمة تشع منها ضروب مختلفة من المشاعر والأحاسيس .(٣)

كما أرجع شوقي ضيف سبب شيوع هذه الظاهرة في موضع آخر من كتابه الى تأثر هؤلاء الشعراء بأساليب المتشيّعة والمتصوّفة في شعرهم اذ كان هؤلاء ينحون بغزلهم منحى بدويا يعبّرون فيه بالأماكن النجدية والحجازية وكأنهم يريدون أن يعطوه بذلك ضربا من العبادة والقداسة وهم لذلك يتشبثون خاصة بالأماكن المقدسة في الحجاز ، وهو يخصّ مهيارا في حديثه هذا عندما يرجع سبب شيوع أسماء الأماكن الحجازية في شعره الى أنه كان من غلاة الرافضة (٤).

واني أسأل الدكتور شوقي ضيف اذا كان الحال كذلك بالنسبة لمهيار الديلمي فما هو الحال بالنسبة لبقية شعراء هذه الدراسة ؟ ، انني لم أجد الثعالبي في "اليتيمة " ولا من أخذوا عنه يشيرون الى تشيّع السريّ الرفّاء أو ابن نباتة السعدي (٥) فنحن لا نستطيع القول بأن شعراء الدراسة جميعا كانوا متشيعين ورافضة ومتصوفين .

---

(١) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص ٣٥٧.
(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .
(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٦٩ .
(٤) المرجع نفسه ، ص ٣٥٥ .
(٥) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ٢ ، ص ١١٧ ، ٣٨٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وفي موضع ثالث من الكتاب نفسه يرجع شوقي ضيف سبب شيوع تلك الظواهر في شعر مهيار خاصة الى أنه يقلّد فيها الرضيّ ليس غير .(١)

وأرد بقولي اذا كان مهيار يقلّد الرضيّ فما هو الحال بالنسبة للآخرين من شعراء الدراسة ؟ من كان الرضيّ يقلد ؟ ومن كان السريّ وابن نباتة يقلدان ؟ هل كان شعر هؤلاء جميعا تقليدا لسابقيهم من الشعراء فقط ؟ لا أظن ذلك كذلك لأن شوقي ضيف نفسه سبق وان قال في كتابه ان العناصر القديمة في الشعر قد أعطت هؤلاء ضربا من الاتساع في التعبير عن الوجدان والعاطفة وهذا ما يطلب في الغزل ، كما انهم قد يرجعون الى تلك العناصر حين تشعّ منها ضروب مختلفة من المشاعر والأحاسيس .(٢)

ويمكنني نفي هذه التّهم جميعها عنهم حين وجدناهم قد عرضوا للأطلال والنسيب والرحيل والظعن في مقدّمات قصائد المدح أمام الحكام والوزراء وأولى الأمر من البويهيين ، وفي هذا الملمح دليل على أن ذكر المرأة وما يتبعها من عناصر في هذا الموقف لم يكن خالصا لعشق المرأة ولم يكن تقليدا متبعا ، وانما كان شريحة اتخذها شعراء هذه الدراسة خلفية واطارا يلونون بها مواقفهم الحياتية سياسية واجتماعية . ولو كانت هذه الصور جميعا تدور في فلك التجربة العاطفية الخالصة لتميّزت ببعض السمات الفنية الخاصة التي تضفيها عليها طبيعة تلك التجربة في اطارها الخاص وكما أدركها الشعراء في ذلك العصر .

لكنني أشير الى أن ما حملته من الصور التي عرضتها للمرأة - ماديّة ومعنوية - ليس فيها غير ذلك الجانب السلبيّ المؤلم الذي عرض لنا امرأة قاسية هاجرة بخيلة ممتنعة متذبذبة في علاقتها مع حبيبها ، فهل يعقل أن تكون هذه فقط هي المرأة في ذلك العصر الذي عرفناه يبيح لها مجالات واسعة للاتصال بالرجل ؟! لا أرى شعراء هذه الدراسة قد تناولوا امرأة حقيقية فقط ، وانما كانت هناك امرأة اتخذوها رمزا يعبّرون من خلال جوانبه المختلفة عن صور الحياة الكثيرة التي عاشوها في زمنهم القاسي الصعب ، زمنهم الذي لم يعرف سوى الأبجدية الحمراء ، أبجدية القتل والظلم والغدر والوشاية ، أبجدية فقد كرامة الانسان وعزّته على أيدي حكام بني بويه .

---

(١) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص ٣٥٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٦٩ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولعلّ في هذا كله ما فيه من تأكيد على تكرار قولي بأن هذه الصور للمرأة وما دار في فلك ذكرها من الاطلال والرحيل والظعن ، ان هي الاّ تذكرة بالسنن العربي الماضي وتمسكا شديدا به ولفتا لأنظار الحاكم البويهي اليه وتأكيدا على أنه الأصل الذي لا ينبتّ أبدا واشارة لمعاني الفقد العام الذي أحسّه كثير من أبناء هذا العصر ، فقد الماضي الأصيل وفقد التراث التالد وفقد الكيان السياسي والاجتماعي والثقافي العربي وفقد الحياة العزيزة الكريمة ، وكذلك كان ذكر هذه العناصر الموروثة تعويضا عن كل ما فقدوه .

لذلك وجدناهم في هذه القصائد لا يكادون يبدأون بذكر المرأة ووصف جمالها أو علاقتهم بها أو الوقوف على ديارها أو وصف الظعن والراحلة ومشهد الوداع حتى يتبعوه مباشرة بمدح الحاكم أو الوزير أو الأمير ووصف علاقتهم به في وقت كانوا لا يملكون من أمرهم ولا لأنفسهم شيئا من حول أو قوة .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الخاتمـــــــة :

وماذا بعد ... ؟ فلقد طوّفت في دواوين شعراء هذه الدراسة وانغمست في قصائدهم وتابعت صور المرأة التي رسمها كل واحد منهم ، فجمعت في دراستي هذه صوراً عديدة ملوّنة بألوان خاصة ومتميزة بحركات معينة ، ودققت النظر في هذه الصور واوضحت جمال التصوير لأنفذ منه الى نفس المصوّر .

وقد استوت عندي الدراسة في اربعة فصول قدّمت لها بمقدمة اوضحت فيها أهمية البحث ودوافعه ومن سبقني الى تناول جوانب منه وطرائقهم في ذلك وطريقتي انا فيه .

وجعلت الفصل الاوّل لدراسة احوال العصر البويهي السياسية والاجتماعية والفكرية لما لها من أهمية في الكشف عن أوضاعه التي جهلها أناس كثيرون في ايامنا وتوضيح لنشاط هذه الأحوال وازدهارها في الجانب الأدبي والفكري واضطرابها في جوانب السياسة والاجتماع والاقتصاد ، ولما لهذه الأحوال من تاثير على الشعراء ومذاهبهم التي ذهبوا اليها حين تناولوا صورة المرأة في مجتمعهم ، ثم أشرت الى شعراء هذا العصر المشهورين الذين يقف على رأسهم الشريف الرضيّ ومهيار الديلميّ وابن نباتة السعديّ الرفّاء وغيرهم من الشعراء مثل الاصفهاني والصاحب بن عباد والشريف المرتضي وابن حلبات والحمدوني وابن المفلّس والمحسّن ابن القاضي التنوخي والسّلاميّ وابن الحجّاج وابن سكّرة الهاشميّ ...

وتناولت في هذا الفصل أيضاً فئات المرأة وأدوارها في المجتمع البويهي ووجدت النساء في ذلك العصر قد كنّ اما حرائر وهنّ من اختلفت دورهن من جوانب كثيرة في تلك الحياة ولم يبرزن الا في الصور التي تناولها شعراء هذه الدراسة .

وقد أرجعت ذلك لأسباب عديدة أهمها الحياة الاجتماعية التي سادت وظهرت فيها مظاهر اجتماعية فاسدة يأباها العربيّ الكريم ، واما جوار وقيان وهنّ اللواتي قد انتشرن في الحياة البويهية وسيطرن على كثير من أمورها السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية بفعل اكثر الحكام والناس عامة منهنّ ، وقد عملن بذلك على تنحية المرأة الحرّة وابطال دورها الفاعل في تلك المجالات كما سيطرن على أمور مؤثرة في كيان الدولة مما سبّب فساداً واضطراباً في السياسة والمجتمع ، وساعدن بكثرتهنّ على انتشار مجالس اللهو والطرب والشراب وعلى شيوع الغناء الذي شارك في مجالسه كثير من الكبراء والشيوخ

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والحكـــام .

وجعلت الفصل الثاني لدراسة صورة المرأة المادية التي تناولهـــا شعراء الدراسة والتي جاءت المرأة فيها حبيبة فقط ، وميّزت في مقدمته بيـــن شكلين من الشعر الغزلي الأول كان خليعا" فاسدا" تناول الحديث عن الغلمـــان وهيام القوم بهم الى درجة صعب معها التمييز بينهم وبين النساء ، وقد شـــاع هذا اللون على ألسنة كثير من شعراء هذا العصر الذين ضربت صفحا" عن دراســة شعرهم هذا ويقف أبو الحسن السلامي وابن سكّرة وابن الحجاج وابن جلبـــات والوزير المهلبي على رأسهـــم .

والثاني الذى وجهت اهتمامي اليه وهو الذى تناولته مجموعة من شعـــراء هذا العصر يقف في مقدمتهم الشريف الرضي ومهيار الديلمي وابن نباتة السعـــدي والسري الرفّاء والشريف المرتضي وآخرون أوردهم الثعالبي في كتابه يتيمـــة الدهـــــر .

وقد تناولت في الصورة المادية أجزاء الجمال في المرأة وقد أوردتها متسلسلة حسب تناول الشعراء لها ، وكانت فيها صفات حسيّة جزئية وكليّة اذ لم يترك هؤلاء الشعراء شيئا من جمال المرأة دون أن يتعرضوا له بالوصف المفصّل فلقد وصفوا شعرها ووجهها وعيونها وخدودها وفمها واسنانها وعنقها وصدرهـــا وخاصرتها ويديها وساقيها وكفّيها وأصابعها ووصفوا جسمها كلا" متكاملا" ، وقـــد صدروا في تشبيهاتهم لكثير من أعضاء جسمها عن معطيات كانت في معظمها هـــي معطيات البيئة العربية القديمة ، فشعرها فاحم كالليل ووجهها ابيض ناعـــم مضيء ضياء الشمس مشرق اشراقة البدر، وخدّها أسيل ناعم او ورود حمراء وبيضاء نديّة ، وعينها عين غزالة حافلة ورموشها قسي ورماح وسهام وحاجباها سيفـــان مسلولان ، وشفتاها رقيقتان حمراوان رقة كأس الخمرة وحمرته ، وعنقها عنـــق غزالة تتطاول الى الاعالي وكفّاها مخضبتان واصبعها لينة رخصة الى غير ذلـــك من تلك الاوصاف .

وتحدثت كذلك عن ثيابها التي كانت من الخز . العجمي وهو من معطيـــات الحياة الفارسية وعن زينتها التي كانت من الدّر ، وعطرها الذى كان مسكـــا" وكافورا" وعنبرا" . لكن هؤلاء الشعراء كانوا محرومين من التمتع بمظاهـــر الجمال هذه على كثرتها وتعددها بل ان هذه العناصر في جملتها كانت مؤلمـــة لهم اذ لم ينلهم منها سوى الطعن والتجريح والايلام ، وكانت كذلك سببا فـــي تمنّع الحبيبة وصدّها ، ومع ذلك ظلوا يطلبونها ويسعون اليها متمسكيـــن بمظاهرها هذه مع ايلامها لهم وبذلك خرجت هذه العناصر من اطار الجمال الانساني

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وتعدّته الى عناصر وجزيئات منبثقة من معاناة هؤلاء الشعراء في حياتهم الصعبة .

وفي الفصل الثالث تناولت الصورة المعنوية وقد وجدت المرأة فيها تتحدد في ثلاثة معان ، اولها : الحبيبة وهي التي برزت في غرض الغزل وانبثقت صورتها فيه من نفس العربي المؤمن بالعفة والوقار ومن نفس العربي الذى عاش في المجتمع النبويهي يحفظ المرأة العربية ويصونها من أن تمس كرامتها او تخدش ولذلك وجدنا المرأة ممتنعة ممنّعة سببت لهؤلاء الشعراء الالم والظلم والعنت بشكل لم يوازهم فيه شعراء من قبل ، ومع هذا فقد ارادوها وطلبوها واقبلوا عليها بشدة ولم يملّوا طلب وصلها مع دلالها وهجرها وصدّها .

ثم تحدّثت عن طيفها الذى ارادوه تعويضا" عن احساسهم بالفقد والألم لهذه المرأة التي أحبوا ، والتي رسموا لها في أذهانهم صورة تمنوا فيها وجود حبيبة قريبة منهم تمنحهم في الخيال ما بخلت به عليهم في الواقع لكنها جاءت في هذا الخيال أحيانا بخيلة هاجرت لتكرّس آلام حبيبها وليتواصل نهاره بليله ولتكون صورة الحبيبة المعنوية امتدادا" لصورتها المادية .
وثاني الصور المعنوية الأم ، وثالثها الزوجة ، وقد برزتا في غرض الرثاء فقط .

ورأيت ان تناولهما في هذا الغرض وحده يوحي باستمرار الشعور بالفقد لدى هؤلاء الشعراء ، فالأم والزوجة توحيان بمعان تدور في فلك الامّة والكيان والتوالد والخصب والامتداد، واذا ما انبتت هذه الأمور فان انقطاعهم عنها يضيف مزيدا من الآلام لنفوسهم ويكرس في نفوسهم الشعور بان الكيان مهدد والامّة متقطعة والحياة مجدبة يعمّها اليباس والقحط وقد باعدت المسافات بينها وبين ابنائها الذين سيعيشون بعدها تلك الحياة القاحلة .

وقد جعلت الفصل الرابع للدراسة الفنية وتناولت فيه أولا" تمثال المرأة من خلال الصورة المادية كما صنعته يد الشاعر في ذلك العصر وفصّلت ما أفرغ فيه من جهده العقلي والفني حتى جاء هذا التمثال نموذجا" فنيا" تاما" في الحسن والشكل وعلى الصورة والهيئة التي أرادها صانعه ، وكأني بنفس هذا الفنان قد تاقت الى الجمال الذى امّحت آثاره وانعدمت من حياته وقد بحث عنه طويلا" فلم يجده ، وعندها لجأ الى ريشته وخياله وعقله لتوفّر له ما لم تستطع حياته توفيره من مظاهر جمالية كاملة تامة جعلت هذا التمثال الرائع يدلّ بحسنه ويتمنّع على صاحبه بل ان كل ما وضعه فيه الشاعر من عدد جمالية قد كرّست لتقيم حربا" ضده عدتها الحواجب والرموش والعيون وعددها كثير

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يتمثّل في كل جزء من أجزاء هذا التمثال وما كانت تقوم به وتؤديه من حركات تبعث حب الجمال والتمسّك بمظاهره وعناصره في نفس الشاعر وان كانت تؤلمه . ثم تناولت ما رمى اليه الشاعر حين صنع لهذه الأجزاء والعناصر الجمالية بالشكل الذي جاءت عليه وما أوحت به تلك العناصر من جوانب مختلفة كانت تصيبه وتدميه أو تبعث في نفسه الحزن والألم واليأس وتناولت دلالتها الموضعية الجزئية بالتفصيل وكما أراد لها الشاعر.

وتحدثت في هذا الفصل عن المرأة في الصورة المعنوية ودلالتها الكليّة التي وجدتها تدلّ على حياة أولئك الشعراء كاملة بكل ما فيها من معاني البخل والمنع والصد والهجر والقسوة والايلام مع اقبال الشعراء عليها ورغبتهم الشديدة فيها وطلبهم المستمرّ لها وعدم يأسهم او مللهم منها، وقد مثلّت المرأة في ذلك الحياة التي أحبّت أبناءها شباباً" وكرهتهم شيباً" لأنها لا تؤخذ الأبالقوة والعنفوان فدفعته بذلك الى طلب الحياة الحبيبة من طريق أخرى تكون في ميادين المعارك التي تحقق له المجد وهذا ما طلبه الانسان الحرّ في تلك الحياة .

ثم تناولت لغة الشعر في ذلك العصر وأوضحت أنها جاءت على شكلين ، الأول وهو الذى أعرضت عن دراسة كثير منه لأنه تناول الغزل بالغلمان وبشكل لاه فاجر وعرضت نماذج منه توخيت فيها أن تكون خالية من الفحش ، والثاني وهو الرفيع الذى جاء عليه شعر أصحاب هذه الدراسة وبذلك بعد أن قمت بتحليل أربعة من النصوص لكبار شعراء هذه الدراسة الأربعة جاءت كلها في مدح رجال من بني بويه ، وقد وجدت الشعراء فيها يريدون بعث الحياة العربية القديمة من خلال مقدمات قصائدهم التي تناولت عناصر الحياة العربية على شكل حلم تمنوا تحقيقه وفروا اليه خلاصا من واقع حياتهم القاسي في العصر البويهي ، فوقفوا بالأطلال وذكروا الأماكن العربية في الحجاز ونجد وأسماء الحبيبات العربيات التي تكررت عند الشعراء العرب ، وكانوا يريدون أيضا تنبيه الحاكم البويهي الى الماضي العربي الذى ذهب وذهبت معه صور المجد والفخار والعزة ، وبعد وقوفهم بهذه العناصر وجدتهم يعمدون الى مدح الحكام وتصويرهم في صورة رجال كرماء شجعان فكانوا بذلك عناصر أحلام عاشها أولئك الشعراء وتمنوا تحقيقها على صعيد حياتهم السياسية ، ثم خلصت الى أن هدفهم جميعا كان واحداً" من وراء ذكر تلك العناصر وأولئك الحكام .

وبعد ذلك قمت بالحديث عن لغة هذا الشعر وأثبتّ أن شيوع العناصر القديمة في شعر هؤلاء الشعراء انما جاء رمزاً" لتومن هؤلاء الشعراء الى الحياة العربية في الحجاز ونجد بكل ما فيها ، وناقشت رأى الدكتور شوقي ضيف

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

في هذا الموضوع عندما رأيته يرجع سبب شيوع هذه العناصر في شعرهم الى الضعف والعجز عن الاتيان بالجديد المبدع مرة ، والى تقليدهم واتباعهم خطى سابقيهم من الشعراء مرة أخرى ، أو لأنهم كانوا شيعة رافضين يميلون الى ذكر الاماكن المقدسة في الحجاز ونجد مرة ثالثة ، أما أنا فقد رأيت غير ما رأى ، رأيت ان صورة المرأة والحديث عنها بكل عناصرها قد مثلت أشياء كثيرة في نفوس هؤلاء الشعراء فاستخدموا صورتها بجميع عناصرها رمزا للتعبير عن هذه الأشياء التي أوضحتها في حينها .

وبهذا أظن أنني قد قمت بالكشف عن صورة المرأة عند شعراء البلاط البويهي برموزها وأبعادها ومعالمها وبشكل يمكّن الناظر اليها من رؤية هذه الأبعاد والمعالم واضحة بارزة .

والله هو الموفق

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

The Abstract

Since my study is concerned with the Bowayhi poets, views of the "Womean " - during the Bowayhi period - I have managed to approach at that level of depth in dealing with their poetic devices that are available in their poems I've gone deep through their lines so as to fully appreciate these decorated and colurful poetic devices. These devices have a special effect that makes the investigator aware of the poet's ability with the graphic descriptive scene. Thus I have deeply plunged into these picturesque descriptions so as to highlight the beauty of the choice of language and the realistic and charming characteristics that have effect upon the Bowayhi poets .

This study is introduced in four chapters; the introduction is concerned with reasons for this study and the purposes of dealing with such a subject . I must not forget mention those who studied some of the Bowayhi poets by mentioning their procedures of studying as well as my own.

The first chapter deals with the cultural,social and political conditions during the Bowayhi period. This has been done since; on one hand, many people don't have at least any idea about this period, and these conditions were a major influence on the poets and are reflected in their poems dealing with the woman's beauty . Some of those famous poets are :

All -Shareef AL-Rady, Mihyar , Al-Daylaymi , Ibn Nubata , Al-Sa'di and Al-Sarry , Al-Raffa.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

There are others, Al-Asfahani , Al-Sahib , Bin Abbad,Al-Shareef , Al-Murtadi, Ibn Jalabat, Al-Humdoni, Ibn El-Mughalles , Al-Sulami, Ibn Hadjaj and Ibn Sukkara, Al-Hashimi.

My study has dealt with the woman's ranks in the Bowayhi period and also the roles that women played during this period. I found that there are two ranks of women; the emancipated who led very sheltered lives; and the songstress and maid . The first rank has a less important role than the second for the songstress and maid dominated and controlled many aspects of life during that period. They managed to steer the wheel of life towards their own way of living having a negative impact upon leaders and famous people since they were steeped in amusement and enjoyment.

The second chapter deals with the woman's beauty and her own personal characteristics . Here I have recognized two types of erotic poetry : moral and immoral : The immoral was considered since the poets composed poems about the lods' beauty who were compared to women Poets , such as Abu Al-Hassan Al-Sulami, Ibn Sukkara, Ibn El-Hadjaj, Ibn Jalabat, and Al-Wazeer Al-Muhallabi, where as Al-Shareef Al-Radi, Mihyar , Al-Daylaymi, Ibn Nabata,Al-Sa'di,Al-Sarri,Al-Raffa', Al-Shareef Al- Murtadi and others dealt with the moral type of poetry. Those poets were mentioned in Yateemat-Al-Dahr of Al-Tha'alibi.

This type of erotic poetry praises the characteristics of beauty that a woman owned . Those poets didn't overlook any of these beautiful qualities such as : the beauty of the woman's hair , face , eyes, cheeks, mouth,teeth, neck, chest, breast , waist, hands, legs and fingers as well as

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

her body as a whole. The poets derived their poetical images and devices from environmental and realistic views. They had drawn a similie between the woman's hair and the night to show the blackness of her hair's colour; her face and the sun to show brightness; her cheeks and the blush of the red rose her eyes are as the deer's in their quick look ; her eye brows are swords in length and curvature ; her lips are as a glass of red wine; her neck as the deer's in length ; the nimble movement of her fingers, her way of dressing and make up ... ; all these charming, elegant qualities are aspects of delicacy and luxury, which the poet could only enjoy in a glance . In fact, they suffer endlessly for they could not touch or taste . This was the source of the poets' suffering tormented, tempted and insulted them . This suffering is reflected in their poems .

Since I have introduced the realistic description of the woman's beauty in the second chapter, I have to deal with the abstract side in the third chapter. Actually, I found that woman has three pre-eminent roles: the beloved, the mother and the wife. The beloved was addressed in erotic poetry. Poets described their immortal suffering because of their beloved obstinacy stubbornness and resistance.Therefore, they had painted a colourful picture of the woman's beauty in their imagination and they showed her obstinacy in this image, too . This was to show the degree of respect for the beloved. The mother's and the wife's roles were clear in elegiac poetry. The mother sacrifices everything for her child; and the wife does her best to live quietly and peacefully.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

The fourth chapter has been devoted to study the artificial aspects of the woman's beauty . The poet described her beauty and tried to paint her a charming, elegant and wonderful picture through his lines. I tried to trace his hand movements so as to have a detailed look at every bit of his work . He showd obstinacy in this imaginative work that he had drawn to illustrate his suffering . Thus we see that he feels grief, regret, despair and misery.

Then I studied the language of this poetry during the Bowayhi period. Actual poetical usage demonstrates , I have been unable to cope with the sheer bulk of immoral material which deals with the beauty of masculine youthfulness. Anyway, I tried to choose those lines which are free from dirty words. Most of the poems that I have chosen are moral ones. Then I analysed four texts which deal with praising the Bowayhiese . These four texts start with the original elements of classic poetry ; which deals with locations, names of the beloved and other relevant elements . Then the poets go on by praising the leaders' generasity and bravary . This was their way to achieve their aims and personal interests through poetry. This type of poetry was widely spread in Hijaz and Najd . Shawqi Dayf justified the reassons why those poets tried to go back to classical poetry by saying that this is a way to get rid of the weakness in the construction of the poetic language; and their inability to create new items necessary for poetry. In my opinion the opposite is true . I feel that the language the poet used during this period was only to express their own feeling frankly .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

Finally , I think that I have drawn the correct view of the woman during the Bowayhi period as shown in their poetry ; and I hope that this is clear to the readers.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ثبت المصادر والمراجع

١- ادباء العرب في الاعصر العباسية . بطرس البستاني . بيروت (دار الجيل) ١٩٧٩م ، ٢،١ .

٢- الادب في ظل بني بويه . محمود غناوى الزهيرى ، مصر (مطبعة الامانة، ط ١) ١٩٤٩م .

٣- الادب في موكب الحضارة الاسلامية ، مصطفى الشكعة ، القاهره (مطبعة الانجلو المصرية) ١٩٦٨ م.

٤- الامتاع والمؤانسة . ابو حيان التوحيدي . تصحيح وضبط احمد امين واحمد الزين ، بيروت (المكتبة العصرية) .

٥- الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى . آدم متز . تعريب محمد عبد الهادي ابو ريده ، بيروت (دار الكتاب العربي ، ط ٤) ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ١ ،٢ .

٦- الشريف الرضي ، محمد عبد الغني حسن ، سلسلة نوابغ الفكر العربي ، مصر (دار المعارف) ١٩٧٠م .

٧- الصورة الفنية في شعر ابي تمام . عبد القادر الرباعي ، اربد - الاردن، ١٩٨٠م .

٨- العصر العباسي الثاني . شوقي ضيف . القاهره (دار المعارف ، ط ٢) ١٩٧٥م .

٩- الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، شوقي ضيف ، القاهره (دار المعارف، ط ٩) ١٩٧٦م .

١٠- الكامل في التاريخ . علي بن احمد ابن الاثير. بيروت (دار صادر) ١٩٦٦م .

١١- امراء الشعر العربي في العصر العباسي ، أنيس المقدسي ، بيروت (دار العلم للملايين ، ط ٨) ١٩٦٩م.

١٢- الموسوعة العربية الميسرة .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

١٣- النثر الفني في القرن الرابع الهجرى ، مصر (المكتبة التجارية الكبرى) ١٩٦٤م ، ١ ، ٢ .

١٤- النساء العربيات . كرم البستاني . بيروت (دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر) ١٩٦٤م .

١٥- تاريخ الادب العربي . احمد حسن الزيات - بيروت (دار الثقافة ، ط ٢٦).

١٦- تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي . حسن ابراهيم حسن، مصر ، ١٩٦٧م .

١٧- تاريخ الامم الاسلامية (الدولة العباسية) ، محمد الخضري ، مصر(المكتبة التجارية الكبرى) ١٩٧٠م.

١٨- تاريخ الشعوب الاسلامية ، كارل بروكلمان ، بيروت (دار العلم للملايين، ط ٧) .

١٩- تجارب الامم . مسكويه (ابو علي احمد بن محمد)، مصر (مطبعة شركة التمدن الصناعية) ١٣٣٢هـ/١٩١٤م ، ١ ، ٢ .

٢٠- دائرة المعارف الاسلامية .

٢١- دراسة الادب العربي . مصطفى ناصف ، بيروت (دار الاندلس ،ط ٢) ١٩٨١م .

٢٢- دراسة تحليلية لشعر مهيار الديلمي ، علي علي الفلاّل . مصر (دار الفكر العربي ، ط ٢) .

٢٣- دمية القصر وعصرة اهل العصر. الباخرزي (علي بن الحسن) تحقيق ودراسة محمد التونجي ، ١ ، ٢ ، ٣ .

٢٤- ديوان ابن بناتة السعدي . دراسة وتحقيق عبد الامير مهدى حبيب الطائي، بغداد (دار الحرية) ١٩٧٧م .

٢٥- ديوان السري الرفاء . القاهرة (مكتبة القدسي) ١٣٥٥ هـ .

٢٦- ديوان الشريف الرضي . بيروت (دار صادر) .

٢٧- ديوان الشريف الرضي ،صنعة ابي حكيم الخبري . تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، العراق ، ط ١ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٢٨- ديوان مهيار الديلمي ، القاهرة ،(دار الكتب المصرية ، ط١) ١٩٢٥م ، ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .

٢٩- طبقات الشافعية الكبرى ، السبكي (تاج الدين ابو نصر عبد الوهـــاب) بيروت (دار المعرفة ،ط ٢) .

٣٠- ظهر الاسلام ، احمد امين ، القاهره (مكتبة النهضة المصرية ، ط ٤) ١٩٦٦، ١ ، ٢ .

٣١- عصر الدول والامارات . شوقي ضيف ، القاهرة (دار المعارف) ١٩٨٠م .

٣٢- قراءة ثانية لشعرنا القديم . مصطفى ناصف ، بيروت (دار الاندلـــس ، ط ٢) ١٩٨١م .

٣٣- لسان العرب المحيط ، ابن منظور ، بيروت (دار لسان العرب) .

٣٤- وفيات الاعيان . ابن خلكان ، تحقيق احسان عباس ، بيروت (دار الثقافة).

٣٥- يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر ، الثعالبي (عبد الملك بن محمـــد)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، بيروت (دار الفكر ، ط ٢) ١٣٦٣هـ / ١٩٧٣م . ١ ، ٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فهرس الموضوعات

الموضوع		الصفحة
أ .	مقدمة	
الفصل الاول :	العصر البويهي ، احواله واوضاع المرأة فيه .	١ - ٢٤
الفصل الثاني :	الصورة المادية للمرأة في الشعر البويهي .	٢٥ - ٦٤
الفصل الثالث :	الصورة المعنوية للمرأة في الشعر البويهي ، الحبيبة ، الأم ، الزوجة.	٦٥ - ٩٥
الفصل الرابع :	الدراسة الفنية المرأة في الصورة المادية ودلالتها الموضعية . المرأة في الصورة المعنوية ودلالتها الكلية . مقطع المرأة وأثره في بناء القصيدة عند شعراء الدراسة . لغة الشعر عند شعراء الدراسة .	٩٦ - ١٦٠
الخاتمة :		١٦١ - ١٦٥
المصادر والمراجع :		١٧١ - ١٧٣

© Arabic Digital Library-Yarmouk University